حكايات شخصية عن القراءة

حكايات حارس الكتب

عماد العادلي

دار دوّن

حكايات حارس الكتب

(حكايات شخصية عن القراءة) عماد العادلي

عماد العادلي: حكايات حارس الكتب، كتاب

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٠

رقم الإيداع: ٢٥٦١٣ /٢٠١٩ - الترقيم الدولي: 1 - 187 - 806 - 977 - 978

جَميـع حُقـوق الطبْـع والنَّشر محـْفُوظة للناشِر

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

ما قبل

بين أيديكم كلماتي الأُولى التي أُصَدِّرهَا بين دِفَتي كِتاب.. عِدة حكايات أو حواديت عن القراءة في حياتي.. يُمكن أن نقُول إنها حكايات شخصية أو بالأحرى حكايات شخصية عَن القراءة.. حكايات من فيض الخاطر، ومن خيرات الذاكرة العامرة.. هدفها الأساسي هُو الإمتاع والتَسلية.. ولا أزعُم أن لها أهدافًا أُخرى، رُبما يراها البَعض مُفيدة، فنُضيف الإفادة كَهَدَفٍ من الأهداف، ورُبما يراها البعض مُحَفزة على القراءة، فنَضيف أيضًا هدفًا آخر، وقد لا يرى البعض هذا ولا ذاك، فلن أعترض على ما يرى بكُل تأكيد، ولكن أَعِدُهُ أو الأدَق (أتمنى له) رحلة مُمتعة بين الحواديت.

إلى

عمرو العادلي

وكَفَىَ

إهـداء

إلى فامليتي

الست «هبة سُلطان».. التي تتحمل مُنذ عشرين عامًا رجُلًا يتغير مزاجه كل ثلاث دقائق

والواد «عَلي».. الفنان اللي بقى أطول مِن أبوه

والبت «مَريَم».. خليفة أبوها في الملاعب، الكلبوظة الوظووظة القارئة

والبت «سلمىَ».. بسكوتة العِيلة المسَكَّرة

والواد «عُمَر أفندي كَعب الغَزَال».. اللي بيفكرني بشبابي لما كان عندي ست سنين

الست إلهام الأولى والست ناهد المسكرة .. صاحبتا الحضور المتميز في الحواديت

ولئة كُولكاااان

في غابر زماني، والعقل صفحة بيضاء بلا نقوش ولا ألوان، بلا انتماءات ولا انحيازات، وفي مرحلة الوَعى المُتشَكِّل وفقًا لقناعات الأسرة وأفكارها، دُون الاصطدام بعالم الأفكار المُربك، وصراعات الأفكار المُهلكة، حيث كُنت طفلًا في الرابعة لا يرى مِن الحياة إلا أباه وأُمه وإخوته، وهُم كُل العالم بالنسبة له، كُنت قَد مَررت بتجربة مَرَضية كَادت تُودي بحياتي البازغة، وفي الحقيقة أنا لا أتذكرها إلا كَطيف، بينما بطلة حكيها، والسبب في تدوينها هي أُمي -رحمها الله- حيث كانت تذكُرها دائمًا للتدليل على لماضتي المُبكرة.

حُجِزتُ في تلك السن بمستشفى الحُميات قُرابة شَهر؛ لإصابتي بنوعٍ مِن الحُمى لا أذكُره ولا تذكُره أُمي، وكانت مُستشفى الحُميات فقيرة الخدمات، وعلى المُقيمين فيها أن يتدبروا أمورهم في بعض الأشياء، وبالطبع بُحكم أنني طِفل ومريض، كانت الأُم العظيمة تقوم بكُل المهام اللازمة، فكانت تخرج لشراء الكثير مِن المُستلزمات والنواقص وبعض الحاجات الأُخرى لزوم دَلع ومياصة الولد العيان، من عصائر وأغذية مُعَلبة، وبعض الألعاب البدائية؛ كالقرد المُصَفق، ولاعب الجُمباز النَطَاط، والرجُل العائم، والكاميرا السحرية الصغيرة.

وتَحكي أمي أنه في وَقتٍ مِن الأوقات قُطِعَت المياه في المُستَشفى لعِدة ساعات؛ لأنهُم كانوا يقومون بإصلاحات في المواسير والخزانات، وبالطَبع لم تكُن هُناك مَشكلة أكبر مِن مُشكلة النظَافة الشخصية، وخاصة لطفل صغير يأخُذ كمية وافرة مِن الأدوية تُثير الأمعاء وتُحفزها على الصراعات الطاردة،

فواجهت أُمي تلك المُشكلة بطريقتها الريفية الأصيلة، وهي استخدام ورق الجرائد بديلًا عَن التشطيف والتنظيف، ورغم طفولتي الساذجة، إلا أنني رفضت الأمر، وقاومت بكُل شِدة، رغم مُحاولات الإقناع المُستميتة، مِن الأُم تارة ومِن المُمرضة البدينة مَهِيبة الحَجم والطلة تارة أُخرى، ومِن جارتنا الحاجَّة المُسنة التي جاءت برفقة حفيدتها تارة ثالثة، كانوا يطلبون مِني ذلك وهُم جميعًا وُقُوف.. كانوا يُراقبون عَن كَثب، ويُريدون معرفة إلى أي مَدى سأستمرُّ في عِنَادي، ومما زاد الطين بِلة أن حفيدة الجدة كَانت تَتَطَلع بشغف لما ستُفضي إليه المُفاوضات المُتعثرة، وأنا طبعًا راسي وألف جَزمة قديمة ألا يحدُث ذلك الأمر، أغلقت ما بين حاجبي المُنغلق أصلًا بواصل حواجب له نفس كثافة الشَعر، وثُرت ثائرةً عظيمةً؛ للحفاظ على كرامتي التي ستُسفك بعد قليل، وحينما تَدَخَّلت أصوات الجميع مُحاولين الإقناع، ومُتوسطين في الخير، زَعَقْتُ فيهم بصوت مِسرسع ولكنه مُرتَفع.

- «حلام عليكم.. تي ولئة كولكان.. كولكاااااااااااان».

وكان رفضًا مُبرّرًا بالنسبة لي، وفَهِم الجَميع قصدي، فقد كُنت أظُن أن تلك الورقة ورقة قرآن، وحاول الجميع عبثًا إقناعي بأنها ورقة جرنان وليست ورقة «كولكان»، ولكن رَفَضَ القِفل الصَدِئ في عَقلي كُل المُحاولات.

وأمام هَذا الرَفض المُطلق الدُوجمائي رَضَخَ الجميع للفَسْل الصَغير، واستعارت أُمي بَعض الماء مِن إحدى جَارات المَرَض، وسحبتني على الحمام لتُشطفني بَعد أن كُنت قَد زروطت نفسي أثناء فترة المُباحثات الشاقة، وكان على الأُم المسكينة تحمُّل نتائج تَعَثُّر المُفاوضات، فتحملتْ مسئوليتها، وقامت بتنظيف الأستاذ «أبو .....»!

ولم يَحمِل هَذا الموقف حينها أي دلالات، وحتى حينما كانت الأُسرة تتذكره، فإنما تَتذكره فقط كمادة للفكاهة والتسلية، وأحيانًا للتندُّر على قَيَامتي وألاطتي الموجودة مُنذ الصِغَر.

ولكن بعدما كبرتُ وفكرتُ في الأمر وجدت أنه قَد يحمل دلالة أُخرى لم نلحظها ولم نتحدث عنها حينها، وهي أننا نَرضع احترام المُقَدَّس مَع حليب أُمهاتنا، فرغم أنني في ذلك الوقت لم أكُن أعي مفهُوم القداسة، ولا أفهم حرفًا واحدًا مِن حروف القرآن، إلا أن فكرة القداسة تجاهه قد نمت في لا وعيي من خلال قراءة أبي الوجلة الخاشعة له، فقد كُنت أراه وهو يهتزُّ أمامًا وخلفًا، ويُغمض عينيه في هيئة مُستسلمة ومُسلمة، وهو الوحش المُرعب في الحقيقة، وأيضًا تقبيل أمي الدائم للمُصحف المُستقر فوق جهاز الراديو العتيق، وحرصها على تنظيفه دائمًا مما قد يعلق به من الأتربة، وأيضًا استخدامه كأداة لفضِّ المُنازعات والتصالح، كأن يحلف عليه أحدهم بشيء يُلزم نفسه به إلزامًا صارمًا، وحالة الطمأنينة التي كانت تُصيب قلبي حينما أسمع القرآن، وأنا على يقين أنه يطرد العفاريت والأرواح الشريرة التي تُريد إيذاءنا، وغير ذلك من مظاهر الاحترام والتبجيل.

وهذا التبجيل المُبكر يقف كحائط صد منيع أمام كُل مُحاولات النَيل من المُقدس فيما بعد، والمُقدس هُنا ليس المقصود به القرآن فحسب، بل مُقدس كُل الأديان، بل قد يصل الأمر إلى العادات والتقاليد، والتي تنالها مسحة قداسة هي الأُخرى، فمن الصعب وأحيانًا من المُستحيل أن تكُون قد تربيت على مفاهيم معينة، ولا تظل هذه المفاهيم في عقلك وقلبك ووجدانك طوال عُمرك، حتى وإن ظننتَ أنك تخلصتَ منها بعد نضوج عقلك وتبحُّرك في

فروع المعرفة المُختلفة، ما عليك إلا أن تُفتش عنها في ثناياك، أو تتعرض لموقف يُمكنه أن يستدعيها، فسرعان ما ستراها ناصعة جلية أمامك.

وقَد تولدت لَديَّ قناعة ما زالت موجُودة حتى الآن، وهي أن الصراعات التي تقوم لإثبات صِحة الأديان ليست بذات فائدة، فإثبات المُقَدَّس بالعقل أمر شِبه مُستحيل، والمُقدس هُنا مقصود به مُقدَّس كُل دين على حِدة، فلو صَحَّ إيمان قَلبك لن تحتاج إلى أي إثباتات عقلية، وإيمان القلب ينشأ في مَهدِ طفولتك.

أذكر حينما كُنت في الجامعة، وتحت وطأة الانبهار بالفلسفة وانفلاتها شبه المُطلق من أي قيود، وتحرُّرها من مُعظم الأفكار الميتافيزيقية الغيبية، وعدم اعترافها أحيانًا بحق المُقدس في أن يكون مُقدسًا، كُنت قَد أُصبت بحالة من فُقدان المعايير واختلال القيم التي تربيت عليها، وتخلخل المُستقرات الراسخات في عقلي ووجداني، بل و انهدام بعضها، لا سيما حينما انسقتُ خلف بعض الأفكار دون التسلح بمعرفة حقيقية، فالأمر لم يكُن أكثر من مُغامرة تروق لنزَق المراهقة الفكرية التي كُنت أعيشها حينذاك، مُضافًا إلى ذلك نَفحة من العبثية على شَلحة من العدمية، ولكن رغم حالة التخبط والتفكك واللامُبالاة التي انتابتني، فضلًا عن بعض الأصدقاء الجُدد الذين دخلوا حياتي المُتحررة الجديدة، والذين كان أغلبهُم يتباهى بالإلحاد، إلا أن عقيدتي وقناعاتي الروحية كانت خارج هذا الصراع الفكري تمامًا.

تَذَكَرت هذا الموقف مُؤخرًا، حينما كُنتُ جالسًا في غُرفة مكتبي، وابني «عُمر» جالس يلعب بفوَط البيت كما هو مُعتاد دائمًا، وأنا مِن عاداتي حينما أقرأ، أقرأ بصوت عَالٍ كأنني أُخاطب مؤلف الكتاب، أو أبطال العمل إن كان

أدبيًّا، فإذا بي أجد «عُمر» يَجرى نَحوي مُكشرًا وهو يعاتبني بشِدة عن علوِّ صوتي أثناء الأذان، وهُو يُشير ناحية التلفزيون بغضب، فَنَظَرت له مُبتسمًا:

- وفيها إيه يعني يا «عُمر» لما أتكلم والآذان شغال؟

- حَلام يا بابا حَلام.. حَلام تتكلم والكُولكان سَخَال!

قِصة حُب عَسَلية

كُنت في سِني الأولى كلبوظة وما زلت.. حريص على هندمة ملابسي وتصفيف شَعري بعناية وما زلت، وكانت أُمي في ذلك الوقت حريصة على تفحُّص مُحتويات المِخلة (الشنطة آنذاك) قبل الذهاب للمدرسة بعد أن اكتشفت ذات مرة أنني أنسى أحيانًا، وأضع المِشط والمرآة بَدلًا مِن الكُتب والكراريس، وكان أنفي الصغير، وعيناي الضيقتان، وخدودي المُنتفخة، وصوتي المسرسع، بالإضافة للسبسبة المُبالغ فيها يُعطي انطباعًا لزُملاء الدراسة في الصف الأول الابتدائي بأنني «عيل هَفية»

لذلك كُنت أتسلح لمُواجهة التنمر بتضخيم صوتي قدر استطاعة أحبالي الصوتية على فعل ذلك، وتوزيع نظرات من تلك التي يُسمونها شذرًا على العِيال في الفصل، وحذاء سبعيناتي عتيق له كعب قادر على هرس الألغام دُون أن يتأثر، لا سيما بعدما نَمَتْ قصة الحُب الأولى في حياتي، والتي كان لا بد من الظهور أمام صاحبتها بمظهر يليق بحبيب قوي، وفتاة أحلامي في ذلك الوقت هي البنت «سهام»، وهي فتاة قصيرة ونحيفة، لها أُذنان مغرفيتان، ونمش يُملأ كامل وجهها، لها عينان بقريَّتان وشهر هائش لا تعرف له أي اتجاه، وكُنت الوحيد الذي يُناديها باسمها في الفصل، فالجميع كانوا ينادونها بـ«كناديشو»؛ «سهام» التي قبل أن نتبادل نظرات الحُب كُنا نتبادل السندوتشات، والتي كانت مُفتاح الحُب الذي لا يخيب، فضلًا عن العُنصر المشترك والمهم بيننا وهو أن أبلة «فاطمة» كانت تُصنفنا بالأشطر على مُستوى الفصل كُله، كانت «سهام» تجلس في التختة الأولى، وأنا أجلس في

الأخيرة بحُكم الطول، وكُنا نتبادل نظرات الهيام والغرام كُلما سمحت الظروف بذلك، وظلَّ الحال هكذا عدة أشهر، نُعَبر عما يُمكن أن نُسميه بالحُب الأخضر من خلال النظرات والسندوتشات ولا شيء غير ذلك، لم تكُن «سهام» تشغل بالي إطلاقًا إلا عِند رؤيتها، أما غير ذلك فأمور الأطفال العادية، فلم أضبط نفسي يومًا أُفكر فيها قبل النوم، أو في أوقات الصفاء، أو في أي وقت، رُبما جال في خاطري أحيانًا ساندوتشات الجُبن الرومي والبسطرمة التي كانت تنفحني إياها عن طيب خاطر في الفُسحة، فالآتون من الريف أمثالي لا يعرفون إلا ساندوتشات البطاطس المحمرة أو المهروسة أو الجُبن القريش بالطماطم. وذات يوم ونحن نتشارك طعام الفُسحة، أخرجت «سهام» من حقيبتها كُتَيبًا صغير الحجم له غُلاف سميك، وعدد صفحاته لا تتجاوز العشر صفحات، كُله صور مُلونة لحيوانات وطيور أعرف بعضها ولا أعرف البعض الآخر، وكان الكتاب باللغة الإنجليزية، والتي لم نكُن نعرف عنها أي شيء قَبل الصف الأول الإعدادي وفقًا لنظام التعليم آنذاك، فأبوها الذي يعمل في الأهرامات اشتراه لها من أحد الأجانب كما تقول، كانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها كتابًا مُلونًا بهذا الإبهار، كتابًا غير كتاب المدرسة الكالح الذي لا ألوان فيه، وكان انبهار البدايات شديد القوة، استأذنتها في استعارته لمدة يوم، ففاجأتني بإهدائه لي، لم أُصدِّق أن هذا الكتاب الذي لا أفهم فيه حرفًا واحدًا أصبح ملكي بكُل صوَره وكُل ألوانه، بكُل كائناته التي تكاد تخرج حية تسعى؛ لجودة تصويرها، ودقة التفاصيل الظاهرة فيها، أخذت الكتاب وأنا لا أعرف كيف أشكر «سهام» على هذه الهدية الثمينة، فكرت في أن أُقبِّلها؛ عرفانًا وشكرًا، ولكني تراجعت سريعًا عن هذه الفكرة النَزِقَة المجنونة، جلست أُفكر طوال حصة أبلة «فاطمة»، كيف أردُّ الجميل؟ وأثناء تفكيري

العميق دَخَلَ عَم «رَجَب» الفراش مُستأذنًا من الأبلة ليعرض الحَاجَة الحُلوة التي يبيعها، اتخذت قرارًا حاسمًا وسريعًا على أن أردَّ جميل الكتاب بنبوت عسلية من ذلك النوع الأبيض الذي تعشقه «سهام»، اشتريت نبوتين، أحدهما ضخم والآخر صغير كصُباع الطباشير، دسست الضخم في المخلة حتى يسمح لي الوقت بردِّ الجميل، ووضعت الصغير في جيب المريلة، وجلست أَدَّعِي الاستماع والإنصات إلى ما تقوله الأبله «فاطمة»، وفي الحقيقة أنا كُنت هائمًا كالمجذوب في هذا الاختراع العجيب ذي الألوان، أفتحه من تحت التختة، وأتأمل جمال الطيور وطبيعية المخلوقات التي يحتويها، أصعد الجبال الثلجية مع الدُبِّ الأبيض، وأطوف الأحراش الخضراء لأرى الأُسُود المُفترسة، وأُحلق في الفضاء بصُحبة طيور مُختلفة الأشكال والأحجام والألوان، وحتى تكتمل المُتعة، قرر عقلي الباطن أن أدُسَّ يدي في جيب مريلتي، وأنا هائم في هذه الطبيعة الخلابة، وأُخرج عسليتي اللذيذة، وأقضم منها قضمة تليق بالبهجة المُتحققة، وتُضاعف السعادة البازغة، ولكن أحيانًا تأتِي الرياح بما يسدُّ نِفْس السُفن، ويضعها أمام حقيقة مرة مُفجعة وحارقة كاوية، فالذي تم قضمه في لحظة الاتحاد مع الطبيعة كان صُباع الطباشير الذي أعطتني إياه الأبله باعتباري التلميذ الأكثر تميزًا؛ لأحتفظ به في جيبي، وأُعطيه لها وقتما تطلبه، وأذكر أنني في لحظات التجلي التي سبقت الواقعة كُنت مُغيبًا تمامًا عن الحياة، وحينما وقعت الواقعة لم أشعر بطعم الجير (وما أدراك ما جير الطباشير) إلا بعد أن ابتلعتُ بعضًا منه، وعَلِقَ الباقي في سقف حلقي، وشعرت حينها بحرقان شديد في لساني وشفتيّ، وما أن عُدت إلى الواقع، واكتشفت المأساة حتى سابت أعصابي، ودخلت في نوبة بُكاء، وحاولت أبلة «فاطمة» عمل شيء، فأمرت بكوب ماء، وطلبت مني أن أغسل

فمي لأُخرج بقايا الجير، فاطمأنَّ قلبي قليلًا، ولكن تلاشت الطمأنينة واختفى الأمان، بعدما وسوس لي الولد الذي كان يجلس بجواري بأنني حتمًا سأموت؛ لأن الجير سينتفخ في بطني حتى ينفجر ويُفجِّرني مَعَه، وكان الولد جادًّا وليس ساخرًا، ويبدو على ملامحه أنه ليس مُدعي معرفة، فالمُستمع إليه يشعر بأن معه دُكتوراه في الطباشير، وهُنا انهرت تمامًا مُرددًا كلمة: «هاموت يا أبلة»، فانفجر الفصل ضاحكًا بشكل جماعي، ولم يتوقف العيال حتى نهرتهُم الأبلة وهددتهم بالخرزانة، وأخذتني في حُضنها الدافئ المُطمئن، لتردَّ لي بعضًا من روحي التي تخرج مرة ثانية، وللأسف مصيبتي في ذلك اليوم كانت مُصيبتين، الأولى هي الجير الذي سينفجر في بطني، ويُنهي حياتي التي بالكَاد بدأت، والثانية أن «سهام» كانت تضحك مع الضاحكين، بل تضحك بشكل هستيري، وتُشير عليَّ وتقول: «العيوطي أهوه هو العيوطي أهوه هو»، فلم أكن أعرف هل أحزن على بطني الذي سينفجر أم على قلبي الذي انكسر، وكرهت «سهام» مُنذ ذلك اليوم، وخاصمتها «خاصومة خالوصة» بعد أن تَفَلْنَا على إصبعينا ولامسناهُما؛ تعبيرًا عن القطيعة النهائية، واستغنيت عن الحُب الذي كان، وعن الساندوتشات العامرة بما لذَّ طعمه وغلا ثمنه، بينما ظَل الكتاب السحري خارج مُعادلة الخصومة، وتمت «الطرمخة» عليه من ناحيتي، ومن حُسن الحظ أنها نسيت أمر الكتاب أو رُبما ادَّعَت النسيان على أمل وَصل ما انقطع، ولكن هيهات، وهل بعد الكرامة شيء؟

ظل الكتاب أنيسي وسُلوتي وجليسي ومُسامري في الليل، صار موجهًا لأحلامي التي تحولت جميعها لحيوانات وطيور، وجبال وبحار وصحاري وأنهار، ولكن لأن الأيام دول، ولأنه لا شيء يبقى على حاله، جاء صباح من الصباحات القديمة فَقَدَ فيها الساحر الصغير بعضًا من سطوته، وانزاح قليلًا

عن مركزيته، حيث اكتشفت عالمًا آخر من السحر المكتوب باللغة التي تعلمتها.. اكتشفت عالم الست «أم شربات».

بلاعة المَعرِفَة

وBookstore أُم شَرْبَات

ليس خطًأ مطبعيًا تسبب في اختفاء نقطة حرف الغين ليُحيلها إلى عين.. مما يجعل البلاغة بلَّاعة، ما قرأته صحيح لا خطأ فيه، إنها الحقيقة التي لن أُخفيها ولن أُجَمِّلَها، فعلاقتي بالقراءة الحُرة خارج مناهج الدراسة ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بذكرى سقُوطي للمرة الأولى والأخيرة (حتى الآن) في بالوعة صرف صحي، وكان عُمري حينها سَبع سنوات لا أكثر.. سأحكي لكُم الحكاية..

كَان لنا بيت ريفي على أطراف القاهرة كمُعظم النازحين من الأرياف، فوق أرضٍ بها من الزراعة أكثر مما بها من البيوت، وكأننا أبَينَا أن نأتي إلى المدينة إلا وغيطنا معنا، وكان هُناك دُكَان بقالة وحيد عبارة عن خَرق في إحدى حوائط بيت، وباب من الصاج الصدئ لم أره مرةً واحدة مُغلقًا، ولم يكُن هُناك لافتة تحمل اسم الدكان، ولكنه كان يُعرف بدُكان «أم شَرّبَاتْ» تلك المرأة النحيلة الصَمُوتة ذات الجلباب الريفي الأزرق، والذي كان علامة مُميزة لها تُعرف من خلاله على مَدَد الشُوف.. كان دُكان «أم شربات» بمثابة المَكَان الاستراتيجي الأبرز والأكثر أهمية في منطقتنا فقيرة الموارد.. كان المَصدَر الأكبر للتموين، من إبرة الوابور وشريط لمبة الجاز وراتينة الكلُوب، إلى السَمن والدقيق والسُكر والشاي، فضلًا عن حلويات ذلك الزمان التي كُنا نعشقها؛ وكَان الجَاز هو السلعة الأكثر استخدامًا في المنطقة التي لم تكُن تعرف الكهرباء ولا الغاز الطبيعي، لذلك كان «أبو سعُودي»، وهُو زوج «أم شربات»

-لا أعرف لماذا هُو «أبو سعودي» وهي «أم شربات»!- الرجُل الطاعن في السِنْ يرُصُّ عددًا من براميل الجاز، ويُشرف بنفسه على بيعها مُعتمدًا على أحد أحفاده الذي كان زميلًا لي في المدرسة، وكان دُكان «أم شربات» مَصدَر بهجة وسعادة لأبناء النطاق وخاصة الأطفال، فقد كان مُرُورنا عليه صباحًا قَبل الذهاب إلى المدرسة بمثابة فعل الضرورة الذي لا بُد مِنه، فبأقل مصروف يُمكنك الحصول على شيء ما، إن لم تكُن عسلية نبوت الغفير فكيس صغير من براغيت الست، أما إن كُنت فقيرًا فقريًّا ولا تَملك أكثر مِن خمسة قروش، فليس أمامك إلا المصاصة العجيبة التي كَانت الست «أم شربات» تقوم بصناعتها يدويًا في إناءٍ أسود اللون من الداخل والخارج، والذي كانت تضعه فوق وابور تفوح من أركانه رائحة الجاز المحروق (والتي ما زالت حتى الآن مُحببة إلى قلبي ومُسِيلَةً للُعَابي؛ لأنها ارتبطَت عندنا ارتباطًا شرطيًّا مع عمل الطعام بشكل عام)، ومصاصة «أم شربات» كانت عبارة عن سُكر محروق مُضاف إليه مُنكهات طبيعية مثل عصير الليمون أو عصير البرتُقال أو النعناع الأخضر، والذي يُخلط ويوضع على نار هادئة حتى يصير مزيجًا شفافًا عجيب الشَكل مُغرِي الرائحة، وعند هذه المرحلة تقُوم الست بغمس عُصي المصاصات التي كُنت أجمعها من الشوارع يوميًّا مع زميلي حفيد «أبو سعودي» في مُقابل نَفحَة تُدخل السرُور على قلبي من الست «أم شربات»، وبعد إخراجها من الإناء الأسود تقوم بتدويرها في الهواء عدة مرات، وقبل أن تبرد تقُوم بلفها بورق مُقطع لشرائح عرضية من كتب دراسية بالية، فيلتصق الورق بالمصاصة التصاقًا كاثُوليكيًّا لا فكَاك مِنه، فنضطر أن نأكلها بالورقة أو على أفضل تقدير ببقاياها إذا نجحنا في تقشير أجزاء منها، وكان

علينا أن نظل نُتفتف أثناء مرحلة الأكل، حتى إن التفتفة تحولت لجُزء من مُتعة تناول مصاصة «أم شربات».

وكان «البلي» من السلع المُتوفرة دائمًا عندها، وكان معيار الثراء بيننا، فبقدر ما تمتلك من «بلي» بقدر ما يُمكنك التفاخر بين الأصدقاء، ويُمكنك أن تمشي في الأرضِ مرحًا، وكأنك ستخرق الأرض أو تبلُغ الجبالَ طولًا، وبما أنني كُنت مِن رقيقي الحال فقد كانت حصيلتي من البلي مسكينة لا يُمكنني التفاخر بها، لذا كان عليَّ المُغامرة باللعب على قليلي حتى ينمو ويربح، وبالفعل استطعتُ تكوين ثروة طائلة من «البلي» وُضعت جميعها في برطمانات تحت السرير، حتى جاء ذلك اليوم المشئوم الذي غضب فيه أبي عليَّ بسبب الصرمحة النهارية والنوم بقية اليوم، فقرر أن يطعنني في أعزِّ ما أملك، وأن يُبدد ثروتي من البلي، فأخذه كُله وقذف به خلف سور «الشركة» المُقابل لبيتنا.. نسيت أن أقول لكم إن سورًا غامضًا كان يربض أمام بيتنا يُسمى «سور الشركة»، لا نعرف ما اسمها، وما طبيعة عملها.. كان خلفه مكان مهجور تسكُنه الكلاب والعفاريت، وكُنا نتجنَّب مُجرد الاقتراب منه ليلًا، قالت أختي ذات مرة وكانت في سن ما قبل المُراهقة مُباشرة إنها رأت ذات فَجر مجموعة من الأوز الصغير يسير بجوار السور في حجمه الطبيعي، ثُم فجأة بدأ حجمه في الازدياد حتى تضخم وصار مثل خروف، ثم بدأ يتسلَّق السور وهو ينبح كالكلاب الصغيرة حتى اختفى خلف السور في الجهة المُقابلة، وطبعًا هذه الحكاية التي كانت أُختي تُرددها صباح مساء في تحدٍّ واضح لقُدرتنا على الصُمود أمام هذا الإرعاب المُتعمد كفيلة بأن أوقن أن البلي راح بلا أمل في الرجوع، ولكن لأن الحياة مجموعة من المُحاولات الطموحة لتحقيق الأهداف، فقد قررتُ ألا أستسلم لليأس، وأخوض تجربة جديدة وهي تجربة

«الكازوز»، وهي أغطية زُجاجات المشروبات الغازية، والتي تتميز بأنها مجانية لا تحتاج إلا إلى مجهود البحث والتنقيب عنها، فكنت أسرح في الشوارع مع أقراني الفقريين الذين استعذبوا الفكرة، وقرروا خوض المُغامرة، وكانت أهدافنا مُحددة تمامًا ومعروفة، وهي أكشاك السجائر والمشروبات ومحالّ البقالة العامرة، وطبعًا تَطَلَّبَ ذلك الخروج من الأطراف إلى العُمق المديني المُبهر، وأذكر أننا كُنا نظل نبحث عن الأغطية بالساعات، والتي قد تصل إلى خمس ساعات مُتواصلة دون كلل ولا ملل، ودون طعام ولا شراب، كُنا بعد ذلك نذهب إلى بيوتنا، ونبدأ في عملية إعادة التدوير الكُبرى، فكُنا نملأ الأغطية بالطين حتى يصير الغطاءُ ثقيلًا، ونتمكّن من استخدامه في اللعب كبديل اقتصادي للبلي، وكُنا نبتكر منه أيضًا أشياء أخرى لزوم الإبداع كأن نقوم بفرد الغطاء تمامًا حتى يُصبح على شكل دائرة مُشرشرة، ثُم نقوم بتعشيقه مع أغطية أخرى لنصنع منه نماذج مُصغرة من الأثاث المنزلي كالمناضد والكراسي والأَسِرَّة.

وكُنا نُغامر مُغامرات عظيمة من أجل عيون الست كازوزة، فأذكر مثلًا أنني في أحد أيام الجُمَع خرجت من البيت في الثامنة صباحًا، ومررت على أحد رُفقاء التَشرُّد، وتحركنا على غير وِجهَة، ومررنا أثناء سيرنا على أماكن نحفظها عَن ظَهر قلب، كجامع الشيخ «عبد المرضي» وكنيسة العذراء المُقابلة له، وفُرنة عم «سيد» ومصنع الدندورما المُثلجة، ثم آخر حدود معرفتنا كان شَارع المُعاهدة، والذي يُقال إن تسميته ترجع لمعاهدة ٣٦ بين مصر والاحتلال البريطاني، وبعد عبور الشارع تُصبح الدُنيا غامضة لا شيء فيها نَعرفه، فتأخذنا نَدَّاهة المُغامرة، وتَنشَط لَدَينا مَلَكَات الاستكشاف، ولكن سُرعان ما يأخُذنا مَأخَذ آخر أهم من ذلك وهو البَحث عَن «الكازوز».

وكانت المُهمة تتلخص في الانحناء المُستمر فوق الأرض الإسفلتية المُلتَهِبة لالتقاط أغطية زُجاجات المياه الغازية ووضعها في كِيس بلاستيكي، وهي غَنيمة لو تَعلمون عَظيمة، والحظ يُصبح مُواتيًا لو مررنا بكُشك حلويات أو محل بقالة، حيث يُطَرقع الرجُل زُجاجات الحاجة الساقعة بالفتاحة المعدنية تاركًا الغطاء يتَدَحرج أمام الدُّكان، وكُنا نَشعُر بالغُبن حينما يشتمنا الرجُل أو يَشخُط فينا ويَطردنا؛ لأننا نُعطل حركة البيع عِنده، أو رُبما للظَن بأننا لصوص صغار نَطمع في بضاعته، أما ما كان يَحز في قلوبنا فهو أن نَرى أحد الأغطية محشور حشرًا في الأرض بفعل مرور السيارات فوقه فيلتصق بالأسفلت المُلتهب، ولم يكُن ذلك يُعطلنا عن جمع ثروتنا الثمينة، فكُنا ننبش في الأسفلت حتى نُخَلص المسكينة من أقدام المارة وكاوتشات السيارات.

نَشوة المَغنم أنستنا الوقت الذي انقضى والليل الذي حَل، ولكن صَديق التَشرد وفي لحظة لا أعرف مُسبباتها وجدته يصرخ شاتمًا مُعاتبًا؛ لأنه تّذكر الآن فقط العَلقة المُعتبرة التي سيأكلها حينما يذهب إلى بيته، فذكرني أنا الآخر بالمصير المأساوي، الذي يفوق مصير الرفيق بكثير، فأباه عَم «عصفور» صغير كالعُصفور، وإذا سَفَخَه كَف فلن يكون مُؤلمًا بدرجة كبيرة، أما أبي أنا فقد كان عملاقًا له يد عظيمة وساعد مَهيب، وكَفه كفيل بأن يُحَول فَكّي الأسفل إلى ناحية قفاي، حاولت أن أُوقظ ميكانيزمات الطمأنينة خاصتي حتى أستطيع أن أعود إلى البيت..

البيت؟ كيف نَذهَب إلى البيت؟ لقد تُهنا أنا والمتعوس خائب الرجاء المَعكُوك معي في هذه الرحلة الأثيمة.

- يا عم والنبي عاوزين نروَّح.

- ساكن فين يا ابني؟

- عند كنيسة العَدرا اللي بعد شارع المُعاهدة.

- يا نهار أبوك أسود إنت وهوَ.. دا ولا ساعة عشان توصلوا.

وطبعًا لم يكن مظهرنا يوحي بأننا أولاد ناس، فالواضح أننا عيال مُتشردة خرجت للعب وتاهت، ولا تَعرف طريقًا للعودة إلى بيتها، ولكن حينما لمح الرجُل الدموع الحبيسة في عيوننا رقَّ قلبه ووصَفَ لنا الطريق، فأشار إلى شارع طويل علينا أن نَسير فيه، وعِند انتهائه نَدخُل يمين ثم على طول ثُم يمين آخر ثُم على طُول، ثُم ثُم ثُم.. وطبعًا تُهنا بعد أول دَخَلة يمين، وسألنا مرات عديدة، حتى لَمح صديق الكفاح صَليب الكَنيسة المَضيء بازغًا مِن خَلف البنايات، فأشار إليه في هَلع الشَخص الذي تَم إنقاذه مِن هلاك مُحَقق، أخذنا المسافة المُتبقية جريًا حتى وصلنا إلى بيتينا، فسلَّمت عليه سَلام الوَداع، وذَهَبَ كُل مِنا ليلقى مصيره، أو يَلقَى حَتفه، حَسَب الحالة المزاجية للأب، وما أن دَخَلت إلى البيت أُقَدّم رِجلًا وأُؤخر الثانية، حتى فوجئت بأن البيت هُس اسكت لا صوت فيه ولا حِراك، هل هو الهدوء الذي يسبق العاصفة؟ رُبما..

تَسَللت إلى غُرفتي الزُجاجية، فوجدت أمي تَجلس قُبالة المَطبخ، وتسألني في هدوء راهب بوذي: «كُنت فين يا واد لحد دلوقتي؟»، تلعثمت ولكني لم أستطع الكَذب، ثُم إن دليل الجريمة في يدي، كيس الكازوز الشَفاف، فاعترفتُ بذَنبي طالبًا العفو والسماح، وطبعًا لم تَكن المُشكلة في أُمي، ولكن كانت في سَبع البيت الذي خَرَجَ من صباحية ربنا ليبحث عَني، وكعادة

الأُمهات يُوفرن طاقتهن في الزعيق بكلمة واحدة فقط: «لما أبوك يجيلك»، وقبل أن يَجيلي أبويا ابتكرت حيلة قَد تكون نافعة ولو مُؤقتًا، دَخَلت غُرفتي وتَمَدَدت فوق السرير بكُل عَبَلي واتساخاتي وتلزيقاتي، ومَثَّلت النوم حتى أهرب مِن العقاب، لا سيما وأنا أعرف أن أبي رغم سطوته وسُلطته وقوته لا يُمكن أبدًا أن يُوقظني من النوم ليُعاقبني، وحينما يأتي الصباح يكون نسي إن شاء الله، ولكن حيلة أُمي العبقرية كانت أكثر نَجَاعة ولوذعية، فقد أمرتني بالدخُول تَحت السرير وتَمثيل النوم، حتى تقول لأبي حين يجيء: «يا شيخ الواد نايم تحت السرير ومش باين من تحت الملاية من الصبح واحنا ظالمينه ومفكرينه صايع في الشارع».

فدَخَلت تحت السرير ومَثَّلت النوم لمُدة دقيقتين، ولكن سُرعان ما رُحت في نومٍ عَميق بحق وحقيق، وكما توقعت مَرت الليلة بسلام، وذَهَبَ أبي في اليوم التالي إلى عمله فَجرًا، وذَهَبت أنا إلى مدرستي، ومَر اليوم طبيعيًّا إلى أن عُدت ظُهرًا، وجَلست إلى الطبلية، والتي كانت تُستخدم لأغراض الطَعام والمُذاكرة وعمايل كَحك العيد، وتخريط الملوخية ، وأشياء أُخرى.. واجتَهَدت في إظهار جدِّيتي في المُذاكرة أمام أُمي حتى تُبلغ الرسالة لأبي حينما يعود، وقبل موعد أبي الذي أعرفه جيدًا أقُوم بالتكثيف من إظهار جديتي في المُذاكرة، وحينما دَخَلَ البيت كُنت مُندمجًا كباحث يُراجع رسالة دكتوراه، مَر أبي بجواري دُون أن يُعَبرني بكلمة ولا حتى سلام، وما أن توضأ وصَلى حتى أمرت أُمي بإزاحة المُذاكرة اللي مقَطَّعة بعضها جانبًا حتى تضع طعام الغداء، فوضعتُ الكُتب والكراريس على حِجري، وأخذت أقرأ بصوتٍ عالٍ كمن يُسَمِّع درسًا، وأبي يأكُل في صَمت يقتُلني، فهَل يُخَزن ويُدَكِّن وسيقوم بعمل الواجب تجاهي بعد الغداء؟ أم إنه عَفَا وسامح وخَالَ عليه تمثيلي الرديء.

ما أن أتم الوالد طعامه ثُم أسند ظهره إلى الحائط مُسترخيًا في انتظار الشاي حَتَى شعرت بطمأنينة الناجي مِن الأهوال، وفي الحقيقة لو كُنت أعلم أن الأمر بهذه البساطة لما اجتهدت في التمثل، ولا أرهقت نَفسي في أداء الدور بهذا الشَكل.

أبعدتُ الكُتب الثقيلة «السقيلة» عَن حِجري، وأخرجت كتاب سِهَام السحري، وأسندتُ ظهري أنا الآخر للحائط المُقابل شغوفًا بالتأمُل في أجنحة الطيور وفراء الحيوانات وحراشف الأسماك، حَتى رُحت في سابع نومة، وأثناء إكمال الفُرجة بشَكل ضَبَبي في الحُلم، إذا بكَفٍّ ثَقيل على وَجهي ينفضني نَفضًا، وكان الكَف مصحوبًا بِسَيلٍ عَرَمرم مِن التَقريع والتَوبيخ، وكان السَيل مُغَلَّفًا بالكثير مِن الشَتائم المَشروعة، والتي يقولها أي أب مِصري لأبنائه، ويبدو أنني أخطأت التَقدير، وظَننت أن العاصفة قَد مَرَّت بسلام، ووجدت أبي الذي كانت قامته قد انتصبت بعد استرخاء قد فَرَدَ لائحة مصائبي، والتي تَضُمُّ كُل الأخطاء والخطايا مُنذ ولادتي وحتى رحلة التشرُّد أمس، فأنا حسب القائمة أصيع طوال العام ولا ألتَفت لمُذاكرتي، ووقت المُذاكرة أقضيه في النوم، ولا فائدة مني ولا رجاء، وغير فالح إلا في الصَرمحة واللَعب.
وقد علمني هذا الدَّرس أمرًا شديد الأهمية، وهو العَمَل على إتقان التمثيل حينما أُريد التَهَرُّب مِن مُصيبة فعلْتُها، ولا بأس مِن اللعب على الوتر الحساس جدًّا لدَى الأهل وهو ادعاء المَرض عِند التعرُّض لخطر العقاب، أو تسوية الصرمحة المنعكشة وترتيب أوقاتها؛ حتى لا تتقاطع مع مواعيد وجود الأب في المنزل.

ورغم هَول الكَف وسخُونته، إلا أنني ظللت أتصرمح وأتصرمح؛ لأن الصَرمحة في ذلك السن مَنهج حياة، والتشرد صفة أصيلة مِن صفات الطفولة لا بُد أن نَعَض عليها بالنواجذ.

أما الاختراع العظيم الذي أسر ألبابنا وألهب خيالنا كان لوح الكارتون العظيم الذي أحضرته الست «أم شربات»، وعليه صور مُلونة لكُل فناني مصر تقريبًا، ولكن بتقنيات شديدة السوء، وألوان مُتداخلة، وملامح مهزوزة، ولكن ذلك لم يكُن مُهمًّا حينها، وكان شراء اللوح الكارتوني العظيم يحتاج إلى تحويشة عُمر لا تقل عن مصروف نصف شهر من التدبير والتقتير والاستغناء عن الترف المُبالغ فيه؛ مثل ركوب المُرجيحة، أو شراء ساندوتشات الطعمية من مطعم «فَرج القرد»، وأيضًا الاقتصاد في شراء الحلوى والدندُورما، وبعد أن ننجحَ في اقتناص الصيد الثَمِين نقُوم بقصِّ الصور بمهَارة وحذر، ونجمعها ليُصبح لدينا ذخيرة وافرة من الصور نستطيع اللعب عليها، خاضعين لمبدأ المكسب والخسارة، وقد كانت الصور تُقسم إلى فئات، وتُمنح كُل فئة عددًا مُعينًا من الدرجات، فمثلًا نجُوم ذلك الزمان كـ«عادل إمام» و«نور الشريف» و«حسين فهمي» تُمنح صورهم ثلاثين درجة كاملة، أما صور الفنانات كـ«سُهير رمزي» و«ميرفت أمين» و«نجلاء فتحي» فتُمنح عشرين درجة فقط، وكذلك «المعلم رضا» و«الشاويش عطية»، أما الراقصات وفنانات الصفوف الثانية والثالثة فكانوا يُمنحون عشر درجات فقط.

حتى جاء ذلك اليوم المشهود الذي استقدمتْ فيه الست «أم شربات» سلعة سحرية لم أستطع مُقاومة إغرائها، فذات صباح وأنا ذاهب إلى المدرسة مارًّا عليها كالعادة إذا بي أجد حبل غسيل ممددًا على طول الحائط ومُثبتًا

بمسمارين من كُل طرف، ومُعلق عليه قصص زاهية الألوان هزيلة الأوراق، تحمل أغلفتها صورًا لبشرٍ وحيوانات وعناوين باللغة العربية التي أستطيع أن أقرأها وأفهمها، وليست ككتاب «سهام» الأخرس، ما زلت أذكر بعضها حتى الآن.. «حمدان والذئب» / «علاء الدين والمصباح» / «البطة الكسولة» / «الأرنب والسُلحفاة» / «الغزال المُطيع» / «حكاية الأسد والفأر الصغير»... عناوين تُخاطب خيال طفل يتُوق لمعرفة أسرار كُل حكاية من هذه الحكايات.. وقفت قليلًا سائلًا عم «أبو سعودي» الذي لم يكُن هُناك غيره في الدُّكان عن أسعار القصص، وكان عم «أبو سعُودي» رجلًا غريبًا أُصيب بِخَرَفْ المُعمرين، لم يكُن يُحبه أحد، وكانوا يتجنبون حتى إلقاء السلام عليه، كان ضعيف السمع، فيحتاج أن ترفع من صوتك قدر استطاعتك، وعندما يعلو صوتك أكثر من اللازم يتهمك بقلة الذوق.. «هل تظنني أطرش يا ابن الـ.....»، وتنال أنت والست الوالدة ما لذَّ وطاب من الألفاظ النابية، في البداية ترددتُ، ثُم تشجعتُ، ووقفتُ أمامه سائلًا عن السعر، فالمُغامرة تستحق تحمُّل المخاطر والصعُوبات، وما أن شعر عم «أبو سعُودي» بارتباكي حتى رفع عقيرته بالصياح: «ما تقول عاوز إيه يا واد يا ابن الـ....»، فرددتُ عليه الشتيمة بشتيمة أقذع كُنت قد سمعتها من أحد أصدقاء السوء دون أن أفهم معناها، كُل ما فهمته من خلال أداء هذا الصديق والموقف الذي خرجت فيه الشتيمة أنها كلمة قبيحة تُسقط الخصم أرضًا، ولكن عَم «أبو سعودي» لم يسقط أرضًا، ولكنه انحنى مُمسكًا بحجرٍ بحجم راحة يده التي قبل أن يرفعها عاليًا ليقذفني به أطلقت ساقيَّ للريح لتلحق بي قذيفة عم «أبو سعودي» فتمُر بجوار أذني كصاروخ أرض أرض، لتستقر في رأس عم «تادرُس» صاحب محل الدندُورما فيسقط الرجل من شدة الضربة، وتَحدُث جلبة

عظيمة في الشارع على إثرها.. ولا تسألني ماذا حدث بعد ذلك؛ لأنني ما أن ابتعدت عن موقع الجريمة حتى نسيت كُل شيء إلا تلك الكائنات الساحرة والمُسماة قصص.. وبدأت أسرح في خيالاتي وتصوراتي عما بداخلها من خلال العناوين التي التصقت برأسي وما تحمله الأغلفة من كائنات وأشكال (عتبات النص)؛ فهل قصة «حمدان والذئب» تحكي عن «حمدان» الذي أكله ذئب في الغابة، أم الذئب الصغير الذي وجده «حمدان» في الغابة ورباه حتى كبُر وصارا صَدِيقين.. أم إنه كبُرَ وأكل «حمدان» أم إنه... لم أدرِ وأنا هائم على وجهي في مروج القصص وخيالاتها التي تتراقص أمامي إلا وأنا «أَطبُشْ» في بالوعة مجارٍ مفتوحة ومُمتلئة عن بكرة أبيها وبكرة أمها وكُل عائلتها، وأهل الخير يُحاولون إخراجي دُون تأفف أو إبداء أي امتعاض أو قرف، كان أول من انتشلني رجُلٌ جَسِيمٌ لَحِيم يعمل في معمل طُرشي يقع أمام البالوعة، وما أن عفقني الرجُل من تحت إبطيَّ حتى طرحني أرضًا، وأحضر برميلًا ضخمًا به ماء يُستخدم على ما يبدو في التمليح والتخليل، ودلقه فوق رأسي بقوة وغشومية أصابتني بصدمة، وكرر ذلك عدة مرات حتى امتزجت رائحة الصرف برائحة الطُّرشي برائحة يود الملح، مع رائحة عفونة المخلل، بالإضافة إلى لهلبة الفلفل الحراق، خرجت من تحت أيدي أهل الخير ككتكوت مبلول خرج لتوِّه من مُحيط نفايات؛ هَرَعتُ إلى المدرسة رافضًا نصائح الناس بالعودة إلى المنزل، فلم تكُن ثقافة الغياب مطروحة في الأذهان حينها، ولم يكُن مُتخيلًا حتى مُجرد التخيل أن أجلس في البيت في الوقت الذي يجلس فيه زُملائي على تَختَاتِهم في الفصل، وقفتُ أمام باب المدرسة بعد أن تأخرتُ عن حضور الطابور بهذا المنظر المُفجع أمام عم «رجب» الفَرَاشْ الذي كان مُستيقظًا في واحدة مِن أندر لحظات الحياة، فقد كان نوامًا لا يفيق أبدًا

حتى إن مُدرِّس العلوم كان يقول إن ذبابة الـ«تسي تسي» قد لدغته بالتأكيد، وقف الرجُل مبهوتًا أمام المنظر العجيب، طفل يرتدي مريلة المدرسة ويحمل المِخلة على كتفه، غارق من أُم رأسه حتى أخمص قدميه، تتنازعه عدة روائح كُلها كريهة بلا استثناء، وينتفض كفأر خرج لتوِّه من بركة ماء بارد.

- إنت في فصل مين يا ابني؟

- أنا في فصل أبلة «فاطمة» يا عم «رجب».

هرول الرجُل البدين زَاكًّا على قدميه الفيليَّتين، ونادى على أبلة «فاطمة» التي جاءت تحمل طفلتها الرضيعة، أعطت الطفلة لعم «رجب» لتفرِّغ يديها للَّطْم، وسألتني في امتعاض عما حدث، فحكيتُ لها الحكاية كاملة من طأطأ لبرميل الطُرشي، فأشارت بيد وهي واضعة الأخرى على أنفها من هَول الرائحة آمرة إياي بالرجُوع إلى البيت فورًا والاختفاء من أمامها، وهُنا اطمأنَّ قلبي؛ فالأمر بالغياب جاء مِن فوق، فأبلة «فاطمة» بجلالة قدرها هي التي طلبت مني العودة إلى المنزل أثناء اليوم الدراسي، كان حرصي الأول أثناء الرجُوع أن أُحَوِّل طريقي إلى شارع آخر غير شارع البلاعة، ولكني لم أستطع تخليص عقلي من أسر تلك المخلوقات الورقية العجيبة، كُنت قد نسيت عم «أبو سعودي» وعم «تادرس» والواقعة برُمتها، وعُدت إلى بيتي مارًّا بدُكان «أم شربات» وعم «أبو سعودي» جالس أمامه في هدوء القديسين، كان قد نسي هُو الآخر ما حدث، صرت وجهًا لوجه مرة ثانية أمام هذه الكائنات المُهيجة للشَّغَف، والتي كانت تتمايل وتُرفرف مع حركة الرياح، كانت البريزة المصروف لا تَزَال معي كاملة، وَضَعت يدي في جيبي مُؤمِّنًا عليها، واضعًا إياها أمام أنفي، وطبعًا طالها ما طال من خيرات الله المهضُومة، ولكن عم

«أبو سعودي» كان قد فقد حاسة الشم والسمع وعين ونصف عين بعد أن وَقَعَ في برميل الجاز وهُو يبحث عن خمسة قروش سَقَطَت داخله.

كانت حيرتي عظيمة، فكُل الأغلفة ساحرة، ولديَّ شوق عظيم في معرفة ما يدور خلفها جميعًا من أحداث، وبعد حيرة وَقَعَ اختياري على قصة يحمل غلافها صُورة لثلاثة أرانب وأرنبة كبيرة تَنظُر في شَرَاسة لثعلب ترتعد فرائصه هُو يتراجع للخلف مُبتعدًا عن الأرانب الصِغَار، وكان اسمها «الثَعلب والأرانب الثَلاث»، ولكن كانت الفاجعة عندما أخبرني عم «أبو سعودي» أن سعر القصة الواحدة رُبع جنيه كامل، هالتني الصَّدمة التي تفوق في قوتها صَدمة برميل الطُّرشي المُندَلق فوق رأسي.. انسحبتُ من المَشهَد مُنَكَّس الرَأس مَفتُور القلب مُدَلدَل الأُذُنَين، أَجُرُّ أذيال الخَيبة المُشَبَّعَة بمزيج الروُائح العَجيبة التي أحملها فوق جسدي.. أصبح الشَّغَف أَكبر والتَحَدِي أعظَم، فكُلَّمَا زَادت الصعُوبة زَادَت الرَغبة. فاتحت أُمي في الأمر مُبَاشرة.. حَدَثَ ذَلك بعد غَسلي ونَقعِي في المَاء حَتَى باشت أطرافي، ونشر كُتبي وكَراساتي على حبل الغَسيل كَقصص «أُم شَربات».. وجدتُ في عيني أُمي حماسة لم أتوقعها، فأُمي لم تنل قسطًا مِن التعليم يجعلها تعي قيمة القراءة وتُقَدر حقها، فضلًا عن أن الربع جنيه في ذلك الوقت لم يكُن مبلغًا يسيرًا.. وعدتني أمي بحل المُشكلة، وبالفعل كانت في الصباح تدسُّ يدها في صدرها وتُخرج لي رُبع جنيه جديدًا تمامًا، بالإضافة إلى العشرة قروش المصروف، فحصلت أُمي دُون أن تدري على لقب المُمَول الأول لمكتبتي التي حرصت على تنميتها بكُل الوسائل فيما بعد.

اكتشفتُ هذا العالم السحري للحواديت المُلونة، والفضل يرجع لدعم أُمي وحبل «أم شربات» الـBookstore الأولى والوحيدة التي عرفتها طوال مرحلة الابتدائي، وأذكر أن ما جمعته من قصص في تلك المرحلة يفوق بكثير ما جمعته من كُل صنوف الألعاب الأثيرة بما فيها البلي وصور الفنانين.. وقد شكَّلت هذه القصص نظرتي الوليدة للعالم واعتُبرت المَعِين الأول لخيالي، وأزعُم أنها المرحلة الأهم معرفيًّا على الإطلاق، فهي بمثابة الباب الذي دخلت من خلاله إلى هذا العالم الساحر.. عالم القراءة.

نوستالجيا الراديو والتلفزيون

«يا ولاد يا ولاد.. تراتاتا تعالوا معانا تراتاتا.. علشان نسمع أبلة فضيلة.. راح تحكيلنا حكاية جميلة.. وتسلينا وتهنينا وتملينا كمان أساميننا أأأأأأأأأأأبلة أبلة فضيلة.. واك واك واك واك واك واك واااك».

كانت «أبلة فضيلة» تُصَاحب عملية الإيقاظ العَسِر للذهاب إلى المَدرسة، فقد كُنت في الفترة الثانية التي تذهب إلى المدرسة ظُهرًا، والمُدهش أن الاستماع إلى حدوتة أبلة «فضيلة» كان بمثابة فِعل الحَتم الذي لا بُد مِنه، وليس الاستماع وحسب، إنما أيضًا الإنصات والتركيز والتماهي التام مع كُل تفصيلة في الحدوتة، فقد ترك الصوت حُرية التَخَيُّل كما يحلو لنا، ولم يُقيدنا بأشكال مُعينة، وصوت الست «فضيلة توفيق» رغم ما يحمله مِن رِقة وعذوبة تروق للأطفال، إلا أنه أيضًا كان صوتًا تربويًّا، لا أعرف هل يُمكن لصوتٍ ما أن يكون تربويًّا؟ ولكن كُنت أشعر أن ما تقوله واجب السماع، وأن ما تطلبه واجب التنفيذ كطلبات أُمي تمامًا.

ولأنني طوال عُمري لا أحب حساب الزَّمَن، ولا أحفظ مواعيد أي شيء، فقد كان حفظ مواعيد البرامج المشوقة التي نَلتَف جميعًا حولها تحفظها إخوتي البنات، والبنات دائمًا هكذا، يُمثلْن الجانب المُنظم في الحياة، ومِن البرامج التي كُنا نُتابعها بشَغف وننتظرها بشَوق، برنامج «مسرح المُنوَّعات» لـ«علي فايق زغلول»، والذي كان يبدأ بمُوسيقى زاعقة، ثم صوت رجل وامرأة بالتبادل يقولان: «علي فايق زغلول يُقدم لكم الأغنية و المُنولوج، والتمثيلية

الفكاهية، والهوايات الفنية والأدبية، والمُباريات والمُسابقات، في مسرح المُنوعات.. برنامج جماهيري يكتبه لكم رأفت الخياط».

كُل هذه المُنوعات في برنامج واحد.. تَخَيل؟..

وقد كان للرجُل صوت ساحر أخاذ يستطيع أن يجتذبك داخل برنامجه وكأنك واحد من الجمهور الجالس أمامه، كان يبدأ بمسرحية قصيرة مُقسَمة إلى قِسمين، الأول مِنها تحملُ أحداثه لُغزًا ما دون أن يقوم المُمثلون بحله، والثاني فيه حل هذا اللُغز، والإجابة عن السؤال، وكُنت وأخوتي نتسارع للإجابة، والتي غالبًا ما تكون خاطئة، ثُم يكون الجزء الثاني من المسرحية وهو الجزء الذي به الحل.

ثُم يقوم الأستاذ «زغلول» بعرض بعض المواهب الشابة المُتنوعة بين الغناء وإلقاء الشعر والعزف، على الجمهور، وصاحب أكبر رصيد مِن التصفيق يكون هو الفائز، وطبعًا لا أنسى أننا كُنا نُقَيم تلك المواهب مع جمهور البرنامج داخل الراديو، بل ونمنحها تصفيقًا أيضًا، ونفرح إذا فازت موهبة نرىَ أنها تَستَحق.

ثُم فقرة الأشياء غير المنطقية والتي يُقدمها بعض الفنانين المعروفين، ومن يكتشف هذه الأشياء غير المنطقية في كلام المُمَثل له جائزة مالية، أعتقد كانت عشرة جُنيهات.

ثُم فقرة المسابقة بين فريقين أحدهُما للطلبة والثاني للطالبات في الأسئلة الثقافية المُختلفة، والفريق الفائز يُمنح أيضًا جائزة مالية.

ثُم يختم فقراته بمسرحية فُكاهية لطيفة، تُزيل شَدة الأعصاب الناتجة عن الأسئلة والمُسابقات.

وفي الحقيقة لا أود أن أُقارن بين هذا البرنامج المُذهل المسموع، وبين برامج التوك شو المرئية حاليًا، فأنا لست مِن أنصار نظرية «الزَمن الجميل» التي يروق للبعض تصديرها كُلما تذكروا طفولتهم أو شبابهم، فلكُل عَصرٍ جماله وقُبحه، ولكن فقط أود المُقارنة بين الإمكانيات الإنتاجية الآن والإمكانيات الإنتاجية حينها، فأعتقد أن الحلقة من برنامج «مسرح المُنوعات» لم تكن تتكلف أكثر من خُمسمائة جنيه على أكثر تقدير، ولكن المادة المُقدمة تتفوق بمراحل على سماجة وسخافة ورذالة بعض البرامج الآن، والتي قد يتجاوز إنتاجها الملايين، فالسيد «فايق زغلول» يقدم المتعة والتسلية والمسابقات وتشغيل الدماغ والمُشاركة الفعالة، يُقدم المواهب الحقيقية التي تَعرض مواهبها دون وساطة أو محسوبية، وحينما ينتهي البرنامج يتركنا الرجُل في حالة من البهجة والحماسة للبحث والتنقيب بداخلنا عما يُميزنا أو عن مواهبنا، والتي قد نكتشفها فعلًا فتتغير حياتنا.

ولا أنسى أبدًا برنامج الرُعب المُخيف «أغرب القضايا»، والذي كان عبارة عن تمثيلية يختار صُناعها بعض القضايا الجنائية الحقيقية، ويُعيدون تجسيد أحداثها، وحتى يتم الـ«ساسبنس» ويكتمل التشويق، كانوا يختارون القضايا الغريبة، والتي لا يصمد جسدك أمامها أكثر من ثلاث ثوانٍ، حتى يَتَلَبَّش ويَتَخَشَّب ويَنَبَعِج على نَفسه، ثُم أنت لا تحتاج أصلًا للاستماع إلى التمثيلية حتى ترتعب، فيكفيك سماع تتر المُقدمة، وموسيقاه الجنائزية التي ما زالت قادرة على إرعابي حَتَّى الآن، والتي يليها أو يُصاحبها صوت وكأنه أتى مِن

القبور يقول بأداء يملئه الفَحيح: «أغرب القضاااااااايا.. برنامج مِن إخراج عبده دييييييييييياب»، ثُم سرعان ما يبدأ المُسلسل بشخص يُحدثنا عن القضية المطروحة وتاريخها ومُلابساتها، وقبل أن تأخذ نَفَسَك يبدأ المُمثلون في التمثيل، فتجد أحدهم يقول مثلًا: «أيوه يا فندم.. لقينا راس آدمية عايمة على وش المية» ويا نهار أسود على الرُّعب.. وكانت أُختي الكبيرة تأمُرنا بأن نرفع أقدامنا التي نُدلدلها من فوق الكنبة، حتى لا يقرمنا العَفريت، فنسمع الكلام فورًا، وكان حضور العفريت مع البرنامج أمرًا حتميًا، فارتباطهما كان ارتباطًا شَرطيًّا، وأظُن أن هذا البرنامج لم يكُن مُناسبًا للأطفال، ولكن لأن النَفْس مُنذ الصِغَر أمَّارة بالسُّوء، فإننا كُنا نستمع إليه بإنصات المُتَلَصص، رغم ما نتعرض له مِن رُعب أثناء النهار وكوابيس أثناء الليل.

وما زلت أذكر ما كان يُقدمه «البرنامج الغنائي» مِن أعمال تمثيلية غنائية عالقة بذِهني حتى الآن، كالتمثيلية الغنائية «قِسَمْ» الشهيرة بـ«إنت فين يا مرزوق»، والتي تَحكي حكاية الرجُل الطيب «مرزوق» وزوجته «أم شوق»، والذي ضاقت به المعايش، فقرر السفر إلى أي مكان، فبلاد الله واسعة والرزق يحب الخِفِية، فركب مركبًا غرقت به قُرب سواحل جزيرة، ووجد نفسه أمام ملك مهيب وحُراس، فظن أنه هالك لا محالة، ولكن الملك طلب منه أن يفتدي نفسه بأي هدية، ولم يكن مع «مرزوق» حينها إلا السُّلطانية التي كان يشتري فيها الزبادي لابنته «شوق»، فأعطاها للملك على استحياء، فوضعها الملك فوق رأسه، واعتبرها «تاج الجزيرة»، وكافأ «مرزوق» بكل أنواع الخيرات من ياقوت وزمرد ومرجان وأحمدك يا رب، فعاد «مرزوق» غنيًّا ومعه أموال كثيرة، وحينما سأله أخوه الطماع الشرير عن سبب ثروته، صارحه بالسبب الحقيقي، ووصف له المكان الذي غرقت فيه السفينة، فقرر أخوه أن يقوم

بنفس الرحلة آخذًا معه الكثير من الهدايا التي كلفته كُل ثروته، وهو يقول لنفسه: «إذا كان الملك أعطى أخي كل هذه المجوهرات من أجل سُلطانية زبادي، فماذا سيُعطيني وأنا ذاهب إليه بخيرات الدُنيا تلك»، وحينما ذهب للملك، أُعجب به جدًّا وأراد أن يُكافئه على هداياه الثمينة، فلم يجد أفضل من منحه تاج الجزيرة (السُّلطاااااانية).

استمعتُ للمرة الأولى لهذا البرنامج حينما كُنت طفلًا في السابعة، وأذكر أن حلم الرحلة داخل السفينة الغارقة، ولقاء ذلك الملك الأحمق ظل يُراودني لسنين طويلة، بل كُنت كلما ذَهبت لشراء الفول أو البليلة من عربة عم «سعد» الفوال تمنيت أن أرى هذا الملك، فأُعطيه السُّلطانية، وأحصل من على الكنز الثمين، وعرفت فيما بعد أن هُناك الكثير مِن القصص الأجنبية التي تحدثت في مثل هذا الموضوع، فاجتذبتني الفكرة بتنوعاتها المُمتعة، ولكن بقي «مرزوق» أبو «شُوق» صاحب التأثير الأكبر على خيالي رُبما حتى وقتنا هذا.

وكانت علاقتنا بالتلفزيون في ذلك الوقت علاقة «شَوَّق ولا تدَوَّق»، فكُنا نُشاهده عِند جارنا الطيب عم «عبد الله»، وهو أول شَخص في النِطاق كله يشتري تلفزيونًا، وكان الرجُل كريمًا لدرجة تجعله يستضيف أطفال الجيران في أي وقت لمُشاهدة هذا الجهاز العجيب ذي الأربع عشرة بوصة، بل كان يجلس معنا ليُشاهد ما نُشاهده وكأنه في مِثل عُمرنا، وأذكر ذات مرة كُنا نتفرج على برنامج يعرض حيوانات السيرك وهي تُؤدي مشاهد مُثيرة، وكان عم «عبد الله» مُنسجمًا لدرجة أنه كان يُحدث رجال السيرك طالبًا مِنهُم أن يأخذوا بالهمُ؛ حتى لا تفترسهم الحيوانات المُفترسة، ثُم وفي لحظة عَدم تَصديق لما يحدث، يقوم الرجُل من بيننا وهو يقول بصوت زاعق: «عليَّ

النِعمة مِن نعمة ربي النمور والأسود دي رجالة وملبسينها كده.. ما هو مِش معقول يا جدعان»، وحينما يجد نظرة مُتنحة في أعيننا يؤكد على كلامه بأنه شاهد السيرك في بلدهم، وكانت الرجال فيه يرتدون جلود الحيوانات، فكُنا نُصدق على كلامه، واثقين بأن الكبير بالتأكيد يعرف الصواب، وكُنت كُلما شاهدت حيوانًا في التلفزيون أظُنه رجلًا، رغم أن جسد الحيوان واضح وضوحًا لا لبس فيه، ولكن ما دام عم «عبد الله» قال فهو بالتأكيد صادق.

وذات مرة تشاجر عم «عبد الله» مع زوجته، فقرر أن يغلق باب المُتعة والتسلية في وجُوهنا، خصوصًا بعد تدخل أبي وأهل المنطقة وانتصروا لزوجته المسكينة، وحينها قرر أبي سِرًّا دُون إعلامنا شِراء تلفزيون بالتقسيط عن طريق عمله، وذات عَصر وحينما كُنت أتصرمح في الشارع كالعادة، رأيت أبي آتيًا من بعيد وهو يحمل كرتونة ضخمة فوق كتفه، ظننتها في البداية كرتونة تموين، فقد كان أحيانًا يمُر على الجمعية، ويُزاحم حتى يشتري لنا بعض السِّلع، وكأي عيل مُحترم جريت عليه لأحمل عنه حمولته، ولكنه وللمرة الأولى يرفض بشدة، فشَعرت حينها أن ما في الكرتونة شيئًا نفيسًا، وحينما جَلَس وأخذ نَفَسه، جمعنا حوله، وفتح الكرتونة لتكون المُفاجأة.. تلفزيون تليمصر ١٤ بوصة، أبيض اللون، وأخرجناه بحرصٍ وحذرٍ شديدين، ورَفَعت أُمي الراديو مِن مكانه العتيد الذي يشغله مُنذ أن وَعيت، ووضع أبي مكانه الوارد الجديد الذي سَحَب البُساط من تحت أقدامه، واحتل أرضه بمُعاونتنا، ولكن بقيت مُشكلة وحيدة، وهي أداة التشغيل، فقد كُنا نسكُن في منطقة بلا كهرباء، وكانت الوسيلة الوحيدة لتشغيل ذلك الجهاز هي البطارية، والبطارية هُنا لا تعني تلك التي كانت تُوضع للراديو، ولكن المقصود بها بطارية السيارة، فقد كان علينا شراء بطارية مُستعملة بثلاثة جُنيهات، وكابل كهرباء سميك،

ومُوصَّل به مشبكان معدنيان يتم توصيلهما بالبطارية، وكان علينا الاقتصاد في المُشاهدة، فنحن لسنا أثرياء كعم «عبد الله» الذي كان يملأ بطارية تلفزيونه بماء النار مرة كُل يومين، أما نحن فكانت البطارية تُقاوم معنا أسبوعًا على أقل احتمال، وكُنا نعرف أن البطارية قد بدأت تضعف حينما تتقلص الصورة حتى تَصل إلى نصف سم في نصف سم، وكان الشعور بالأسى حينما تتقلص الشاشة يفوق الشعور بالمتعة أثناء انفتاحها بأضعاف المرات، فكما منحنا التلفزيون المُتعة، منحنا أيضًا شعورًا جديدًا بالخذلان وسدة النفس، رغم أن ما كان عِندنا كفاية، لم يكن موجودًا قبل شراء التلفزيون، تمامًا كما نحمل اليوم همَّ بطارية الموبايل التي قاربت على الانتهاء، ونحن في مكان ليس به شاحن، أو كمية البؤس التي تزور نفوسنا ونحن نبحث عن ريموت التكييف دون أن نَعثُر عليه، أو شعورنا باليأس ونحن نُحاول تذكُّر كلمة السر التي نسيناها لأحد حساباتنا الشخصية على وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة.

للأسف الشديد هَجرت سماع الراديو منذ زمنٍ بعيد، ولكن أحن إليه حينما أسمعه صدفة تتزامن مع تَذَكُّر القائمين على أمره بعضًا مِن ماضيه، أما التلفزيون فلم أعُد أُشاهده الآن إلا أثناء وجبات الطعام المنزلية، وغالبًا أُشاهد النَشرات والبرامج الإخبارية، حيث إنني كائن لا يتحمل الدراما المطاطة التي ابتُلينا بيها، ولا يتحمل كثرة الإعلانات التي تُشعرك بأنك تُقيم في «كارفور»، ومُحاط مِن حولك بكُل السِّلع الاستهلاكية في الحياة، ولست نادمًا على ذلك في الحقيقة، ولكن نَدَمي الصادق على عدم تجاوبي مع السينما رغم أنها جُزء أصيل ولا غِنى عنه من الثقافة، وأنا للأسف أعترف بضحالة ثقافتي السينمائية، لا سيما في مُواجهة «عمرو» أخي الذي يعشق

السينما، ويحرص دائمًا على ارتيادها، حتى إن المرات القليلة جدًّا التي دخلت فيها سينما كانت بصُحبته وعلى حسابه، وبعد محاولات عَسِرة لإقناعي بالموافقة، حتى إنه كان يقوم بتوريطي فيحجز تذكرتين ثم يُخبرني، فأذهب مُضطرًا لإرضائه.

وما زلت أذكر محاولته الأولى لإقناعي بدخول السينما، وكُنا حينها في سِن المُراهقة، فحجز تذكرتين في سينما الزيتون، وما أدراك ما سينما الزيتون في ذلك الوَقت، لقد كانت مكانًا قابضًا مُخيفًا ليس به كراسي، وإنما مصاطب خرسانية خلف بعضها البعض، وربُما كان فوق هذه المصاطب كراسي، ولكن تم خلعها أثناء المُشاجرات الكثيرة التي تَحدُث بداخلها حسب ما سمعت، فقد لاحظتُ وجود خروم واسعة بطول المصطبة، وكان أول ما يستقبلك هو رائحة النشادر القاتلة، فتشعُر بأنك داخل إلى مراحيض عامة من ذلك النوع مُهمل التنظيف، وما زاد الطين بلة، أنك كُنت تشعُر في الظلام الدامس بأن قَدَمَيك تُلَغوصَان في المياه، فيتأكد شكك، وتُوقن أن ظنك في محلِّه.

وكانت التذكرة بخمس وثلاثين قرشًا، وأعتقد أن الجالسين بالخلف كانوا يدفعون رُبع جنيه، وأن أصحاب الأغراض الخبيثة كان عليهم أن يدفعوا نصف جُنيه كاملًا، وكانت السينما تعرض ثلاثة أفلام في الحفلة الواحدة.

كُنت أسمع شتائم لم تَمُرَّ على أذني مِن قبل، فبجوارك من يتشاجرون، ومن يسبُّون، ومن يُقزقزون اللب أو يأكلون السندوتشات، وسمعت أحدهم يُحَدِّث الآخر، بأنه ما من مرة دخل هَذه السينما إلا وكان البُوكس واقفًا بالخارج، ليجمع الخارجين على القانون، من المُتشاجرين وأصحاب المزاج على كُل الألوان، فشعرت حينها بأننا مُهددون، ولم أتحمل الجلوس حتى انتهاء الفيلم

الأول من العرض، فخرجتُ أتنفس الهواء بالخارج، واتخذت قرارًا حينها أن لا سينما بعد اليوم.

لم يبقَ مِن الراديو إلا الذكرى وبعض الصُّدف الخافتة التي تُصادفني بالاستماع إليه، كما لم يَعد التلفزيون هو ذلك الساحر الكبير الذي نَلتفُّ حوله لمُشاهدة فيلم أو تمثيلية أو سَهرة، أما السينما والمسرح فقد صارا حُلمًا بعيد المنال رُبما لضيق الوقت، ورُبما لأسباب لا أستطيع تحديدها.

لماذا تغير طَعم الأشياء، هل هي النوستالجيا وجنة الماضي الذي يمثلنا من خلال ذكرياتنا؟ أم هو الطفل الذي كُنت إياه، والذي لا يَحمل في عقله وقلبه إلا المحبة والأحلام؟ أم بالفعل كان الزَمن جميلًا ومُختلفًا كما يقول البعض؟

متلألئ

كان لنا جار في عُمر أبي تقريبًا، لم يكن يعرف القراءة والكتابة، وكان يزور أبي يوميًّا ليتعلم مِنه مبادئهُما، وكُنت حينها في الصف الثالث الابتدائي، الرجُل كان مُحبًّا للمعرفة، ويُريد أن يتعلم مِن المصدر ذاته، أي الكُتب والجرائد، بدلًا مِن أن يعتمد على قراءة أولاده؛ لأنهم كما كان يقول «ولاد كلب» يَمَلُّون مِن القراءة، في حين أنه يحتاج إلى المزيد من معرفة الأخبار وبشكل دائم.

كان رجُلًا فُكاهيًّا يُحب الضحك والفرفشة، وأذكر ذات يوم أنه جاء بصاجات العوالم ولا نَعرف مِن أين؟ فقد كان يعمل في شركة أدوية ولا علاقة له بهذا الكار، المُهم أنه دخل على أبي بالصاجات، مُؤكدًا أنه قد حفظ الدروس كلها، وأمسك بالكتاب وبدأ يُغني.. ألف أرنب أرنب أرنب.. باء بطة بطة بطة..... وهو ينقر بالصاجات ويَهز نصفه الأعلى، ثُم يقول لأبي: «شُوفت يا عم علي الحكاية سهلة إزاي؟»، فنَضحك جميعًا مِن قلوبنا.

كان أبي يُعلِّمه مِن كتاب القراءة الخاص بالكتاتيب، وبعد انتهاء هذه المرحلة احتار في اختيار منهج مُتَطَور، فاقترحتُ عليه كتاب اللغة العربية الخاص بي، ووافق أبي بالفعل على هذا الاقتراح، وبدأ الرجُل رحلة الكفاح مع منهج الصف الثالث الابتدائي، ولكن بعد عدة أيام لَعَنَ الرجُل الكتاب والفكرة، ورُبما مُقترحها أيضًا، لأن في الكتاب كلمات كثيرة صعبة ومُربكة، مثل كلمة «دولاب» وكلمة «منضدة» وغيرهما، بدأ الرجُل يُصاب بالإحباط؛ لأنه أصبح يأخذ في الإملاء ٢ من ١٠ أو ٤ من ١٠ على أقصى تقدير، بعد أن كان نجم

النجوم، ويأخذ العَشَرة كاملة دُون نُقصَان، بل ويُنفَح نجمة وكلمة ممتاز وتوقيع أبي المُبهر، فكان يتباهى أمام أبنائه؛ لأنه يأخذ درجات أعلى مِنهم، حيث إنه شاطر وهُم خائبون، فكيف سيتباهى الآن وقَد أصبح متعوسًا وخائب الرجاء، وكان في كُل مرة يتسلَّم فيها درجاته ينظُر إليَّ بقرفٍ فُكاهي ويقول: «روح يا شيخ إلهي يعمر بيتك» على طريقة «زكي رُستم» في فيلم «رصيف نمرة خمسة»، وكُنت أضحك كالأبله دُون الشعور بأن الرجُل بدأ بالفعل يتعرض للإحباط، ولَكن أبي فَطِنَ للأمر، وبدأ يُنَفِّذ خطة نبيلة تُعيد للرجُل بهجته وانتصاراته الصغيرة، فكان يمسك بالكتاب بين يديه، ولكن يُملي على الرجُل كلمات أخرى مِن تلك التي يعلم يقينًا أنه يعرفها حيث كتبها عِدة مرات، فيشَعر الرجُل أنه قد بدأ يعود إلى مُستواه وتَفوقه، وكان حينها يمسك بالكتاب، ويخبطني به فوق رأسي مازحًا وهو يقول: «أُمَال يا ابني.. اتعلموها بقى»، وطبعًا كُنت أعلم أن هذا الكلام ليس موجودًا في الكتاب، وأن ما قام به أبي إنما هُو مُجرد حيلة ليحفظ ماء وجه الرجُل، ويُعينه على تكملة المسير، ولكي يُحفزه أبي بشكل أكبر اقتَرَحَ عليه القيام بمُنافسة شريفة بيني وبينه، فيقوم بإملاء كلينا بعض الكلمات، ويمنحنا الدرجات التي نستحقها، فينظر الرجُل إليَّ نظرة القائد وهو يقول: «جاهز للعملية؟»، ثُم يثني يده مُبرزًا عضلاته في حركة بطل كمال أجسام، ويقول كفاتح عسكري: «أنا جاهز.. توكلنا على اللّٰه يا رجالة.. ربنا معانا»، ثُم يضحك ضحكة مُصطنعة كي يُضحكنا، وتبدأ المعركة، وكُل مِنا يمسك قلمه الرصاص وكراسته، فيبدأ الرجُل قبل أن يُملي أبي علينا حرفًا بكتابة: «يا بركة بسم اللّٰه» وهي أول جُملة طلب مِن أبي أن يتعلمها، وصار يكتبها قبل أن يبدأ أي درس، كما قام بكتابتها بفُرشة دهان كبيرة على حائط بيته المُلاصق لبيتنا.

بدأ أبي الإملاء ببعض الكلمات السهلة البسيطة، والتي كُنت أعرفها جيدًا، وكذلك جاري المُجتَهِد، ثُم طوَّر أبي مِن هجومه المُسلح بالكلمات الأكثر صعوبة، فبدأ الرجُل ينظر للسقف، ثم ينظر لي، مُحاولًا أن يسترق النظر إلى ورقتي، فأقوم بالتغطية عليها كما نفعل في اختبارات الإملاء بالمدرسة، فينفخ الرجُل مُتذمِّرًا، وكلما ازداد غيظًا كُلما ازددت أنا سعادةً وانتشاءً بالتفوق والانتصار، فأنا أتفوق على الرجُل الذي كان يُعنفني بشدة حينما تدخل الكُرة في بلكونته، بل كان يمتنع عَن إعطائي إياها في بعض الأحيان.

انتهي أبي من الإملاء، فأعطيته الورقة بسُرعة الواثق المُطمئن، وتلكأ الرجُل المسكين الذي وُضِعَ في مأزِقٍ لا يُحسد عليه، ثُم انفَجَرَ زاعقًا وهو يُسلم ورقته وقال: «ما هو ما يصحش يا عم «علي» تساويني بالعيل اللي بقاله ٣ سنين بيتعلم، وأنا لسه يادوب باتهجى الحروف من شهرين»، فَطِنَ أبي أخيرًا أنه وَضَع الرجُل في مأزق ما كان له أن يضعه فيه، فأمسك بالورقتين، ونظر فيهما دون أن يُصححهما، وبعد أن نَقَّلَ عينيه بينهما بالتساوي، قال النتيجة النهائية.. أنا ١٠ من ١٠، والجار المُجتهد ١٠ من ١٠.. فتهللت أسارير الرجُل رغم أنه على يقين بالعكّ الذي أحدثه بالورقة، أما أنا فقد تَعَجبَت مِن فِعل أبي المُخالف لكُل قواعد الإنصاف والحُكم بين الناس بالعدل، فأنا أعرف أن الرجُل قد عَكَّ الدُنيا، وأنه لا يستحق نِصف هذه الدرجة، ولكن احترامًا لأبي لم أتفوَّه بكلمة، وجلست صامتًا حتى نهاية الدَرس، ولَكِن وبفذلكة الأطفال أردت أن أصنع أي انتصار على الرجُل قبل أن يمشي، فلا يُمكن أن نتساوى هكذا ببساطة في الدرجات، وإن كان أبي قد أخطأ في التقدير، فيُمكنني تدارك الموقف لصالح أَنَويتي المغدورة، فبَاغتُّ الرجُل بقولي: «تعرف تكتب مرحبًا»، فنظر لي الرجُل نَظرة تحدٍّ وقال: «هي دي محتاجة فكاكة..

أشتهجاهالك الأول وبعدين أكتبها.. ميم – ره – حه – به – نون.. أي خدمة يا عم»، فأصدرت حينها ضحكة شريرة لا تُناسب طِفلًا، وقُلت: «غلط غلط.. تنوين مِش نون»، ولكني لاحظت أن أبي لم يضحك على الموقف، بل بدا وجهه مُمتعضًا، وكأنه استمع لتوّه إلى نُكتة سخيفة، وأخذ يُدافع عن الرجُل، مُؤكدًا أنه لم يَدرس التنوين بَعدُ، ثُم باغتني بقوله: «طب تعرف يا فالح تكتب مُتلألئ؟» وهُنا أُسقط في يدي، فالكلمة صعبة النطق فما بالك بالكتابة، وتمتلئ بالهمزات التي كانت عُقدة أي تلميذ في هذه المرحلة التعليمية، فابتلعت الخَضة وجاهدت لكتابة الكلمة العجيبة، وبعد عِدة مُحاولات خَرَجَتْ الكلمة هكذا «موتلئلئ»، فما كان مِن أبي إلا أن ضَحِك مِلء فيه، ولكن كانت ضحكة بادية الاصطناع، وكان ذلك إيذانًا بإطلاق الرجُل ضحكته هُو الآخر، وحينما احمرَّ وجهي حرجًا تَرَكت الكراسة والقلم، وقُمت مِن المجلس، ودخلت على أُمي باكيًا، وأنا أشكو لها غَدر الزمان وخيانة أقرب الناس، فهدأت مِن رَوعي دون أن تعرف الموضوع، فنمتُ في حُضنها حتى الصباح، وفي الصباح كُنت قد نسيت الأمر برُمَّته، وذهبت إلى المدرسة لأحيا يومًا دراسيًّا عاديًّا، وحينما عُدت وعاد أبي مِن عمله، وقبل أن يُغَير ملابسه، ناداني وأجلسني بجواره، ووضع يده فوق كتفي في حنُوٍّ، شارحًا أسباب ما حدث بالأمس، فهُو لم يُخبر الرجُل بما يستحق مِن درجات؛ لأنه لا يُريد له أن ييأس وهُو في بداية الطريق، ثُم إنه ما كان مِن المُفترض أن يُقيم مُنافسة بينه وبين ولد أصغر مِن أصغر أبنائه؛ حتى لا يُعرضه للحرج، ثُم إنه تَعَمَد أن يطلب مِني كتابة كلمة هُو يعلم جيدًا أنني لن أستطيع أن أكتبها حتى يُثبت لي وللرجُل أنني أيضًا لا أستطيع كتابة بعض الكلمات، ولا أتميز عليه في شيء؛ لأن الشعور المُفرط بالتميز ينتقص مِن شأني لا يزيد منه.

ورغم كُل هذه الحِكَم النبيلة الناضجة إلا أنني لم أشعر بتغير موقفي مِن أبي، فأنا لم أكن أفهم إلا ضرورة إثبات تميزي، وضرورة أن يُساعدني على ذلك في مواجهة المُنافسين، رُبما فهمت كُل هذه المعاني بعدما كبرت، بينما حينها ظللت مُقاطعًا جلسات التَعَلُّم تِلك حتى عَزَّلنا مِن البيت.

تركت البيت وتنقلت في السَّكَن أكثر مِن مرة، ولكني لم أنسَ جارنا المُجتَهد، وأذكر أن أخبارًا قد جاءت بعد عِدة سنوات أن الرجُل قَد أكمل مسيرته العلمية، وأتم شهادة الابتدائية، بل والتحق أيضًا بالمدرسة الإعدادية.

أشُك أنه ما زال على قيد الحياة حتى الآن، ولكن ما أنا على يقين منه أنه أحد العُظماء القلائل الذين قابلتهُم في حياتي.

كُتاب الشيخ «عبد المُرضي»

عادة كان العيال يلتحقون بالكُتَاب قبل مرحلة التعليم الأساسي ليتعلموا القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، ولكن أبي ألحقني بكُتاب صديقه الشيخ «عبد المُرضي» وأنا على أعتاب الصف الثالث الابتدائي بغرض واحد ووحيد وهو حفظ القرآن، وكان الشيخ «عبد المُرضي» على عكس الصورة النمطية لمشايخ الكتاتيب في ذلك الوقت رجُلًا وديعًا وبالغ الطيبة، ومُجرد النظر في وجهه يَمنحك شعورًا بالطمأنينة والأمان.. رجُل طويل له كتفان مهُولتان ولحية كَثة بيضاء يتخللها بعض السواد، كُلما اقتربت منه شممت ريحًا طيبًا.. أذكُر أن خيال الطفولة ساقني لتصور عجيب، وهو أن الشيخ «عبد المُرضي» هو الخضر عليه السلام، والذي كُنت قد عرفت حكايته من أبي ومن الشيخ نفسه الذي كان يحكي لنا الحكايات الممتعة في أوقات الفراغ، فعرفت من خلاله ما حدث للنبي «يوسف» مع امرأة العزيز، وعرفت أيضًا قصة أصحاب الكهف، وأيضًا أصحاب السبت الذين أصبحوا قِرَدة خاسئين، وسحرة موسى الأشرار، وبقرة بني إسرائيل، وحكاية مريم البتول والسيد المسيح، وطبعًا القصة التي كانت تُحكى كثيرًا دون كَلل أو ملل، قصة النبي مُحمد وكُفار قريش، لم يكُن الرجُل يحكي لنا بأداء جامد خالٍ من الروح، بل كان مُمثلًا عظيمًا يُجيد الحكي تشخيصًا وكأنه هو نفسه من يحكي عنهم، ورُبما لهذا السبب، ولأنه كان يندمج مع قصة «الخضر» بطريقة لا يستطيع إخراجه منها أي أحد، خِلته «الخضر»، ومن العجيب أن صورة وجه الرجل ما زالت عالقة في ذهني حتى اليوم باعتباره هو، فيبدو أن ذكريات الطفولة عَصِية على الانمحاء أو التغيير.. أذكر ذات مرة أنه أزاح المقاعد بمُساعدتنا، وقرر أن نُمثل

معه مسرحية «النبي الهادي وكُفار قُريش»، هكذا أطلق عليها الرجُل، ولم يُسمِّها مسرحية، بل أطلق عليها حدوتة: «تعالوا يا ولاد نعمل حدوتة النبي الهادي وكُفار قريش»، وطبعًا كان مُعظمنا كُفار قريش، والبقية القليلة الباقية هُم المُسلمون الذين يُعذبهُم الكُفار؛ لأن الإسلام كان في بدايته، والكُفار كان لهُم الغلبة العددية، ولأنه غير مسموح بأن يُجسد أحد شخصية النبي، كان الرجل كالأفلام الدينية يقف ويقول: «فقال النبي كذا كذا كذا».. وأذكر أن دوري كان أحد الكُفار الذين يُعذبون المُسلمين، وما كان عليَّ إلا أن أزأر بصياح شرير وأقول: «خَسئت»، كُلما قال المُسلم المسكين «أحدٌ أحد».. ظل أداء الرجل عالقًا في ذهني حتى الآن، وتعلمت منه بعدما تزوجت وأنجبت أن أحكي لأبنائي الحواديت المُختلفة بنفس الطريقة، بل وأجعلهم يشتركون معي في أداء تمثيلي ينتهي غالبًا بمسخرة عظيمة وفقدان وافر للهيبة الأبوية، رُبما لأننا لا نُمثل حكايات دينية وقورة، ولكن حواديت الحيوانات والطيور، فمن المُمكن بالطبع أن أجسِّد دور أسد أو أرنب أو حمار.. تخيل.. حمار.. من أين تأتي الهيبة يا عزيزي؟

الشيخ «عبد المُرضي» أيضًا كان رجُلًا عذب الصوت، حبَّبنا في سماع القرآن، وكنا نضبطه في أوقات الرحة يُدندن لأُم كُلثوم، والتي لم أكن أعرفها في ذلك الوقت، حتى سمعت أمي ذات مرة تُدندن بنفس الكلمات ونفس اللحن، وكانت -رحمها الله- صاحبة صوت رائق ورخيم يمسُّ القلب، وحينما سألتها عند هذه الكلمات قالت: «دي أغنية الست أم كُلثوم»، ومن وقتها وأنا كُلما سمعت «أُم كلثوم» تذكرت أُمي، وتَذكرت الشيخ «عبد المُرضي».. أحببنا الشيخ «عبد المُرضي» وأحببنا الكُتَّاب، وصار الأمر نزهة صباحية تبدأ من الثامنة وتنتهي عند صلاة الظُهر، بينما آثارها تظل عالقة بأذهاننا طوال اليوم،

وأعتقد أن الفضل الأول للرجل، والذي هو للقرآن الكريم بالطبع في الأساس هو ضبط اللسان وإجادة النطق بالسليقة ودون تعلم قواعد، فنحن كغيرنا من جنس بني البَشَر نَكره النحو والقواعد اللُّغَوية التخطيطية الترتيبية الجامدة.. وكان أبي يشتكي لصديقه من سوء حفظي وليس العكس، فمن المُفترض أن الذي يشتكي من عدم قدرتي على الحفظ والتزامي به هو الشيخ «عبد المُرضي»؛ حتى لا يلقي أبي عليه باللوم، وكان الرجُل حينذاك يضُمُّني إلى صدره المُعطر بعطر لم ينسَه أنفي أبدًا، مُؤكدًا لأبي أن الحفظ ليس هدفًا في ذاته، فنحن يا شيخ «علي» -وكان يُنادي أبي هكذا- لا نُربي في بيوتنا بغبغانات (ببغاوات)، وإنما نُربي ولدًا مُحبًّا للقرآن عارفًا لقدره فاهمًا لمعانيه.

كان الرجُل يزور أبي مرة في الأسبوع، ويحرص على أن تكون الزيارة ليلة إجازة؛ حتى يقضيا السهرة بلا إحساس بالذنب، وكانت الزيارة الدورية تُشعرني بالتميز، وتمنحني ثقةً مُفرطةً في التعامل مع عيال الكُتاب، فنحن من يزورنا الشيخ بشحمه ولحمه في بيتنا، ليس هكذا فقط، ولكنه أيضًا صديق مُحب لأبي، يقرآن معًا القرآن، ويحتسيان الشاي، ولا مانع أيضًا من العشاء إذا جادت الظروف ببعض اليُسر.

عرفتُ فيما بعد أن الكُتاب كان وَقفًا لله تعالى، وأن الرجُل الطيب أنشأه من ماله الخاص لخدمة أبناء المنطقة، ولم يكن يتقاضى أي مُقابل، بل عرفت أيضًا أنه كان يُخصص مبلغًا شهريًّا على سبيل الإعانة لبعض أبناء الكُتاب اليتامى.

استيقظنا يومًا على خَبر أقل ما يُقال عنه إنه مُقبض، الشيخ «عبد المُرضي» في ذمة الله، الشيخ «عبد المرضي» مات، الشيخ «عبد المُرضي» لم يعد

موجُودًا في حياتنا، وكان هذا الحدث بمثابة صدمة الفقد الأولى التي أخذت كثيرًا من رصيد روحي حينها، المرة الأولى التي أرى فيها أبي يبكي، ورُبما الوحيدة، وأمي تتَّشح بالسواد، ويتم غلق الراديو وتغطيته بكسوته الكتانية السميكة.

مات الرجُل، ولكن بعد أن زرع فينا قيمًا لو أفردت لها كتابًا لما كفاها، مات وترك الذِّكرى الحسنة التي كان الجميع يذكُرُه بها، ذهب ولكنه ظل حاضرًا في أذهاننا وعقولنا وقلوبنا.

أصر أبي أن يُغسله ويُكفنه بنفسه، بل تقدم الجنازة حاملًا الرجل دون أن يطلب من أحدهم أن يُجيره ويحمل عنه، كُنت (أتدألج) بجوار أبي أثناء الجنازة، ولكنه رفض أن أدخل معهم المقابر، بقيت في الخارج تتنازع عقلي عدة صور.

الأولى: الشيخ وهو جالس وسط الملائكة وهُم يجلسون تحت قدميه مثلما كُنا نفعل، والعجيب أن الملائكة كانوا يحملون المخلة التي نحملها في الكُتاب، الفرق أنهم يرتدون البياض، ولهم أجنحة مُضيئة.

الثانية: الشيخ وهو نائم في ثوبه الأبيض، وأبي يُهيل عليه تُرابًا حتى يختفي تمامًا.

الثالثة: تخيلتني وأنا نائم مُقرفصًا في حضن الشيخ ظانًّا بعقلي الطفولي أنني سأؤنسه في وحشة المقبرة. والغريب أن هذا المشهد تحديدًا ظل عالقًا بعقلي رافضًا الانمحاء، وظللت من وقتها أحب الأرض وأحن إليها، أشعر حين

أنام فوقها بالونس الشديد، وأنني أُرافق أحبتي، فصارت الأرض مصدر أمان كبيرًا بالنسبة لي.

بدا أثر الرجُل الواضح على أهل النطاق كُله، فقد ابتكروا حلفانًا جديدًا اسمه «ورحمة الشيخ عبد المُرضي عندك»، أو «وغلاوة الشيخ عبد المرضي»، كما أطلقوا على شاي «الشيخ الشَرِّيب» المشهور في ذلك الزمان اسم «شاي الشيخ عبد المُرضي»؛ لقُرب الشبه بين الرجُل المرسوم على ورقة الشاي والشيخ عبد المُرضي، ولولا أن الرجُل قد دُفن في مقابر العائلة بعيدًا لكانوا قد أقاموا له مقامًا وتبركوا به.

عبثًا حاول أبي إقناعي بالذهاب للكُتاب بعد وفاة الشيخ «عبد المُرضي»، فالشيخ «متولي» كويس يا ابني.. الشيخ «متولي» زي الشيخ «عبد المُرضي».. ولكن فشلت كُل مُحاولات الإقناع، وكأن الجلوس تحت قدمي شيخ آخر غير الشيخ «عبد المُرضي» خيانة كُبرى لذكرى رجُل تعلمت منه الكثير، ورَفض الأولاد أيضًا الذهاب للكُتاب، حتى تم غلقه وتسريح الشيخ «متولي»، وتحول الكُتاب الذي كان يحمل أجمل ذكريات إلى بيت مهجور تطن فيه العفاريت، كُنا نمر عليه ونقذفه بالحجارة الصغيرة حتى تخرج لنا العفاريت، وفي يوم ما فوجئنا بأن الكُتاب والذي كان عبارة عن بيت من دور واحد له حوش ومُحاط بالزروع، تحَوَل إلى مغلق للخشب يُخزن فيه زوج بنت الشيخ الأخشاب التي يُتاجر فيها.

وذات فَجر سمعنا صويتًا عاليًا وجلبة كبيرة كان مصدرها كُتاب الشيخ «عبد المُرضي» الذي أصبح مغلقًا للخشب، خرجنا مذعورين لنجد نارًا ترتفع في سماء النطاق، وبعض الرجال يُحاولون إطفاءها، خرج أبي مُسرعًا وهُو يُكَبِّر

ويُسبِّح بصوتٍ مسموع حاملًا جردلًا مملوءًا بالماء، وما أن يقذفه على النار حتى يعود مُسرعًا ليملأه مرة ثانية، وظل هو والرجال على هذا الحال حتى تحولت النار إلى دُخان خانق، ثُم جلس الجميع يلتقطون أنفاسهم، وفجأة قام جارنا «عبادة النجار» صارخًا في زوج بنت الشيخ وهو يقول: «منك لله يا بعيد.. بَرَكة الشيخ تخليها مغلق خَشب.. إلهي تولع زي خشبك يا بعيد»، وصَدَّق الجميع على كلام «النجار» ما عدا أبي الذي لولاه لفتكوا بزوج البنت الهزيل، وتَدَخَّلَ مِن باب الدين والقرآن الذي كان يحفظه كاملًا، فهدَّأ الغاضبين، وأقنعهم بالذهاب إلى بيوتهم، ولكن سَرىَ اتهام «النجار» لزوج البنت في الناس سريان النار في الهشيم، وصار الجميع يُعايرونه بفعلته، حتى هَجَّ الرجُل طافشًا من النِّطاق كله، وظَل البيت مهجورًا لعدة سنوات، بعد أن أشاع الناس أنه قَد أُصيب باللعنة، وأن كُل من يسكُن فيه بعد الشيخ «عبد المُرضي» سيُحرق هو وأُسرته.

وأذكُر أن أبي حينها اجتمع ببعض العُقلاء وذهبوا جميعًا ليُقيموا الصلوات بالحوش المحروق، بل ويسهرون فيه يشربون الشاي، بل وينامون حتى الصباح في ليالي الصيف الحارة؛ حتى يُؤكدوا للناس أن هذه الشائعات لا أساس لها مِن الصحة، وأيضًا لبثِّ التهدئة والطمأنينة في قلوب النساء والأطفال، وذات ليلة ذهبت مع أبي والرجال إلى الفناء، فأنا رجُل كما كان يقول أبي دائمًا، ذهبت وقلبي يرتجف مِن الخوف، ولكني أخفيت علامات الرُّعب التي انتابتني عن أبي أو هكذا ظننت.

ولكن أول ما جلست بالفناء هاجت ذكرياتي، ورأيتُ الشيخ، وشممتُ رائحته المُحببة رغم أن رائحة الحريق المُطفأ كانت هي سيدة المشموم، فرُحت في

نوم عميق، ولم أدر بنفسي إلا وأنا على سريري، وأُمي تُوقظني للمدرسة، وسمعتُ وأنا أستيقظ جَلَبَة ولكن مِن نوعٍ آخر!

رحلة البحث عن الثروة..

هو البيت فين؟

استيقظت كالعادة لأستعد للذهاب للمدرسة، كان أبي بالبيت على غير عادته، فقد اعتدت عدم وجوده في هذا التوقيت؛ لأنه كان يستيقظ في الفجر ويذهب إلى عمله مع الهزيع الأول من الضوء، أمي كانت مُتوترة على غير عادتها، أُختاي تبكيان برُعب لَبَّش جتتي، صوت الجلبة بالخارج يعلو ويزداد، بشرٌ يزعقون، وآخرون يُصَوِّتون، والبعض يشتم، وفي الخلفية أصوات خَبط ورَزع، أمرني أبي بالذهاب للمدرسة، أطعت أمره، وأنا لا أفهم ما الذي يحدث بالخارج، وجدتُهم يجتهدون في فكِّ الأثاث من دواليب وأَسِرَّة وغير ذلك، وأمي تجمع ملابسنا في بُقَج كبيرة الحجم والبنات يساعدنها بجسد مُنتفض، وأنا ما زلت لا أفهم شيئًا، وفي هذه الربكة والجلبة العظيمة لم تنسَ أمي أن تضع لي الساندوتشات بمخلتي، وما زلت أذكُر حتى الآن أنها كانت ساندوتشات بطاطس مهروسة بالصلصة، خرجت من الباب لأرى أهل المنطقة كُلهم بلا استثناء تقريبًا يقفون أمام بيوتهم، ويُخرجون أثاثهم، وبعض المركبات الضخمة -عرفت فيما بعد أن اسمها بلدوزرات- لم أكن قد شاهدت مثلها في حياتي، يقف أمامها رجال يرتدون الزي الأبيض، ويحملون بنادق ومُسدسات ضخمة، وبعضهم يشتبك مع جارنا الطيب الذي كان يقذفهُم بالطوب وهُو يُكيل لهم أقذع الشتائم، هالني المنظر، فصرفني الرعب بقوة للابتعاد عن المكان، وكطفل في الثامنة من عُمره نسيت المشهد برُمته حينما اقتربت من باب المدرسة، وانخرطت في يوم دراسي عادي جدًّا، وفي رحلة

العودة فوجئت بسيدة لا أعرفها، ولكنها كانت تعرفني -مشهور من يومي- ودار بيننا هذا الحوار المُقتضب.

- يا ضنايا يا ابني.. هو انت ابن عم «علي»؟

كان أداؤها يشي بأنها ستُلقي على مسامعي مُصيبة ما.. وكحيلة دفاعية لا معنى لها قلت: - لأ.

- مش انت ابن الناس اللي ساكنين قُدام سُور الشركة؟

- .....

- طب خُد بس هاقولك.

- .....

وأكملت طريقي مُسرعًا، أخرجت المصاصة التي اشتريتها بشلن كامل، وكانت مصاصة مصنع وليست مصاصة يدوي كالتي تصنعها «أم شربات»، أزاحت المصاصة بعضًا من التوتر الذي أصابني بسبب تلك المرأة وأدائها المُخيف.. وحينما دخلت الشارع، ونظرت أمامي وعلى مدد الشوف، لم أجد البيوت التي كانت مُتراصَّة أمام سور الشركة الطويل جدًّا -في نظري وقتها- هرولت حينها باحثًا عن بيتي وأهلي، أو أي علامة تدلُّ عليهم، أختي نادت عليَّ بصوت مبحوح وبحنجرة ضعيفة مجروحة، تتبعتُ صوتها فإذا بها جالسة أمام سور الشركة تحمي بعض الكراكيب المُتبقية، سألت بلهفة عن أبي وأُمي، قالت إن أمي أخذت العفش وذهبت به إلى البَلَد، وأبي ذهب إلى قسم الشرطة؛ لأنه تعدى على رجال تنفيذ قرار الهدم، حيث إن البيوت مبنية على أرض الدولة،

وعرفت فيما بعدُ أننا كُنا قد اشتريناها من رجُل مُسن مات مُنذ فترة اسمه «عم شافعي»، اشتريناها بالنية الحسنة، دون عقود ولا أوراق، وهكذا فعل كُل النازحين من بلدتنا، والذين شكَّلوا معًا مستعمرة ريفية صغيرة على حزام المدينة.. جلست بجوار أخوتي أنتظر المجهول، بَاغتُّ أُختي الكُبرى بسُؤال عجيب لم تكُن تتوقعه: - أنا كُنت حاطط قصصي في صندوق جنب الكومودينو اللي أوضتكم.. هم فين؟

- (بدهشة) قصص إيه يا ابني دلوقتي.. إحنا في إيه ولا في إيه؟

لم يكُن السؤال غريبًا بالنسبة لي، إنها قصصي.. شقا عُمرى، أنفقت فيها كُل مصروفي تقريبًا، لا يهمني سريري ولا دولابي ولا حتى كُتب دراستي، فقصصي هي كنزي من المُتعة والتسلية والخَيَال، وطبعًا لم أكُن أستوعب حينها دلالة هدم البيت وتبعاته، فبيوت الأهل كثيرة، ويُمكننا أنا نعيش في أي منها، تركت إخوتي وقُمت إلى مكان الهدد؛ لأُزيح بعض ما استطعت إزاحته باحثًا عن مكتبتي الضائعة، وبالطبع كان فعلًا عبثيًّا عديم الفائدة.. تواريت حينها، وبكيتُ بحرقة على مجهود السنين الذي ضاع،

أقبل الليل ولم يأتِ أبي من القسم، ولم تأتِ أُمي من البلد، ولم أجد ثروتي الضائعة، بتنا ليلتنا الأولى في كَنَف عمي، واستمرَّ الأمر لعدة شهور، نسيتُ خلالها البيت والذكريات، ولكني لم أنسَ قصصي، ولأن المأساة تُريد أن تكتمل وتُحيط بقلبي المسكين المطعُون في قصصه، فقد كان دُكان «أم شربات» مصدر المُتعة الأول في حياتي في بيت من البيوت التي تم هدمها، وذهبت «أُم شربات» إلى حيث لا أعلم، يقولون إنها سافرت إلى بلدتها، وذهبت معها الكائنات المُرفرفة التي كانت تحمل على صفحاتها عوالم خيالية

أقمت فيها وعشت مع كائناتها، في الغابة، وفي المزرعة، وفي الصحراء، في المدينة وفي الريف وفي البادية، على الأرض، وفي السماء، وفي أعماق البحار.. ولكن ولأن اللّٰه كريم لا يُضيم ولا يُرضيه حُزني، عوَّضني بما هُو أفضل وأمتع، وأكثر مُناسبة لشاب يافع في مُنتصف المرحلة الابتدائية.

كَان عمي يعمل بالمطار، وكان يأتي بما لم يأتِ به أحدٌ من الأولين ولا الآخرين، كان استقبال عمي على الباب كُل يوم بمثابة انتظار مُفاجأة لم أعهدها من قبل، حليبٌ مُكثف ثخين.. جُبن على هيئة مُثلثات، مناديل مُعطرة ذكية الرائحة.. عُلب فول مدمس، ويا للعجب العُجاب.. لحُوم باردة ومُقددة، بضائع عجيبة من منطقة البضائع.. باختصار كان عمي بمثابة حامل العصا السحرية الذي يدخل علينا كُل يوم باختراع عجيب لم أره من قبل، ولكن أكثر ما أثار فضولي ورغبتي في اكتشاف مُحتواه، هو تلك اللفائف الورقية التي كان يأتي بها مبرومة وملفوفة حول نفسها، لا يظهر منها إلا غُلافها اللامع ذو الرسوم الناصعة، كانت ابنة عمي الكبيرة تخطفها من يده عِند وصوله، وتدخل غرفتها فورًا.. وأصبح الأمر سرًّا عليَّ اكتشافه، فالورق بشكل عام يُثير قرون استشعاري، ويُنشط ملكات الانتباه والتحفز لَدَيَّ، فما بالك بذلك الغُلاف اللامع الغامض وارد المطار؟!

لم يهدأ لي بال أو يغمض لي جفن حتى استطعت بالحيلة اكتشاف الأمر، وطبعًا الحيلة هُنا تعني دخول غُرفة ابنة عمي دون استئذانها، والتفتيش في مُتعلقاتها أيضًا و«سامحني يا رب» التي كُنا نُعد أنفسنا لقولها قبل وبعد أن نُخطئ، السر كان مجلة مكتوب عليها بخط سميك كلمة «ميكي»، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها حدوتة يتحدث أصحابها كأنك تراهُم وهُم

يتحدثون، عن طريق الفُقاعة التي تعلو رؤوسهُم، لم يحتمل قلبي الضعيف كُل هذا الجمال، وأذكر أن أول كلمة «يا خبر اسود» تلفَّظت بها إعجابًا كانت في ذلك الوقت، وقد كان الكنز كبيرًا، عشرات المجلات المرصوصة بعناية في رفّ كومودينو البنت، وطبعًا لن ينقص هذا الكنز إذا أُخذ منه قطعة مُجوهرات واحدة فقط، وطبعًا أيضًا كانت «سامحني يا رب» حاضرة، ولكن الحيرة كانت في اختيار واحدة فقط من هذا العالم الساحر، فقررت أن «سامحني يا رب.. سامحني يا رب»، وأسطو على اثنتين مرة واحدة، وبينما كُنت في غمرة الانشغال بالاختيار، ونشوة التخيل المابعدي حيث رأيتني وأنا نائم على ظهري واضعًا رِجلًا فوق رِجل، ومُمسكًا بالمجلة مستمتعًا بقراءتها، إذ فجأة ينفتح الباب بقُوة ألف نيوتن، فتهتز أعصابي بقوة ثمانية ريختر، وقلبي يكاد يقفز من مكانه، فقد ضُبطت مُتلبسًا بالسرقة وفي يدي المَضبُوطات، عدد اثنان مجلة «ميكي»، وقبل أن يلوذ المُجرم بالفرار قد تم ضبطه، وسيتم تجريسه وفضيحته بعد قليل، دخلت ابنة عمي ونظرت إليَّ في براءة، وقالت: - إنت هنا وإحنا عمالين ندور عليك؟ يلا عشان الأكل اتحط.

وهُنا تلعبكت كُل خيوط عقلي، ولم أستطع قراءة هذا المشهد، خاصة بعدما خرجت البنت، وصفقت خلفها الباب، كأنها لم ترَ شيًا غريبًا، تركت المجلتين، وخرجت مُطأطئ الرأس مُتوقعًا التوبيخ من أي أحدٍ من الجالسين حول السُّفرة، ولكني وجدت حوارات عادية كتلك التي أسمعها كُل يوم في جلسات الطعام، زوجة عمي توبِّخ ابنتها على حرقها للعيش أثناء تقميره، وعمي يُوبخ ابنه الصغير على درجات الشهر اللي زي الزفت، وأبي يأكُل في صمت وَجِل، وأُمي مثله ومثلهُم إخوتي، باعتبارهم ضيوفًا، وانتظرت دُوري في التوبيخ

واللوم والتقريع، بل والضرب إذا لَزِمَ الأمر، ولكن شيئًا من ذلك كُله لم يحدث، انتهينا من الأكل وقُمنا جميعًا، وأنا إحساسي بالذنب جعلني أنزوي في رُكن من الأركان وحيدًا بعد أن ضاعت فرصتي في الفوز بالمجلة السحرية، بل وانفضح أمري أيضًا، وظللتُ بعد الواقعة بعدة أيام أتحاشى النظر في عيني ابنة عمي، بل إلى الأسرة كُلها، بمبدأ اللي على راسه بطحة، حتى جاء اليوم المشهود والذي غضب فيه عمي على ابنته؛ لإهمالها الدراسي، وقرر أن يتخلص من كُل ما يشغلها عن المُذاكرة، وأول ما يشغلها بالطبع مجلة «ميكي»، والتي يأتي هُو نفسه بها من المطار، فقرر قطع المدد أولًا، ثُم التخلص من المُعطلات ثانيًا، وكان مصير كُل المجلات الحبيبة هو خرابة «مدبولي» القريبة مِن البيت، والتي كانت تمتلئ بكُل أصناف القاذورات عبر التاريخ، فمن المُمكن أن تعثر فيها مثلًا على رفات ديناصور! وبالطبع لا تحتاج يا عزيزي أن أقول لك إنني قد خُضت تجربة هي الأعفن والأقذر في حياتي داخل خرابة «مدبولي» للبحث عن الكنز المغدور، فقمطتُ خرقة قماش حول أنفي، وارتديت البوت المُخصص للأيام الماطرة، واتخذتُ من أحد الأطفال المُتشردين مُساعدًا لي في مُهمتي الانتحارية، كـ«سانشو بينثا» في رواية «دُون كيخوتة»، وظللت أغوص في مكب النفايات النووية ذاك حتى استطعت الوصول إلى مُرادي الذي تعكعك ببقايا ملوخية حامضة، وباذنجان مُخلل من أيام السُّلطان الغُوري، ولكن لا يهم، المُهم هو نجاح المُهمة، وكُنت أستخرج الكنز رويدًا رويدًا، وأناوله للطفل المُتشرد، والذي كان ينتظر على ما يبدو شيئًا يجعله يقتنع بضرورة هذه المُهمة المُفجعة، فكُل ما أناوله له مُجرد مجلات تحوي عدة رسومات، وبها عدة كلمات، فماذا بعد ذلك؟!

انهار الولد بعدما علم أن الكنز هو المجلات، واكتشف أنه ارتدى خازوقًا مُعمرًا كذلك الذي يمنحه لك أحدهم حينما يُمرمطك معه ذهابًا وجيئة، ثم يقول لك: «الكنز في الرحلة» وعلى طريقة.. «بس إيه رأيك في النظام يا افندم»؟

راضيته بطريقة لا يرُدُّها أحد، فنبوت عسلية متين قادر على أن يغسله من الداخل ومن الخارج أيضًا، وكأي فارس نبيل، ذهبت إلى ابنة عمي، وعرضت عليها كنزها بكُل شهامة، ولكنها قابلتني بضحكة مُستهزئة.

- إيه القرف اللي إنت شايله ده؟ ارمي ارمي!

وقفت مبهوتًا مُندهشًا من هذا الجحود غير المُبرر تجاه هذه الكائنات اللطيفة التي سلَّتها وأمتعتها كثيرًا، بينما كان قلبي يرقص من الفرح، فرفضها استلام كنزها يعني انتقال حيازته لي؛ باعتباري أنا من نَقَّبت عنه وأخرجته إلى الحياة مرة ثانية، بعد أن كان مصيره التحلل والتعفن، أخذت كيس المجلات ذا الرائحة النفاذة، ومشيت وأنا أُفكر في أمرين، الأول في متعتي حينما أختلي بهذه الحواديت اللذيذة، والثاني والأهم هو كيف يُمكنني التخلص من تلك الرائحة الفاضحة.

حلم النجومية المُبَكر

النجُوم في المدرسة ثلاثة أصناف، أولهُم عَيل رِبِعْ طُول بعرض كَفَلق الخشب، يَصلُح للانضمام للشُرطة المدرسة، والتي كان مُدرس الألعاب الأستاذ «عبد المُنصف» المُرعب يختار أفرادها بعناية فائقة، وكان يُشترط في هؤلاء أيضًا قُدرتهم على الزَّعَق والنَّطر، فليس عليهم إلا أن يقوموا بشراء كاب قماشي أحمر اللون يُزينه نسر نُحاسي رديء الصُنع والهيئة، وشارة حمراء أيضًا مكتوب عليها باللون الأخضر (الشُّرطة المدرسية)، ويتم ترسيمهم كطلبة مُميزين عن أقرانهم منوط بهم المساعدة في حفظ الأمن والنظام في الحوش وأثناء الطابور وفي الفُسحة، ولكن لا ميزة لهُم داخل الفصول؛ لأنهم يضطرون لخلع البزة العسكرية، ويصبحون سواسية مع باقي أفراد شعب المدرسة.

ثُم عَيل مُتفوق يقوم بعمل واجباته، ويرضى عَنه أساتذته، فيتم رسمه كـ(ألفا) للفَصل، ويُسمى أيضًا (رائد الفصل)، وتتلخَّص مهامه في حفظ النظام الداخلي أثناء غياب الأساتذة، ويكون مِن سُلطاته كتابة أسماء مُثيري الشَّغب وتسليمها للأستاذ حينما يعود؛ حتى يتخذ قرارًا بشأنهم، وكثيرًا ما تَتَدَخل الأهواء الشخصية لدى سيادة الرائد، فيُدوِّن أسماء عيال لم يقوموا بفعل شيء؛ فقط لأنه على خلاف معهم، فتتربى في هؤلاء ثقافة سوء استخدام السُّلطة في تلك السن المُبكرة، ولكن لأن الله لا يَرضَى بالظُلم، فإن هؤلاء الرواد كانوا غالبًا ما يلقُّون الدور خوفًا مِن عِقاب المُشاغبين أو المظلومين خارج الفصل، وبعيدًا عن السُّلطة المؤقتة التي تُمنح لسيادته.

ثُم العَيل الوَحيد الذي يتميز دُون أن يُمنح أي سُلطة غاشمة تُتيح له السيطرة والتحَكُّم في زُملائه، وإنما سُلطته سُلطة أدبية بَحتة، هُو التلميذ الذي يُعطيه القَدَر صَوتًا عَذبًا جهُوريًّا، وقُدرة على الإلقاء، وثَبَاتًا انفعاليًّا مِن العيار المُمتاز.

وكان اللّٰه الكريم قد منَحني بَسطَةً في الجِسم في هذه السِّن المُبَكرة، وهي صِفة تُعَزِّز مِن صلاحيتي كأحد أفراد الشُّرطة المَدرسية، ولكن ولأن اللّٰه لا يُعطي كُل شيء، فقد حال بيني وبين القُدرة على الرَدع وتَحمير العين، لذلك فشلت في أن أكمل مُهمتي كضابط شُرطة مدرسية، بعد أن اختارني الأستاذ «عبد المُنصف» لضخامة جسدي، وبعد أن تكبدت تكاليف شراء الكاب ذي النسر والشارة الحمراء، ضُبطني الأستاذ المُرعب ذات مرة وأنا أقوم بتهريب العيال المُتأخرين على الطابور إلى فصُولهم، بعد أن زَنَقَهُم أحد زُملاء السُّلطة وهُم يقفزون مِن فوق السُّور، وحينها لم يُعاقِبني الرجُل، ولكنه اكتفى بنزع رُتبتي العسكرية، وإحالتي إلى التقاعد المُبكر، وأذكر أن راحة كبيرة كانت قد ألَمَّت بنفسي؛ لأنني على يقين مُنذ البداية بأنني لا أصلح لهذه المُهمة القاسية التي تَحتاج إلى الحَسم والشِدة، بل والغشُومية في بعض الأحيان، وبذلك أكُون قَد فَشَلتُ في الحالة الأولى مِن حالات التَمَيُّز، ولم يبقَ أمامي إلا حالتان يَجب أن أعُضَّ عليهما بالنَوَاجذ. ولكِن كلاهُما بالاختيار، ولا مجال فيهما للتَرَشُّح، فما كان عَلَيَّ إلا أن أُقِيم أسبابهُما وعلى اللّٰه التسَاهِيل، فقد حاولتُ كَثِيرًا أن أُظهر نبوغي أمام الأساتذة في الفَصل؛ حتى يختارني أحدُهم كرائد فصل في حِصَصه، ولأن لكُل مُجتَهِدٍ نَصيبًا فإن أحدهم اختارني في غَفلة مِن الزَمن لهذه المُهمة، والتي انتهت بفضيحة كُبرى، فذات يومٍ وأنا واقفٌ كالسَبع أؤدي واجبي بِشَرَف حينما خَرَجَ الأستاذ لتلبية نِداء الطبيعة، إذا بأحد المُشاغبين يفتَعل مُشاحنة مع زميله، وسرعان ما تنقلب المُشاحنة إلى

مُشاجرة بالأسلحة المدرسية، وكانت الأقلام تُستخدم في الغَزِّ في الأيدي والأجناب، والأساتيك للقَذف في الوجوه، لا سيما الأعيُن لمن يُجيد التنشين، بينما أمواس الحلاقة التي كُنا نستخدمها كَبَديل لبَرَّايَات القَلَم الرصاص فكانت تُستَخدَم كسلاح رَدْع لا أكثر؛ لأنها أسلحة خطيرة، واستدعاؤها قَد يُؤدي إلى مصيبة.

الوَلد المُفتَعل للمُشكلة لم يكُن مُشاغبًا وحسب، إنما كَان غشيمًا حَلُّوفًا أيضًا، فاستَخدم سلاحًا فتاكًا جديدًا لم يخطُر على بال الشيطان نفسه، إنه البَرجَل الحديدي ذو السِّن المُدَبَّب الطَوِيل، حيثُ أمسك به مِن رأسه ورَشَقَهُ في الإصبع السبابة لغريمه، فالتَصَقَ إصبعه بالتختة التصاقًا لا فِكَاك مِنه، فَنَطَّ الولد وفَطَّ وقَفَز، وحَدَثَت الفاجعة التي لَطَّخَت سُمعتي الكريمة كرائد فَصل مُسيطر، صُراخ المسكين لَمَّ علينا عِباد اللّٰه مِن مُدرسين وتلاميذ، والأستاذ الذي ذهب ليُلبي نِداء الطبيعة خَرَجَ مذعُورًا وهُو يَشدُّ سَحَّابه المزرجن، وأنا واقف مبهوت أكاد أسقُط مَغشيًّا عَلَيَّ من هول المَشهد، أخذوا الولد على الحكيمة، بعد أن انتزعوا إصبعه انتزاعًا من التختة، وعُقِدَت جَلسة المُحاكمة، والتي كُنت طَرَفًا أصيلًا فيها؛ باعتباري المسئول حينها، وباعتباري أيضًا الشاهد الثقة، بل وباعتباري مُتحَملًا للمسئولية الضمنية، وقفتُ أمام الناظر والأستاذ وَولي أمر الجاني والمجني عليه معًا بعد أن تَم استدعاؤهما على عَجَل، وحينما طَلَبَ مِني الناظر الكلام بَعد أن حَلَّفَني بأن أقول الحَق، وجدتني أتلجلج في الكلام وأنهار باكيًا في نشيج وعَويل، مُردِدًا كلامًا غير مفهُوم لا يظهر مِنه إلا بعضه مِن نوعية: «واللّٰه العظيم يا أستاذ....» و«ماليش دعوة....»، لا أعرف لماذا تصورت أنني مُدان، وأن عقوبةً ما ستُوقع عَلَيَّ، أقلُّ ما فيها رفد نهائي مِن المَدرسة، ولكن المُفاجأة أن الناظر أمرني بالانصراف

بعد أن قال لهُم: «أظن كُل شيء واضح»، وما أن أُمرت بالانصراف حتى خَرَجت على غَير هُدى، وكان هَواء الحُوش مُنعشًا أستطيع تنفسه بالمُقارنة مع هواء غُرفة الناظر الثقيل القَابض، ذَهَبتُ حينها إلى الكانتين لأُسَرِّي عَن نَفسي بشيء آكُله يُنسيني هَمَّ اليوم الكئيب، وأنا أُفَكر في مَصير صُباع الوَلَد المَخرُوم، ومصيري إذا كُنت مكانه، وأفكر أيضًا في مصير الخارم، كيف سيتعاملون معه؟ هل سيخرمون صباعه هُو الآخر ليكون عِبرة؟ هل سيُسلمونه للقسم الذي سيقوم بحبسه على ذمة القَضية مِثلما أسمع في التلفزيون؟ هَل سيكتفون برفده وحسب؟ أخذت أُقرقِش العسلية أُم سمسم التي اشتريتهُا مِن عَم «رَجب» بعد أن نَفَحته القرشين اللي حيلتي، جلست بجواره حتى لا يلحظ أحد عَدَم وجودي في فصلي في وقت الدراسة، أخذت أتأمل قدمه الفيلية المسكينة، ووجهه الأسود المليء بالبثور، كان جالسًا على مقعد مرتفع يبدو من خلاله واقفًا نصف وقفة، لماذا عَم «رجب» وحيد لا أُسرة له؟ أم إن له أسرة تسكُن في مكانٍ آخر؟ كيف ذلك وهو يُقيم في المدرسة ليل نهار؟ هَمَمتُ بسؤاله، ولكن ما منعني أنه نام مُباشرة بعد أن وضع القرشين في سيالته العميقة، جَلَستُ أتأمل ذلك الكائن العجيب وهُو يصدر أغرب الأصوات من فمه وأنفه وهُو نائم، يبدو كَوَحْشٍ ودِيع غَير مُؤذٍ، كُنت أخاف منه في أول أيامي بالمدرسة، ولكن سرعان ما انكشف وجهه الطيب الذي لا يتناسب مع طَلته ولا مع حجمه، لَمَحت الوَلَد مخروم الصُباع آتيًا مِن بعيد بصُحبة والده وهُو مُبتسم وكأن شيئًا لم يكُن، وقَد مَرّا على عَم «رَجب» النائم وأيقظاه، واشترى الرجُل لابنه كُل الأصناف الموجودة بلا استثناء، ودَفَعَ جُنيهًا كاملًا تاركًا الباقي بقشيشًا للرجُل الطَّيب، والعجيب أنهُما قَد لَمحاني مُنزويًا في رُكن مِن أركان حُجرة الكانتين، ولم يُعَلقا بشيء،

أو حتى يُكلفا خاطريهما بالنَّظَر إليَّ، أخذ الرجُل ابنه وانصرفا، فتبعتهما بعينيَّ حتى خَرَجَا من باب المدرسة، قَرقَشت باقي العسلية، وأخذت أنظر إلى عَم «رجب» مَرة ثانية سارحًا، هَل يُمكن يومًا ما أن أُصبحَ فراشًا بقدمين فيليَّتين كَعم «رجب»؟ أجلس مكانه لأبيع الحلوى للأولاد ثُم أنام بعد أن أضع النقود في سيالتي الطويلة؟

إنه ميكانيزم دفاعي موجود معي مُنذ مرحلة الوَعي الأولى، فحينما أَتعَرَّض لمُشكلة حقيقية تتكاتف كُل قُدرات العقل الباطن للهروب من التفكير فيها إلى غيرها، أيًّا كان هذا الـ«غيرها»، والأقرب للعقل الباطن في ذلك الوقت كان هو الأقرب للعين، فَرغم أن الولد وأباه قد خَرَجا مِن غُرفة الناظر بلا أي أثرٍ واضحٍ على وجهيهما لحُزنٍ أو ألم، حيث إن مِن الواضح أن الموضوع قَد تَمَّ لَمُّه، إلا أن الرُعب والقلق ظَلَا يلعبان بي.

كان جَرَس الإعلان عن انتهاء اليوم الدراسي قد رَنَّ، وامتلأ الحُوش بالعيال، خرجت معهمُ بعد أن حملت مخلتي فوق كتفي، وصورة الصُّباع لا تُفارق عيني.

وفي اليوم التالي كان عَلَيَّ أن أُفكر جيدًا في الشَكل الثالث مِن أشكال التَميز، وهُو أن أُصبح نَجمًا مِن نجُوم الإذاعة المدرسية، وبالفعل ذهبت إلى الأستاذ «صلاح» مُدرس اللغة العربية، وطلبت مِنه تَسجيل اسمي، والأستاذ «صلاح» يعرفني جيدًا، ويعرف أنني لَبخَة ونيلة وسريع الارتباك، ولكنه لم يشأ أن يكسفني، فطلب مِنى حفظ حديث نبوي قصير، لأُلقيه في اليوم التالي، وكانت فرحتي عظيمة بموافقته، ولكن رهبتي من دخول الأمور في الجد كانت أعظم، ولأن اللي ع الشطّ عوام فقد كُنت أثناء الأحلام التي راودتني

بالوقوف في الإذاعة أرى أن الموضوع عادي ولا مُشكلة فيه، ولكن الآن وبعد أن وَرَّطت نَفسي أخذت الأوضاع مَنحىً آخر، وحينما قُلت لأحد زُملائي صارحني بالمفتشر بأنني لا أصلح لهذه المُهمة، فأنا -حَسَب رأيه- عَيل عيوطي وخَواف، ولن أستطيع الوقوف أمام الميكروفون، وطبعًا مِن المُفترض أن تأخُذني الحماسة والحمية وأرُد كرامتي التي بعزقها الولد، ولكني تَسَمَّرت في مكاني ولم أرُد، فاعتبر هُو موقفي هذا يُؤكد كلامه ويُثبته، وحينما عُدت إلى البيت حاولت أن أزيل التوتر، وأُثبت لنفسي أنني سعيد بالقرار الصَائب، وأنني سأنجَح في هذه التجربة التي أخوضها للمرة الأولى، ففاتحت أُمي في الأمر، والتي كالعادة دَعَت لي بالتوفيق والسَداد، وبدا مِن كلامها أنها لا تَعرف أصلًا ما هي الإذاعة المَدرسية، فأغلقت بابي على هَمي، وجَلَست أُفَكر فيما عليَّ فِعله، ووصَلت في النهاية إلى ضرورة حِفظ الحديث النبوي والتَدَرُّب على إلقائه، فاخترتُ حديثًا مِن كتاب الدين المُقرر علينا أحفظه عَن ظَهر قلب، وهو حديث النية «إنما الأعمال بالنيات.......»، وجَلَست أمام البيت ساعة هدوء المغربية، ورُحت أُردد الحديث كَفِقي يحفظ ألفية ابن مالك، وأثناء التكرار كان صوتي يَعلو دُون أن أشعُر، فنادى عليَّ أبي، وأمرني بالدخُول بعد أن اتهمني بالجنون، دخلتُ البيت وجلستُ علي سريري وأنا أُردد: «إنما الأعمال بالنيات......» حتى غلبني النوم، ولم أدرِ إلا ويد أُمي توقظني للمدرسة، وهُنا أحسست إحساس «جالك الموت يا تارك الصلاة».

استقبلني أستاذ «صلاح»، وطَلَب مِنى إلقاء الحديث، فاعتدلتُ في وقفتي وربَّعت يدي؛ لأن الحديث مِن الدين، وأخَذت أقول بصَوت عالٍ: «إنماااااا الأعماااااال بالنيييييييات....» على طريقة تسميع الأطفال، فأمسك الأستاذ «صلاح» برأسي، وضمَّها إلى صَدره وقال: «عال عال.. زي الفُل».. اطمأن

الرجُل واطمأن قلبي إلى أن الأمور تسير على ما يُرام، وأن عِماد قلب الأسد سيُثبت للجميع أنه نَجم نجوم الإذاعة المدرسية.

ولكن أول ما بدأ تجميعنا لنَصعد على المنصة بدأت بطني في الحركات اللاإرادية، وقفنا طابورًا بترتيب الأولوية، فالأول كان مُقدم الإذاعة، وخلفه يقف قارئ آيات الذكر الحكيم كما كان يقول المُقَدم، ثُم العبد لله قارئ الحديث النبوي الشريف، ثُم قارئ الأخبار، ثُم مُلقي حكمة اليوم، وكُنت أول مرة أرى المدرسة أثناء الطابور مِن موقع المُدرسين، فالمنظر مهيب ومُرعب، وحينما تَقَدَّم مُقدم الإذاعة وجدته بَرَبَنْط، يقول الكلام كأنه يُحدِّث نفسه بلا رهبة ولا هيبة، وقَدَّم قارئ القرآن الذي قرأ سورة مِن قِصار الصور، وعندما قال: «صدق اللّٰه العظيم» شعرتُ أن الدُنيا تتشقلب رأسًا على عَقب، وتملكتني رغبة قوية في أن أفعل مثلما فعل إسماعيل يس في فيلم الأسطول، حينما كان يَرجع خُطوة للوراء، ويُقَدم مِن خلفه في اختبار السباحة، ولكن سَبَق السَيف العَذَل، فقد قَدَمَني الولد وقال اسمي: «والآن مع الحديث النبوي الشريف الذي يُلقيه الطالب عماد علي»، فوقفت أمام الميكروفون أنظر لعيال المَدرسة والذين شعرت حينها بأنهم ملايين الملايين، فالدُّنيا كُلها تحولت إلى عيون تنظر إليَّ وتنتظرني أتَكَلم، وبدأت أقول: «قال رسول اللّٰه.....» ولكن شيئًا مُخيفًا يَحدُث، الصوت الذي يتردد في الميكروفونات المُعلقة فوق المدرسة يصل بعد صوتي بقليل، فأشعر بتداخُل الصوتين، أقول الكلمة، وتصل إلى أذُني وقت نطقها، ثُم تتكرر بعد بُرهة في الميكروفونات، وهُنا انعَقَدَ لساني تمامًا، ولم أستطع أن أنطق بكلمة، وحتى ذاكرتي التي تعمل بكفاءة وجدتها ناسيةً لكُل شيء، توجهت الأنظار نَحوي، وأمسكني الأستاذ «صلاح» وهو يقول: «معلش يا ولاد أصله تعبان شوية».

وكانت المرة الأولى التي أخرج فيها مِن المدرسة بعد طابور الصباح، ولا أصعَد إلى فَصلي، فمشيتُ على غَير هُدى حتى وصَلت إلى حديقة عامة، فجلست وأنا لا أُفكر في شيء، وكأن كُل ما في عَقلي قَد مُسِحَ تمامًا، وظللت هكذا حتى جاء موعد العَودة إلى البيت، وحينما عُدت استقبلتني أُمي بحُضنٍ كبير، وطَبطَبَت على كتفي وقالت: «والله كان صُوتك زي العَسَل»، فابتسمتُ وسألتها: هَل سمعتني؟ فقالت إنها سألت أبي عَن ماهية الإذاعة المدرسية، فَشَرَحَ لها الأمر ببساطة، وعرفت مِن خلاله أنني سأتحدث في ميكروفون المدرسة، فذَهَبَت إلى هُناك، ووقفت خَلف السور؛ لتستمع إلى ابنها الحبيب، ورغم أنني قَد حَرَمت أُمي مِن لذة الفرحة بابنها الإعلامي الناشئ، ورغم أنها لن تستطيع أن تَتَفَشخر بين الجيران بهذا الموضوع، إلا أن رِضاها كان صادقًا، وكان مرهمًا أزال قَدرًا كبيرًا مِن ضيقي وحُزني.

وضاعت فُرصتي الثالثة في التميز، وكان عليَّ بعد أن أُداوي جراحي، البحث عَن مجال أُثبت جَدَارتي فيه، ولكن مشاغل الدراسة وتصاريف الزَمَن شغلتني عن البحث، فَتَرَكتُ التَمَيُّز لأهل التَميز، وقررت أن أعود إلى صفوف الجماهير لأُؤدي واجبي كأي عيلٍ عادي.

زوجة الشيخ «علي» التحتانية

ومعركة العقل المُبكرة

كان لنا جار ستيني طيب اسمه الشيخ «علي»، رجل نحيف قصير القامة ذو شعر أسود غطيس لا بياض فيه على الإطلاق، له زوجة سمينة مُدورة الهيئة، ولكنها خفيفة الروح تعدله في الطيبة، ورُبما تفُوقه، كان الشيخ «علي» بمثابة الأنيس لنا في القاهرة بعد هججان أبي من قريته الصغيرة بريف المنصُورة، فلم نكن نعرف غيره في حياتنا الجديدة، الرجُل من نفس بلدتنا، ولكن له سبق المجيء إلى القاهرة، لم أكُن أعرف مهنته، قد يكون غنامًا؛ لأنه يحمل لقبًا غريبًا بعد اسمه وهو «أبو معيز»، فضلًا عن أنه يحمل تحت إبطه دائمًا خرزانة طويلة تصلح لتأكيد الوصف، كان الشيخ «علي» زملكاوي عتيد، وزوجته الطيبة أهلاوية متطرفة، ولم أكُن أعرف في ذلك الوقت ما الذي تعنيه كلمة أهلاوي أو زملكاوي، فلم نكُن من أصحاب التلفزيونات، فضلًا عن أن العائلة بأكملها لم يكن فيها مُشجع كُرة واحد، عرفت معنى الكلمتين في ليلة ظلماء حينما تصارع الزوجان الطيبان على مباراة كانت تجمع الفريقين، أقسمت الزوجة على أن الأهلي إذا فاز ستُقيم ليلة لأهل الله، وقد استعدَّت للأمر بحلة محشي كبيرة من كُل الأنواع، وحلة كبيرة أخرى وضعت فيها عدة كيلوجرامات من اللحم؛ استعدادًا لفوز الأهلي على الزمالك، وذلك أمر مفروغ منه بالتأكيد حسب قولها، وهُنا شعر الشيخ «أبو معيز» بالإهانة، وأقسم يمين من «أبو أُكرة» -أي يمين طلاق ثلاثة- أن الزمالك إذا خسر سيُلقي طعام الاحتفال لكلاب الشوارع تأكله، وأذكر حينها أن صوتهما قد علا بشكل كبير،

مما استدعى تدخُّل أبي وبعض الجيران، فكرت حينها وكُنت طفلًا في العاشرة من عُمري في الأسباب التي قد تجعل الناس يتصارعون مِن أجل لُعبة، لم أستوعب الأمر حينها، وما زلت في الحقيقة لا أستوعب فكرة الانتماء شديد المتانة لفريق كُرة قدم، والتصارع والاقتتال مِن أجل ذلك، وازدادت حيرتي حينما نَفَّذَ الرجُل تهديداته بعد انتهاء المُباراة بالنتيجة التي توقعتها زوجته، ورمى نعمة ربنا في الشارع، ورأينا بأعيننا قطع اللحم المبعثرة فوق الأرض، والكلاب تتخطفها والقطط تتصارع عليها، وأصابع المحشي التي تناثر مِنها الأرز قبلها، كان الرجل في حالة مِن الهياج لم أعهدها عليه، وكان هياجه ممتزجًا بخليط من الشتائم والألفاظ القبيحة التي كالها للعيش والعيشة واللي عايشينها، ولفريقه والفريق المُنافس واللعيبة والمُدربين وامرأته وأولاده، حتى أبي الذي لم يكُن أكثر مِن فاعل خير نابه مِن الحُب جانب.. لم يسلم مِن لسانه أي شيء ولا أي أحد، حتى إنه سبَّ الدين لنفسه؛ لأنه قَبِلَ بالعيشة مع أهلاوية غدَّارة.. وبعد هذه الواقعة قرر أبي مُقاطعة الرجُل، ووصفه بالجنون، وطلب مِنا جميعًا الاقتصار التام عن ذلك المَوْتور الذي أهان الجميع، ظلت الأمُور هكذا قُرابة شهر، حتى جاء الرجُل إلى البيت طالبًا الحديث مَعَ أبي الذي استقبله، ولكن على مضض، فمهما كان فإن بيننا وبينه عيشًا وملحًا كما يقول، جلس الرجُل في تذلُّلٍ واستسلام، وبدا أكثر وَهَنًا مما سبق، ظهره محنيٌّ وفمه شبه خالٍ مِن الأسنان، وصوته الذي كان جهوريًا مُزلزلًا صار هزيلًا خافتًا يُسمع بالكاد، طلب أبي شايًا، ورَغِبَ الرجُل في شُرب اليانسون، لبى أبي طلبه وأمرنا بعمل كُوب مِن اليانسون مُحلى بخمس ملاعق مِن السُّكَّر، فقد كان يعرف أنه يُحب المشروبات مُسكَّرة، حاولت استراق السمع؛ لأعرف إذا ما كان قد جاء نادمًا وطالبًا المشورة في

أمر ردِّ زوجته التي تركت له البيت، وذهبت إلى البلد مُقسمة ألا تعُود مهما كان.. أم أنه قد جاء فقط ليطلب إعادة العلاقات، ويعتذر عن إساءته لأبي في فورةِ غضبه، ولكني فشلت في فهم كلمة واحدة مِن الرجل، والذي بدا عليه الارتباك والتلعثم، بالإضافة إلى أن أبي هو الآخر بطبيعته خفيض الصوت يُدغِم الكلام في بعضه حتى لا يستطيع مُتَجَسس زَي حالاتي فهم ما يقول، وبعد انتهاء الحوار وجدتهما يتصافحان، وقد احتضن أبي الرجُل ضئيل الجسم، وربت على كتفه في حُنوِّ أب، رغم أنه في ذلك الوقت كان أصغر مِنه بنحو عشرين عامًا، ذهب الرجُل، ولكن لم تذهب سيرته التي كانت محورًا لحديثٍ مُمتد بين أبي وأُمي لعِدة أيام.. أبي كان مُتعاطفًا بشدة معه بعد حواره مع أُمي الذي فشلت في الاستماع إليه أيضًا، ولكني سمعته ذات مرة يقُول لأمي في إحدى حواراتهما: إن الشيخ «علي» مُتزوج من -اللهُم احفظنا- جِنِّية، وهي التي تطلب منه الإساءة إلى زوجته، وهي التي تُعفرت حياته، وتجعل مِنه شخصًا عصبيًا ضيق الخُلق سيئ الخُلُق، جلست طوال الليل أُفكر في تلك الجنِّية التي تزوجها الشيخ «أبو معيز».

فهل لها هيئة إنسان مثلنا، أم هي مُجرد دُخان وهواء؟

هل تظهر وتختفي مثل «عفريتة هانم» في فيلم «إسماعيل يس» الذي كُنا نلتفُّ حول أفلامه أمام تلفزيون الشيخ «علي» نفسه؟

هل تزوجها بفرحٍ ومعازيمَ وفرقةِ مزيكا كتلك التي نراها في الأفراح، أم إن العفاريت تتزوج سُكِّيتي؟

أين تُقيم هذه العفريتة؟ هل في فانوس قديم كما في فيلم «إسماعيل يس» أيضًا أم عثر عليها في المقابر؟

فالعفاريت كما تقول أُمي تعيش وسط الموتى في المقابر؛ لأنها في الأساس أرواح تهبط لتطمئنَّ على ذويها، وتنتقم مِن أعدائها.. ماذا يفعل الشيخ «علي» حينما يُريد أن يلتقيها.. أين يذهب هُو ومن أين تأتي هي؟ كُل هذه أسئلة طافت بذهن الطفل الصغير الذي كُنته في ذلك الحين، وظل الأمر يشغل بالي ويُسيطر على تفكيري، إلى أن جاء الشيخ «علي» في زيارة أخرى ذات مرة، وحينما دخل سلَّمت عليه وباغتُّه بأداء طفولي مُباشر، وطرحت عليه السؤال التالي:

- فين مراتك الجنية يا عم الشيخ «علي»؟

ابتسم الرجُل أولًا، ثُم تحولت ابتسامته لقهقهة مُرعبة.. أو هكذا رأيتها، ثم أردف:

- ماتجبش سيرتها لتسخطك قرد.

نهرني أبي وأمرني بالانصراف، ولكن الشيخ «علي» طلب منه ألا يكسر بخاطري، ودعاني للجلوس بجواره، ورغم أن رغبتي في الاستماع إلى الرجُل باعتباره الوحيد ممن أعرفهم الذي جَالَس العفاريت وتكلم معهم كَانت كبيرة، إلا أن رُعبي من مُجرد النظر في عيني إنسان يُعاشر العفاريت كان أقوى.. حاولت أن أتحلى بالمرجلة كما يطلب أبي مني دائمًا، فجلست، وبدأت طرح الأسئلة التي لم تنتهِ إلا بأمر أبي الذي ضاق ذرعًا بي وبأسئلتي التي كانت

كُلها مشروعة ومنطقية، في حين جاءت الإجابات كُلها ساخرة ولا معقولة، فسألته مثلًا:

- أين مكان هذه الزوجة الجنّية؟

- وهل لها بيت تعيش فيه مثلنا؟

- وإن كان، فهل يُمكننا زيارتها؟

وجاءت إجابة الرجُل بأن جنّيته تعيش تحت الأرض، وحينما تُريده تصعد له، وتتمثل له في صُورة بشر، وحينما يُريدها يطلب منها تحويله، وينزل لها تحت الأرض.. وعند ذلك قُلت صائحًا: وهل يُوجد شيء تحت الأرض إلا المجاري يا عم الشيخ؟ هل زوجتك تعيش في البلاعة؟ عاد الرجُل للقهقهة المُرعبة مرة ثانية، ولكن بصوت أعلى هذه المرة، ثُم نظر إلى أبي وقال:

- عيل.. لن يفهم شيئًا.

لم يُجب الرجُل عن سؤالي، فطرحت عليه سؤالًا آخر عن أبنائه مِن هذه الجنية.. أنا أعرف أن أي زوج وزوجة لا بُد أن يكُون لهُما أبناء (دون أن أعي السبب طبعًا في ذلك السن، ولكن الربط بين وجود زوج وزوجة ووجود أبناء أمر منطقي بحُكم الاعتياد)، فقال الرجُل إن أبناءه من الجنية عشرة، وكُلهم ذكور.. يظهرون فقط عندما يتعرض لمشكلة، فيُدافعُون عَنه وينصرونه على من يعاديه، وحينها أَمَّنَ أبي على كلامه، وقال تصديقًا إنه شاهد ذلك بنفسه في مرة مِن المرات، واندهش مِن هؤلاء الشباب ومِن أحجامهم الهائلة، وظنَّهم حينها أقرباء أرضيين، ولم يُفكر أبدًا في كونهم يحملون نصفًا مُعفرتًا،

صِرت وحيدًا في معركة العفل المُبكرة في مُقابل أبي، وما له مِن سطوة أدبية أبدية، والشيخ «علي» وما له مِن مقام الرجل الكبير الذي لا يجوز وصفه بالكذب، جال في عقلي سؤال أخير لم أستطع طرحه تحرُّجًا وخوفًا من أصحاب السطوة والسُّلطات، ولكنني اكتفيت بأن أطرحه في سِري، فأنا أعلم يقينًا كما أُشاهد في الأفلام أن العفاريت تمنح من تظهر له سبع طلبات يكون مِن ضمنها المال الكثير، وأنا أرى الشيخ «أبو معيز» رجلًا فقيرًا يستلف مِن أبي أحيانًا؛ ليستطيع الوفاء بالتزاماته الأُسَرية.. فكيف لزوجته التحتانية أن تتركه فقيرًا دون مال بهذا الشكل؟ وأين الذهب والياقوت والمرجان وأحمدك يا رب؟

تركت المجلس دُون أن أحصُل ما يشفي غليلي ويُريح عقلي.. ورغم عدم قناعتي بكُل ما يُخالف العقل في هذه السن المُبكرة، إلا أنني لم أستطع أن أُقاوم مخاوفي الشديدة من هذه الكائنات غير المرئية، وكُنت كثيرًا ما أحلُم نائمًا أو مُستيقظًا بزوجة الشيخ «علي» الجنية وهي تخرج من أسفل السرير مُهوشة الشعر مُمزقة الملابس، وتلوك بين أنيابها طفلًا صغيرًا يُشبهني والدماء تنفجر من شراييه، ظل الرعُب يُسيطر عَلَيَّ لمُدة طويلة وخاصة أنني أنكرت وجود الست عفريتة هانم، بل واستهزأت بها أيضًا.. وتنازعني إحساسان مُتناقضان، ولكن في كليهُما كُنت أنا الذي ما زلته حتى الآن.. الاحترام المُطلق للعقل مع الإيمان اللاشعوري بالأمُور غير المرئية أو الميتافيزيقية.. وكأنه صراع بين إرادة المعرفة الواعية وإرادة المعرفة اللاواعية، بين ما يراه العقل وما يشعر به ما وراء العقل، فكلاهُما يعمل بنفس القوة والكفاءة.. رُبما يعود ذلك الصراع الذي أعتقد أنه سيستمر مع الإنسان حتى النهاية إلى نشأته الأولى، حيث غَذَّته الخُرافة، وألهبت خياله الأساطير،

وذلك قبل أن يعرف التفكير المُنظم، وقبل أن يخترع وسائل التواصل المختلفة وعلى رأسها اللغة.. فصارت الخُرافة جُزءًا أصيلًا من تكوينه، وحينما بدأ يُنظم تفكيره عن طريق عقله أراد الانسحاب مِن فضاء الماورائيات، وبالفعل استطاع أن يتخلص من بعض إرثه الذي سيطر على تفكيره لآلاف السنين، ولكن أيضًا ظل هُناك جُزء باقٍ يُقاوم الإبعاد أو حتى التهميش.. يفعل بقوة، ولكن بنسب متفاوتة تختلف حسب طبيعة الشخص وظروف نشأته.

لم تنتهِ حكاية الشيخ «أبو معيز» وزوجته التحتانية، ولكنها بدأت عندما اكتشف الجميع أنه ادَّعىَ زواجه بامرأة تحتانية ليُداري على زواجه الحقيقي مِن امرأة فوقانية لا تقل سمانةً عن زوجته الأولى، ورُبما تفوقها عُدةً وعتادًا وأوراكًا وأفخاذًا.. ورغم أن الرجُل كان صورة طبق الأصل مِن الفنان محمد كمال المصري (شرفنطح) إلا أن طمُوحه في النساء كان يتجاوز محدودية إمكانياته، فشاربه الكث، والذي يُشبه شارب «بسمارك»، وطاقيته الطويلة التي يصل بعد ارتدائها إلى طول أبي المهيب تؤكدان أن الرجل يرى في نفسه أشياء لا نراها نحن، فضلًا عن أن الرجُل قد أكَّد فحولته بزوجتين سمينتين.

ورغم أن المُحيطين بالرجل قد عرفوا وتيقنوا أن زوجته الثانية زوجة فوقية، بل وكان اسمها «فوقية» بالفعل، إلا أن شيئًا في نفوسهم كان لا يزال مُتعلقًا بالجنّية التحتانية.

أول شراكة معرفية في حياتي

كان لي صديقٌ لطيف اسمه «عبد اللطيف»، ولكنه في الحقيقة كان اسمه «إبراهيم»؛ لأن جده لأُمه كان اسمه «عبد اللطيف» وجده لأبيه كان اسمه «إبراهيم»، فأصر والده على أن يتسمَّى باسم أبيه، فإذا بالأُم تأمر كُل العائلة أن يُنادوه بـ«عبد اللطيف»، ولكن هذا الازدواج لم يُؤثر على الولد كثيرًا؛ لأن اسم «إبراهيم» لم يكُن موجودًا في الحياة إلا كَحِبر على الأوراق الرسمية وحسب، جَمَعَني به فصل واحد وبيتٌ واحد، وكان «عبد اللطيف» مُولع بالرسم، وكُنت أنا مُثقف فصل ٥/٢ بلا مُنافس، وفي لحظة من لحظات التجلي العبلطيفية، باغتني بشعره المنكوش ومشيته الدِّرْهلية وأنا مُنسجم في الفُسحة مع ساندوتش البطاطس قائلًا:

- لَديَّ فكرة لن يُنفذها معي إلا أنت.

توجست في البداية؛ فأفكار عبد اللطيف دائمًا ما تنتهي بأسبوع رفد، واستدعاء ولي أمر، وعلى أفضل تقدير (تذنيبة) على الحائط أو لسوعتين خرزانة، نَظَرت له دُون أن أرد، فأكمل حديثه مُنطلقًا:

- إيه رأيك نعمل مجلة ثقافية أنا وأنت؟

في الحقيقة لم أكُن أعرف في ذلك الوقت ما الذي تعنيه المجلة الثقافية، فكُل علاقتي بالورق كانت كُتب وكراريس المدرسة والقصص المُمتعة وارد دُكان «أُم شربات»، وقصص «ميكي» التي امتلكتها بعدما رفضت ابنة عمي استلامها، شَعَر العبقري بجهلي المُطبق، فأخرج من حقيبته عددًا لمجلة «صباح الخير» على غُلافه صورة لإحدى الفنانات، قائلًا:

- زي دي.

قلبت في المجلة بلا شَغَف، فأطفأت جُذوة الحماسة عنده، وأكملت التهام ساندوتش البطاطس، فَطَوَى المجلة، وأعادها إلى حقيبته، ومَشَى مُنَكس الرأس مخذول المَقصِد، جلست بعدها أُفكر في عرضه الذي لم أفهمه، ولم أعرف كيف لنا أن نُنفذه، ولكن لماذا لا أمنحه فُرصة؛ فقد يطيب مقصده ويصح مسلكه هذه المرة، ولم يتطلب الأمر مني أكثر من إظهار بعض الانبهار المزعوم بالفكرة، وتوضيح أنني لم أكن أفهمها، لنبدأ بعدها رحلة المجلة الثقافية العظيمة، وكانت المُشكلة الأولى التي واجهتنا هي من أين نأتي بالورق الذي سنكتُب عليه مادة المجلة، والتي لم نكُن قد حددناها بعدُ، وبحسبة بسيطة وجدنا أن تمويل شراء الورق وحده قد يُكلف كلينا مصروف ثلاثة أيام كاملة، ففكرنا في حل أَوفر، وهو أن يكذب كُل منا على أهله، ونقول إننا نحتاج هذا الورق للمدرسة، وقد كان، وفعلنا ذلك دُون أدنى إحساس بالذنب، فنُبل المقصد وأهميته مَحَيا الإحساس بجريمة الكذب والتَدلِيس، ولكن لأن الحرام لا يستقيم مع الأفعال النبيلة، فاجأني أبي بدُوسيه ورقي كبير بمبي اللون مَترُوس بأوراق الدَشت التي يتم الاستغناء عنها في العمل، فكانت فرحتي غامرة بها، ولكن حينما ذهبت إلى الشريك الفنان بدُوسيهي سَخِرَ مِني ومِن حماستي، فهُو يُريد وَرقًا أبيض من الجهتين، لا من جهة واحدة بينما الجهة الأخرى مكتوب عليها كلام لا نفهمه، ثُم كيف لأبي أن يُعطيني ورقًا مُستعملًا وهو يعلم أنني أحتاجه في المدرسة؟.. وهُنا فقط أيقنت أن أبي قد (فقسني)، فطُول عُمري وأنا فاشل في الكذب، وقد تسبب لي هذا الأمر في كثير من الحرج، فأحيانًا وكَطِفل كُنت أضطر للكذب حتى أنجو من علقة أو شتمة أو أي شكل من أشكال العِقاب، فأتلعثم وأرتبك، ولا أستطيع إكمال الكذبة، فأنال ساعتها عقاب

المُخطئ وعقاب الكاذب، المُهم وتحت وطأة الإفلاس، وتفضيل المُكتسبات اليومية لا سيما الصباحية منها، كشراء العسلية، وركوب المراجيح، وغير ذلك على مشروعنا الثقافي السامي، اضطُر صديقي إلى الرضوخ والاستسلام، وبدأ العمل المُضني في المجلة.. كانت مهمّتي هي اختيار الموضوعات والحديث عنها، فضلًا عن الكتابة، أما مهمّته فكانت رسم الموضوعات التي أكتُبها، فحينما أتحدث عن الصحراء يرسم هو كُثبان رمال وجِمال، وحينما أتحدث عن المعالم السياحية، يرسم البُرج والأهرامات وحيوانات الحديقة، وبالفعل أصدرنا العدد الأول والأخير من المجلة بعد عملٍ مُضنٍ تجاوز الشهر، وكانت الطبعة عبارة عن عدد نُسخة واحدة هزيلة الأوراق والموضوعات، ولم تلقَ استحسان أي أحد، باستثناء أمي وأُم «عبد اللطيف»، واللتين للمُفارقة لم تكُونا تُجيدان القراءة، أما أبي فتعامل مع الموضوع باستخفاف يليق بأب: «مش فايق للعب العيال»، وكان ذلك أرحم كثيرًا من والد «عبد اللطيف» الذي كافأه بقفا مُحترم رقعه إياه أمام عيني، مُذيلًا القفا الرهيب بجُملة: «واللّه يا ابن الكلب ما انت فالح طول ما انت ماشي ورا العيال ولاد الـ.....» وباعتبار أنني المقصود بـ«أولاد الـ...» فقد انسحبت من المشهد وأنا في كامل إحباطي، فتركت موضوع المجلة برُمَّته، وقطعت علاقتي تمامًا بـ«عبد اللطيف» طوال فترة الدراسة الابتدائية.

وجدير بالذكر أن «عبد اللطيف» الفنان واحد من أشهر مُحامي مصر الآن، أما المجلة العظيمة فضاعت وزال أثرها، حتى عثر عليها «عبد اللطيف» بعد عقود، وهاتفني قائلًا إنه قد وجد كِنزًا ثمينًا لا بُد أن أذهب إليه لأراه، ولم يكُن الأمر مُلغزًا بالنسبةٍ لي، فالمجلة هي العمل المُشترك الوحيد بيني وبينه، فتوقعت أن تكون هي، ذهبت إليه في مكتبه، وبعد القهوة، حاول أن يختبر

ملكاته في التشويق و«الساسبنس»، وحاولت أنا أن أختبر ملكاتي في اللامُبالاة وإظهار عدم معرفتي بمقصده، وظل الحال هكذا حتى سئمت اللعبة، فقررت أن أُصارحه بأنني أعرف مقصده، لا سيما وأنه رغاي وغلباوي ككثير من المُحامين، هكذا أفسدت عليه فرحة صاحب المُفاجأة، طلبت منه أن أحتفظ بالنُسخة الوحيدة فرفض، فاستأذنته في الاستئناس بها عدة أيام، فوافق بنُبل، وفي الحقيقة لم أكُن أنتوي إعادتها مرة ثانية، ونجحت أخيرًا في أن أُعطي «عبد اللطيف» مقلبًا، صحيح كان مقلبًا يتيمًا بالمُقارنة بمقالبه التي كانت يومية تقريبًا، ولكنه كان يُمثل لي الكثير، فأنا شخص نوستالجي يعشق الذكريات، وخاصة أن مشروع المجلة كان مشروعًا مُؤسسًا في حياتي، فهو المشروع الثقافي الأول والمُبكر جدًّا، والذي ظل حلم تكراره يُراود عقلي، حتى عملت في الصحافة بعد تخرجي في قسم الفلسفة مُباشرة، وحينها اتصلت بـ«عبد اللطيف» لأُخبره باعتزامي الضرب على المجلة وعَدَم إعادتها، فضحك بقُوة وقال:

- يا راجل ده أنا مراتي حالفة لو شافتها لتقطعها بمنظرها العرة ده، حلال عليك يا عم.. اشربها.

ودُون أن يَدري أفسد عليَّ حضرة الأفوكاتو نَشوة الانتصار في المقلب، وأشعرني بأنني ساهمت في ترويق البيت، وتخليصه من النفايات.

الناسخ والمَنسوخ

أبي كان في الأصل فلاحًا يحمل الفأس ويَحرث الأرض ويحصد الزَرع، وَصَلَ في العَلام حتى نهاية المرحلة الابتدائية، والتي بالكاد وافق أبوه على إتمامها، حيث أصَر بعد ذلك أن يَترُك التعليم، ويذهب ليُساعد إخوته في الغيط، ورغم ذلك كان أبي قارئًا ما استطاع، حَسَن الخطِ لَيّنُه، حافظًا للقرآن الكريم كاملًا، وحينما جاء إلى القاهرة هاجرًا؛ للبحث عن ثُقب إبرة يعيش مِن خلاله هُو وأبناؤه بعد ضِيق المعايش في بلدتنا الفقيرة، عَمِلَ مُوَظَفًا مدنيًا بوزارة الداخلية، فكان مِن مَحدُودي الدَّخل، حيثُ يتحايل على المعايش هُو وأمي -رحمهما الله- بعدة طُرق، فكانت أُمي أشطر سِت تَقُوم بعملية الـ Recycle في المِنطقة، فلا شيء يتم رميه أو الاستغناء عَنه، فالبطيخة على سبيل المثال، كانت أُمي بعد أن تُكلها تأخذ القِشر لتضعه للدجاج الذي كانت تقوم بتربيته فوق سَطح المنزل، واللُّب الأسود كان يتم تمليحه وتحميصه واستخدامه كَمُسَلٍّ مَجَاني مِنه فيه، وكذلك نوى المشمش الذي كان يُطحن وتُصنع مِنه أحلى دُقة مَلح يُمكن أن تَتَذوقها في حياتك، وكانت تحتفظ بالكثير مِن برطمانات المخلل، وتَضَع كُل ما يفيض عن الحاجة فيه، فكُنا نتذوق بفضلها أنواعًا مِن المُخلل لم يتذوقها أحد مِن العالمين، كمخلل الطماطم، ومخلل البلح، ومخلل العنب، ومخلل الترمس، والحمص... وغير ذلك.

أما أبي فكان يتكَفَّل كأي رجُل مصري مَحدود الدَّخل بأعمال الصيانة المنزلية التي لا تفني ولا تُستحدث من عَدم، كتصليح رِجل كُرسي، أو تركيب حنفية، أو سلك مانع للذُباب في الشباك، وأحيانًا كان يجتهد في إصلاح الأجهزة

الكهربية، ولكن مُحاولاته كانت دائمًا تبوء بالفَشَل والإحراج، وأذكر ذات مَرة أنه أَصَر على إصلاح الراديو بينما أُمي المُهَذَّبة حاولت إقناعه بالحُسنى قائلةً له: "يا شيخ رَيَّح نَفسك إنت جي تعبان مِن الشُّغل"، وكان المعنى الخَفي الآخر خلف هذه الحنية الحقيقة وغير المُدَّعَاة هو أننا لا نُريد له البوظان كسابقه، وحينما لَمَحَت في عينيه نَظرة تحدٍّ وإصرار، قامت بتهريب الراديو تَحت أحد الأَسِرَّة مُدعيةً عَدَم مَعرفتها بمكانه، وأنها ستبحث عَنه بعد الغداء، ولأن اللي ربى خير من اللي اشترى، فإن أُمي تَعرف يقينًا أنه سينسى الراديو وينساها هي شَخصيًّا بعد الغداء، والقيلولة التي تليه، فتقوم هي في هذه الفترة بإرسالي إلى الكهربائي؛ لإصلاحه بملاليم، وكان أبي عندما يستيقظ ويعرف الخَديعة، تُقابله أمي بابتسامة نَضِرَة قائلةً: "يا شيخ شرا العَبد ولا تَربيته"، فيُسامح أبي ويطلب شايًا؛ لأنه يُريد أن يُصَحصح، حيثُ إن لَديه مُهمةً عظيمة.

كان أبي ينفحني رُبع كُوب الشاي الخاص به؛ لأن الشاي غَلَط على العِيال اللي في سِني، كما كَان يقول تبريرًا لعدم صُنع كوب شاي مُستقل لي، كُنت أشرب رُبع الكوب عَن طيب خاطر، وأجلس بجوار أبي، وهُو يقرأ ورد القرآن اليومي، ولكنه اليوم لم يُخرج المُصحف مِن جرابه القماشي الذي صنعه له؛ ليحميه مِن الأتربة، ولكنه أخرج مِن حقيبته كتابًا قديمًا مُهترئًا ذُا ورقٍ أصفر تبدو آثار الزَّمَن عليه واضحةً جَلية، ثم أَخرَجَ عِدة أوراق بيضاء، وقام بتسطيرها، وبدأ في نَسخ المكتوب في الكتاب على الورق الأبيض بعناية جَرَّاح، كان عُنوان الكِتاب هو «الرحمة في الطِّب والحِكمة» للإمام جلال الدِّين السيوطي. وكُنت أجلس في خشُوع وأنا أرى أبي يَعمل بإخلاص شديد، ظننتُ في البداية أن ذلك النسخ الذي يقوم به ضِمن عَمله، ولكن ما عرفته مِنه بَعد ذلك أنه يقوم

بنسخِه لغَرضٍ شَخصي، فهُو كتاب في الطِب القَديم، والذي كان أبي يَظُن أنه أكثر نَفعًا مِن الطِب الحديث الذي يُرهق الأبدان ويُفرغ الجيوب، ثُم إن كُل العلاج كان مِن خيرات الطبيعة، فلا يوجد فيه أي مُكونات كيميائية ولا أي سموم دوائية.

وأصبح الكِتاب شُغل أبي الشَاغل، فبعدما يأتي مِن العَمل يَتغدى ويقيل، ثُم يستيقظ ليقوم بمهامه النسخية الجليلة، وجدير بالذكر أن هذه المُهمة قد أزاحت عَن أُمي الكثير مِن الضغُوط التي تتعرض لها المرأة التي تتزوج من مُوظف يَصل بيته في الثالثة عصرًا، كما أن أبي لم يكُن مِن مُرتادي المقاهي، كما أنه أيضًا لا يخرج لزيارة الأقارب والأصدقاء إلا نادرًا، مما يجعله مُتفَرغًا للتنقير على الكبيرة والصغيرة، بالإضافة إلى إفساد الكثير مِن الأجهزة التي يُحاول إصلاحها، كما كان النسخ أيضًا فُرصة طيبة لانشغاله عَن الطلب المُستمر مني بالمُذاكَرة، والألطف هو انشغاله عن مُساعدتي في المُذاكرة، والتي غالبًا ما كانت تنتهي بما لا يُحمد عُقباه.

كان ينسَخ في اليوم الواحد حوالى خَمس صفحات مِن القَطع الكبير، وكانوا يستغرقون اليوم كُله؛ لأنه كان مُنَمَّق الخَط، يكتُب بتُؤدة، وذات يوم طلب مِني المُساعدة، فقد أتعَب التَدقيق عينيه المُجهدتين أصلًا بحُكم طبيعة عمله المَكتبية، فَرَحَّبت بأي شيء سيُبعدني ولو قليلًا عَن المُذاكرة، حتى لو كان شبيهًا لها، فأمسكت بالكتاب بدأت أُملي عليه، ولأن الكتاب كان مليئًا بمُفردات ومُصطلحات لم تَمُر على البَشر مُنذ عِدة مئات مِن السنين، كُنت أتلعثم وأنطق الكثير مِن الكلمات بشَكل خاطئ، ثار أبي مَرة واحدة، ولكن سرعان ما تَذّكر أنني أُقدم خدمة بشكلٍ تطوعي لا إلزام فيها، بالإضافة إلى أنه هُو مَن

استدعاني لأداء تِلك المُهمة، وطبعًا حينما يعمل شخصان عمل شخص واحد لا بُد أن يزيد (التارجت) فكُنا نكتب عشر صفحات، وأحيانًا خمس عشرة صفحة، وذات إجازة قُمنا بتقفيل عشرين صفحة كاملة، ولأن المُتعة زائلة، ولا شيء يبقى على حاله، فقد مَللت الأمر سريعًا، وتمنيت العودة إلى المُذاكرة، والعودة إلى الكلام المفهوم، ثُم إن أتخَن واجب مدرسي كان لا يتجاوز الثلاث صفحات، فما لي أنا وكُل هذا الغُلب، وخاصة أن أبي كان قد طَلَبَ مِني أن أُساعده في الكتابة أيضًا، بل تطور الأمر بأن طالبني بالقراءة والنسخ بعد مجيئي مِن المدرسة وحتى يعود هو من عمله، ورغم كُل ذلك لم أحاول حتى مُجرد محاولة أن أمنح هذه الكلمات جُزءًا من تركيزي، فأنا لن أُمتحن فيه، كما أنني لن أُسأل عنه في الحصة، كما أن أبي نفسه لا يُفكر في قراءة ما قام بنسخه، وذات مرة سألته لماذا لا ينسخ الكتاب عن طريق ماكينة التصوير، فذلك أسهل وأَنجَز، ورُبما أوفر؛ فالورق الذي يشتريه للنَسخ والأقلام التي يفرغ حبرها وتُبدَل بغيرها تكلف أكثر مِن تصويره، ثُم أين مقولة أمي الأثيرة: «يا شيخ شرا العَبد ولا تربيته»؟ أم إنها لا تَخرج إلا إذا كان الأمر يتعَلق بشيء في البيت يتوَهَّم أبي أنه سيقُوم بإصلاحه؟ فاعتَدَل في جِلسته، وعَدَّلَ طَاقيته، ونَظر إلَيَّ بِنَصف عين، وقال حِكمته التي سَتَظَل معي بعد ذلك إلى يوم الدين:

- «يا ابني لو ماتعبتش في الكتاب مِش هاقراه.. لما أكتب الكلام مُخي بيفكر فيه، وإيدي اللي بتكتب بتفكر، وعيني اللي بتشوف بتفَكر، وكمان باقراه بصوت عالي فَبوقي بيفكر، ووداني بتفكر، لكن لو صورته هَادِشُه في أي حتة وهيتنسي».

رُبما أداء أبي الدرامي وهُو يُلقي الحكمة جعلني شديد التركيز مَع ما قال، رغم يقيني بأن الفقر وقلة الحيلة هُما السَبب لا أكثر، فبدأت مِن حينها أتعامل مَع القراءة بكُل الجوارح المُمكن تشغيلها، وكانت النتيجة مُبهرة على الصَعِيد العَملي، فزاد الفَهم، وزاد التركيز، وزادت المُعايشة مَعَ المقروء، ولكن للأسف كُنت أتَعَرَّض للكثير مِن السخافات أثناء المُذاكرة مع الزُملاء أو في الفَصل حينما كُنت أقرأ بصُوت عالٍ، وأُحرك جسدي كُله أثناء القراءة، فتارة أوصَف بالفقي، وتارة بالمجنون، وتارة بـ«سِيبوه في حَالهُ ربنا العَالِم بيه»!

حَتى بعدما كبرت وصار لي بيت مُستَقل وأسرة خصوصي، لم يَمُر الأمر مرور الكرام؛ لأنني لم أفطن لضرورة مُصارحة زوجتي بطريقتي في القراءة حتى لا تنزَعج، فكُنت أعتقد أنها ستتعجب قليلًا في بداية الأمر، ولكن سُرعان ما ستتعود على أن الأمر طبيعي، ولكن بكُل أسف أتت الرياح بما لا يشتهي القارئ، الجهُوري، فذَات يومٍ من أيام الزواج الأولىَ استيقَظت مُبكرًا كعادتي، وجلستُ إلى مكتبي، وأخرجت كتابًا ضخمًا في الأدب الفارسي اسمه «الشاهنامة»، وبدأت أقرأ بصوت عالٍ، وأداء تمثيلي مُحكم، دُون انتباه لما سيُحدثُه صَوتي مِن إزعاج للكائن المسكين النائم في الغُرفة المُجاورة، وأثناء اندماجي العنيف في القراءة فوجِئت بـ.....

لا أُريد أن أُفسد عليك توقُّعك، ولكني أضمن لك أن كُل ما توقعته صحيح، ومِن يومها وأنا أُحاول أن أخفض صوتي قدر ما استطعت، رَغمَ أن ذلك يُفسد عَلَيَّ بعضًا مِن استمتاعي بالقراءة، ويُفقدني أيضًا بعضًا مِن تركيزي.

وبَقي أن أقول لك إن هَذا الكتاب الذي تم نسخه من عشرات السنين خلال شهرين، موجود في مكتبتي مُعززًا مُكرمًا، ورغم أنني لم أستفد من كلامه

المكتوب بحرفٍ واحدٍ، بل والمُفاجأة أن أبي الذي لقَّنَنِي دَرسًا عظيمًا في كيفية الانتفاع بالكُتب مِن خلال قراءة الجوارح لا العين فقط، لم يستَفِد هُو الآخر مِن الكتاب، بل أتم نسخه ووضعه في كيس بلاستيكي أسفل المُصحَف الموجود فوق الراديو العتيق، والتجربة الوحيدة التي جاءت نتيجة وصفة مِن الكتاب كانت مأساوية، دعوني أحكيها لكم.

كُنت أشتكي مِن زَغللة في عيني، وعدم قُدرة على تمييز وجوه الأشخاص الآتين من بعيد، فقرر أبي أن يفتح صفحة أمراض العيون ودوائها، ويخرج بوصفة عجيبة تقول لوجع البطن «قوم وأنا أقعد مطرحك»، فقد كانت الوصفة عبارة عن فقش بيضتين ووضعهما مع ملعقة سمن كبيرة، مع إضافة خمس ملاعق كبيرة مِن السُّكَّر، ولك أن تتخيل طَعم البيض بالسَّمن والسَّكر، وكَان عَلَيَّ التهام ذلك الطبق العجيب كُل صباح، والذي لم يكن يفعل أكثر مِن إثارة مُحفزات الغَثَيَان داخل جهازي الهَضمي، وبَعد أسبوع مِن العذاب الصباحي المُتكرر قَررت مُنفردًا إرسال هذه الوجبة الفُلَّلِي إلى كيس القمامة دُون المرور على الجِهات الرقابية، واضطررت للادعاء بأن هذه الوَجبة السحرية قد أتت بالفعل ثمارها، وأنني أصبحت عال العال، ولكن ذلك شَجع أبي على أن أستَمر في كورس العلاج لمدة شَهرين، وللأسف بعد الأسبوع الأول انكشف أمري، فأمي الواعية لاحظت أنني كُنت أُصر على أن آكل وجبة الاستشفاء في المطبخ، فَشَكَّت في أمري، فقامت بعد ذهابي إلى المدرسة بعملية تفتيش ذاتي للقمامة، وبان المستخبي، و في صباح اليوم التالي أخبرتني أنها على علم بما أفعل، وقبل أن أضع وجهي في الأرض خجلًا، وأُفكر في اعتذار مُناسب، فوجئت بها تقول: «عندك حَق والله يا ابني، هي دي حاجة تنزل جوف بني آدم، ده أنا باحطها للقطة شمِّتها بقرف وسابتها

ومشيت»، وهُنا فقط اكتشفت أنني لا أُحارب بمفردي وأن هُناك جُنديًّا آخر يؤازرني في معركة البيض أبو سَمن وسُكَّر، فكانت أمي تُوفِّر البيض والسمن والسُّكر، وكُنا نَدَّعي أنا وهي أن كُل شيء على ما يُرام، حتى مَرَّ الوَقت المُحدد للوصفة بسلام، وتعودت بعدها ألا أشتكي من أي مرضٍ أو ألم أمام أبي، وكُنت أكتفي بأن أُشارك أمي همومي الصحية، وكفى بها نعمة.

رحم الله أبي، ورحم الله أمي، وحفظ لي الذِكرى الجميلة التي تُذكِّرني بأيام أتمنى أن تعود، ولكن بالتأكيد دُون وصفات سيدنا السيوطي.

شَط العرب يا أُستاذ

لازمتني عين الطائر في مرحلةٍ مُبكرةٍ من عُمري، كُنت أُحب تخيل الحياة من أعلى، البيوت والشوارع والمدرسة، والغيطان والتُرعة وكُل شيء.

كُنت في الصف السادس الابتدائي، وكان الأستاذ «أبو بكر عبد الحميد» مُدرس أول اللغة العربية في مدرسة المطراوي الحديثة أحب المُدرسين إلى قلبي، وأقربهم مودة، وذات يوم اضطُرَّ الرجل أن يُعطي حصة الدراسات الاجتماعية بدلًا من مُدرس الدراسات الذي اعتذر عن عدم الحضور.. لم تكُن الدراسات تخصصه، ولكن الرجل دخل مكان زميله الغائب متطوعًا وبدأ الشرح.. ولكن محبتي الكبيرة للرجل ومكانته الرفيعة في قلبي لم تمنعاني من الاعتراض الأحمق على معلومة جغرافية خاطئة، فقد كان الرجُل يشرح درسًا عن العراق، فقال إن مدينة البصرة تقع على نهر الفرات.. فقُمت في حماسة فاتح عسكري مُنبهًا أن المعلومة خاطئة، ومؤكدًا أن مدينة البصرة تقع على شط العرب، وليس على نهر الفرات، فنظر لي الرجُل نظرة ازدراء، وكانت المرة الأولى التي أرى تلك النظرة في عينيه تجاهي، وقال: «اقعد يا فالح»، فوجدتني واستكمالًا للأداء السخيف الذي اعترضتُ به على معلومات الرجل، وقمت أصححها له أمسك بالكتاب وأفتح صفحة الدرس الخاص بالعراق، وأُشير له على مكان مدينة البصرة.. تلعثم الرجل وارتجل عدة كلمات كان ختامها: «بس يا حمار إنت مش فاهم حاجة»، جلست وبكيت هذا الجفاء غير المُبرر، وهذه المُغالطة المُخالِفة للحقيقة التي مِن المفروض أن الأستاذ «أبو بكر» يعرفها جيدًا، استمر الرجل في الشرح إلى أن انتهت الحصة، ثُم

طلب مني أن أنتظره بالخارج، جاء الرجُل وعلى وجهه علامات اعتذار كبيرة لا تُناسب مقامه بالنسبة لي، وأمسكني من كتفي وهزني برفق وقال:

- لا يجب أن تُحرج أستاذك أمام زُملائك بهذه الطريقة.. جلّ من لا يسهو يا سيدي.. وعلى كُل الأحوال لا تحزن.. أنت على صواب ومعلومتك صحيحة بنسبة مائة في المائة، أنا فقط الْتبس عَلَيَّ الأمر، ولكن حينما يقول مُعلمك معلومةً ترى أنها ليس صحيحة عليك تدوينها ومُناقشته فيها بعد الحصة بدلًا من إحراجه أمام زُملائك.

تعلمت من هذا الموقف أن أُدون ملاحظاتي على الشرح في كراسة مُخصصة لهذا الأمر، ولكني لم أتعلم للأسف عدم إحراج مُدرسيَّ أمام زُملائي، وخصوصًا إذا تعلق الأمر بالجغرافيا أو بالخريطة تحديدًا، فقد تكرر نفس الموقف بعد ذلك بعام واحد، وأنا في الصف الأول الإعدادي، ولكن مع مُدرس أكثر شراسةً وعنفًا مع التلاميذ، وهُو الأستاذ «رضوان الشرقاوي»، والذي بلغت سطوته إلى حد أن الناس أطلقت على المدرسة اسم مدرسة «رضوان الشرقاوي» بدلًا من مدرسة «العبُور»، فقد كان للرجل شخصية فُولاذية وصوت نافذ حتى على ناظر المدرسة نفسه، وأذكر ذات مرة أنه اشتبك في حوار صاخب وعنيف مع الناظر في طابور الصباح؛ لأنه كان يقول في الميكروفون إن من يُخطئ يُحاسَب ويُعاقَب حتى لو كان مُدرسًا، فليس لديه خيار وفقوس.. فهاج الأستاذ «رضوان» وماج ورفض هذا الكلام جُملةً وتفصيلًا، مُؤكدًا أن اللّٰه لم يخلق بعدُ من يستطيع مُحاسبته أو مُعاقبته، وأكد أن هذا الكلام لا يصح أمام الطلاب في طابور الصباح، وطلب من الناظر الاعتذار في الميكروفون وأمام الجميع، والعجيب أن الرجُل اعتذر اعتذارًا

واضحًا وصريحًا عما بدر منه مِن إساءةٍ في حق المدرسين، فتخيل معي رجلًا بهذه السطوة يقف أمامه عيل فسل ما زال تحت أنفه بلون خدوده الملظلظة، ويُصحح له معلومة جُغرافية، كيف سيكُون رد فعله؟

لم أنتبه إلى حقيقة الورطة التي أورطت نفسي فيها بعدما أكدت له أمام الأولاد في الفصل أن مدينة جوهانسبرج تقع في جنوب إفريقيا وليس في ألمانيا كما قال.. أطلقت الطلقة، ووقفت مبهوتًا مُنتظرًا الرد.. صوت صرصور الحقل يشُقُّ صمت القبور الذي عمَّ الفصل.. شعرت حينها بالغثيان والرغبة في فقدان الوعي حتى ولو تمثيلًا، لكنني لا أجيد التمثيل وأدائي مفقوس دائمًا.. انتظرت صفعةً أو ركلةً أو لكمةً في وجهي، فقد كانت هذه طريقة الرجل في التأديب.. ولكن على العكس فوجئت به يدخل في نوبة ضحك هيستيرية، ويطلب مني الخروج إلى السبورة.. ثُم أشار إلى الأولاد، وقال لهم:

- أُريد تصفيقًا حادًّا لزميلكم.

في هذه الأثناء كُنت مُتوجسًا وأنتظر أي حركة غدر، فأنا لا أُصدق أن الأمر يُمكن أن يمُرَّ بهذه السهولة والسلاسة.. جاهدت الرعب الذي فكك أوصالي، وحاولت أن أبتسم، فخرجت الابتسامة مُتشنجة وغير مفهُومة.. أردف الوُحْش مُوجهًا كلامه لزُملائي:

- رغم أن صاحبكُم غشيم، ويظُن أنه يعرف أكثر من أستاذه وأستاذ اللي خَلفه واللى يتشدد له، إلا أنه ولد نابه ومصحصح، وأنا هُنا أنتهز الفرصة لأُلقنه درسًا جغرافيًّا مهمًّا ليس موجُودًا في المنهج..

ثُم وجه حديثه لي وقال:

- ألا تعلم يا فَلُوطة أفندي أن هُناك سبعة عشر قاهرة حول العالم، وأن الإسكندرية اسم لما لا يقل عن خمسٍ وثلاثين مدينة، منها عشرة في إفريقيا وحدها.. ألا تعلم أن هُناك جوهانسبرج في ثلاث عشرة دولة؛ منها: ألمانيا، وجنوب إفريقيا، وروسيا، وأمريكا.

وطبعًا تأكدت بعد ذلك أن هذا الكلام ليس صحيحًا، وأن الرجل أراد فقط أن يُداري إحراجه بشكل مقبول، فقد تمَّت مُباغتته بشكل لم يألفه مِن قبل.. ولكني حينها بالطبع أمَّنت على كلامه، وهززت رأسي أعلى وأسفل، مُصَدقًا لما بين يدي الرجُل مِن معلومات.. والأكثر عجبًا أنني صِرت من خواص التلاميذ لدى هذا الأستاذ المُرعب، لدرجة أنني كُنت أتعامل مع بعض المدرسين في المدرسة الإعدادية مُعاملةً تحمل قدرًا مِن الندية، فأنا مِن المُصطفين الأخيار.. وصار الرجُل يستأمنني على أسراره الجُغرافية، فأسَرَّ لي ذات مرة بأن لديه اختراعًا مهمًّا سيُغير مفهُوم الخرائط كوسائل تعليمية في العالم، وكانت فكرته تعتمد على صُنع خريطة لا يُتلفها الماء ولا تبلى بسهولة، ويُمكن استخدامها لسنين طويلة دُون أن تتأثر بأي عوامل خارجية.. وطلب مِني مُساعدته في صُنع هذه الخريطة، والتي لا أعرف مُكوناتها حتى الآن، فقد كان الرجُل يتعامل مع الأمر على أنه سر التحنيط عِند قُدماء المصريين، وقد تلخصت مُهمتي في المُساعدة على رسم الخريطة؛ لطباعتها بعد ذلك على الماكيت المُستخدم، فقد كُنت بارعًا في رسم الخرائط بتفاصيلها الدقيقة ومُولعًا بالنظر فيها، حيث قضيت فترة مُراهقتي كاملة في أحضان الأطلس المدرسي، كان سُلوتي وأنيسي وونيسي، أفتح الأطلس على أي خريطة وأُمعن النظر فيها، وأهيم فوق واقعي، وأتخيل نفسي في مكوك فضاء، وأنظر إلى العالم مِن أعلى، أتتبع مسارات وادي النيل، وأتجول في سهُول

سيبيريا الجليدية، وأُتيم بدقائق وتفاصيل الحدود البحرية للدول الإسكندنافية، وأُقارن بين مساحة ألاسكا التي اشترتها الولايات المُتحدة من روسيا القيصرية، ومساحة مصر، وأبحث عن الجُزر الصغيرة في المُحيط الهادئ وأتمني العيش في أنتاركتيكا.. بل تجاوز الأمر تعامل العُقلاء مع الخريطة إلى أفكار مجنونة لا أعتقد أن أحدًا قد قام بها مِن قبل، كأن أشتري لوحة رسم كبيرة وأرسم عليها خريطة وهمية ليست موجودة في الحقيقة، وأُقسم هذه الخريطة لقارات، والقارات إلى دول مُتباينة المساحات، ولا أحرم أي دولة من الشواطئ سواء كانت شواطئ لبحار داخلية أو لمُحيطات كبيرة، كما لا أحرمها أيضًا من مرور الأنهار في أراضيها، ثُم أقوم بتقسيم كُل دولة إلى أقاليم، وكُل إقليم إلى عدة مُدن، وأُسمي كُل ذلك بأسماء مُخترعة لطيفة تصلح كأسماء حقيقية، ثُم تطرفت في الأمر لدرجة أنني اخترت بعضًا مِن الدول التي اخترعتها، وأفردت لها خريطة مُنفصلة، موضحًا بشكل أكثر دقة تفاصيلها الصغيرة، وكُنت مولعًا بفكرة الحدود؛ لدرجة تمنيت معها أن أقوم بترسيم الحدود بين المباني في الحي الذي أسكنه، بل بين الشقق ذاتها، وقد بلغ هيامي وغرامي بالخرائط حدًّا مُقلقًا حينما كُنت أنظر إلى السحاب، وأشير إلى سحابة بعينها قائلًا لمن بجواري: هذه السحابة تُشبه خريطة السويد تمامًا، وعندما نجلس إلى مائدة الطعام، كانت كُل لُقمة مقتطعة من الرغيف تُمثل لي خريطة بعينها، فهذه اللقمة التي نقول عليها ودن القطة تُشبه تمامًا خريطة الهند، أما هذه فشبه قارة إفريقيا، وتلك تُشبه أمريكا الجنوبية فقط لو قطعنا منها تلك الطرطوفة الصغيرة، بالإضافة إلى أنني كُنت أتحدى أي شخص في لُعبة ابتكرتها وأسميتها لُعبة الخرائط، كُنا في هذه اللُعبة نفتح أي خريطة، وينظر أحدنا إلى مدينة أو جزيرة أو نهر أو أي شيء في الخريطة،

وينطق اسمه طالبًا مِن الطرف الثاني في اللُعبة أن يُخرج هذا الاسم خلال دقيقة واحدة، وإمعانًا في الثقة كُنت أغمض عيني، وأُشير إلى الاسم دون أن أنظر إلى الخريطة بعد أن أرسمها في عقلي مُقدرًا أبعاد الرسم بشكل تقريبي، وغالبًا ما كُنت أصيب الهدف بشكل دقيق.

وقد اكتشف فيَّ الأستاذ «رضوان» هذه الموهبة حينها، واستغلَّها لصالحه، فقد كُنت ذراعه اليمنى في اختراعه، والذي نال عنه جائزة كُبرى -أو هكذا كُنت أراها حينها- من وزارة التربية والتعليم فيما بعدُ، وتسلمها في احتفال دعاني الرجُل إليه، وكانت فرحتي لا تُوصف عندما قدَّمني إلى أكابر الوزارة، واصفًا إياي بأنني تلميذه عبقري الخرائط.. ورغم أنها كلمة عابرة، ولا تعدو أكثر من تقدير معنوي مُتعالٍ، حيث يفتخر الرجل بنجابة تلميذه وتميزه، إلا أن تأثير ذلك التقدير ظل راسخًا ومُستقرًا في وجداني بعد ذلك.

وقَد حَرَّضني شَغَفي بالحدود والتضاريس، وأحلامي الكثيرة بزيارة كُل مكان في العالم؛ للتفكير في مَشرُوع بدا ساذجًا للجميع آنذاك، ولكنه لم يكُن كذلك بالنسبة لي، وظَل طمُوح تنفيذه باقيًا معي حتى يومنا هذا، فبعد أن أنهيت دراستي الجامعية بعِدة سنوات، أعدتُ صياغته بشَكلٍ أكثر تفصيلًا ونُضجًا، فطرحت في البداية عِدة أسئلة:

هل يُمكن بالفعل لا بالمجاز جعل العالم قرية صغيرة؟

هل يُمكن الجمع بين الثقافات والحضارات في مكان واحد وبشكل دائم أو شبه دائم؟

هل يُمكن أن نُجَمِّع بالثقافة والسياحة ما فرَّقته السياسة؟

هل يُمكن أن نُحَقق حلم إمكانية الطواف حول العالم في ٢٤ ساعة؟

أما الفكرة نفسها فعبارة عَن مشروع يتم تنفيذه فوق مساحة مُناسبة تُخصص لهذا الغرض ويُطلق عليها «مدينة الأرض/ مدينة العالم».

حيث تُصَمَّم هذه المدينة على هيئة الأرض، فيتم تقسيمها إلى قارات سبع تفصلها مساحات المياه المعروفة من مُحيطات وبحار.

ثم يُقسم العالم إلى عدة أقاليم، كل إقليم يحوي عدة دول يجمعها مناخ (شبه) واحد، وثقافة (شبه) واحدة، مثل

- الإقليم الأوروبي الشرقي.

- الإقليم الأوروبي الغربي.

- الإقليم الروسي.

- الإقليم الأمريكي الشمالي.

- الإقليم الأمريكي الجنوبي.

- الإقليم الإسكندنافي.

- الإقليم الصيني.

- الإقليم الهندي.

- الإقليم الياباني.

- الإقليم العربي.

- الإقليم الإفريقي.

- الإقليم الأنتاركتيكي (ترفيهي).

على أن يكون كل إقليم دالًّا على ثقافته، وذلك عن طريق الآتي:

- يجب أن يكون العاملون في كل إقليم من أبناء ذلك الإقليم حقيقة لا مجازًا، ويرتدون الزي الشعبي له، ويتحدثون لغته بجوار الإنجليزية.

- فضائية مُتخصصة تُبث على أقمار العالم تنقل فعاليات «مدينة العالم» أو «أرض المعرفة»، وتتابع أخبارها.

- إقامة متحف يضم نماذج لأبرز آثار ذلك الإقليم.

- وجود مكتبة في كل إقليم تحوي عددًا من كُتبه قديمًا وحديثًا، مُتوفرة بلغتها الأصلية وبالإنجليزية والعربية.

- وجود مسرح تقام عليه فنون كل إقليم؛ كالرقصات الشعبية وحفلات الموسيقى الوطنية، واستضافة الفرق العالمية؛ لتغني أو ترقص على إقليمها، كفريق «البولشوي» من الإقليم الروسي مثلًا، وفرق الدبكة من بلاد الشام، كما تُقام عليه فعاليات ثقافية مختلفة، كإقامة الندوات وعمل المؤتمرات وكل الأنشطة الثقافية الأخرى.

- مطعم يقدم الأكلات الشعبية لكل إقليم، ويمكن عمل مسابقات في التذوق لأفضل إقليم، على أن يكون فريق العمل من أبناء الإقليم.

- استخدام التكنولوجيا الحديثة لجعل مُناخ كل نموذج لإقليم يُماثل تقريبًا مُناخه في الحقيقة، مع وضع بعض الاحتياطات والإرشادات الصحية للراغب في الانتقال من إقليم إلى إقليم مختلف عنه في المُناخ.

- على أن تكون أهداف المشروع كالتالي:

١- **هدف ثقافي:** وهو الهدف الأساسي، حيث يستطيع المشروع أن يُحقق حلم الجمع بين الثقافات والاحتفاء بكل الحضارات في وقت واحد، وفي مكان واحد، على أن تظل «أرض المعرفة» منارة دائمة الإشعاع على مدار العام، ففضلًا عن إتاحة الفرصة لتعرف الزائر على العالم بشكل شامل خلال عدة ساعات فقط، فهناك أيضًا تعارف وتلاقي وتلاقح للثقافات بعضها.

٢- **هدف اقتصادي:** المشروع يُمكن استغلاله تجاريًا، لأنه سيكون مزارًا يؤمه الناس من كل حدب وصوب، لذلك فهو مشروع سياحي في وجه من وجوهه، ويُمكن استخدام كل وسائل الدعم والجذب السياحي معه.

٣- **هدف سياسي:** يُمكن تلخيص الهدف السياسي في جملة «ما فرقته السياسة تُجمعه الثقافة»، فهذا نموذج من العالم تسود فيه الثقافة وتتعانق فيه الحضارات، ويجلس فيه أبناء الشعوب المُختلفة لطرح حلول لمشكلات حقيقية بين بلادهم، حيث إدارة أفضل للعالم في هذا النموذج المُصغر الذي يحمل العالم دون أن يحمل مشاكله وصراعاته.

٤- **هدف اجتماعي:** يُعد المشروع مُضادًّا لفكرة العولمة التي ترى العالم قرية صغيرة، ولكن بمفاهيم إمبريالية استعمارية رأسمالية، حيث

العولمة تُروِّج بشكل ما لسيادة نموذج واحد وهو النموذج الغربي، بينما مشروعنا يحتفي بكل الثقافات، ويحترم ويُبرز كل الحضارات، مما يُعلي من قيمة التنوع البشري الخلاق.

٥- **هدف ريادي:** بتنفيذ المشروع تعتبر «الدولة المُنفذة» ملتقى لحضارات وثقافات العالم، وصاحبة مشروع ثقافي كوني تتلاقى فيه كل النماذج البشرية، لذا يُمكن اعتبار ذلك النموذج هو الأول والأبرز الداعي للسلام والوئام والإخاء البشري رافعًا لواء الثقافة والمعرفة، وبعيدًا عن السياسة وتعقيداتها وصراعاتها.

التنفيذ

بعد اختيار قطعة الأرض المُناسبة، والتي لا بد أن تكون مُتصلة بالماء يتم تخطيطها لتأخذ شكل العالم، على أن يكون مدخلها هو موقع الدولة المُنفذة للمشروع ومن خلال موقع الدولة يتم الولوج إلى باقي دول وأقاليم العالم، ويتم اختيار عدة دول تُمثل كُل إقليم، والتنسيق مع سفارات هذه الدول لجعل مكان كُل دولة نموذجًا مُصغرًا لهذه الدولة، ويحمل الأبعاد الحضارية والثقافية لها.

(مصر نموذجًا)

تخطيط مساحة لا تقل عن كيلومتر مُربع تأخذ الشكل الجغرافي لمصر، حيث في الشمال البحر المتوسط، وفي الشرق البحر الأحمر، ومجرى مائي صغير يُمثل نهر النيل، وموقع إدارة نموذج مصر يكون مبنى مكان العاصمة القاهرة، وبه المركز الثقافي والمسرح والمتحف وقاعة الندوات،

وفي الأماكن التي توجد بها آثار يتم عمل «ماكيتات» صورة طبق الأصل، ولكنها صغيرة الحجم، مثل «الأهرام في الجيزة - معبد أبو سمبل في الجنوب - دير سانت كاترين في سيناء - واحة سيوة في الصحراء الغربية... إلخ.

مُضاف لذلك كُل مظاهر الحياة الطبيعية للشعب المصري، حيث نماذج حقيقية لبيوت الفلاحين على طول مجرى النيل (الوادي - الدلتا)، وبها أشخاص يرتدون الزي التقليدي للفلاح المصري، وأفران خبز حقيقية، وحظائر للطيور، ونماذج للأطعمة الكلاسيكية للفلاح المصري؛ كالفطير البلدي، والجُبن القديم، أو العسل الأسود، والعيش البتاو.

وأيضًا بالمُدن نماذج كلاسيكية للطعام المصري الخالص كالكُشري والطعمية والحواوشي، وغير ذلك من الأطعمة المُنتشرة في ربوع مصر.

على أن تكون الأجواء كُلها مُعبرة عن روح وطبيعة وثقافة هذا البلد أو ذاك.. كالموسيقي.. مثلًا «أم كُلثوم» (في الحالة المصرية)، أو انتشار رائحة التوابل (في الحالة الهندية)، أو أغاني الصحراء (في الحالة الليبية)، وأغاني البحر ومظاهر صيد اللؤلؤ (في الحالة البحرينية).

- ويمكن أن يتم تنفيذ المشروع على عدة مراحل:

- مرحلة التخطيط والتقسيم والانتهاء من رسم العالم فوق الأرض بشكل كامل، حيث وضع الكيان الجُغرافي الطبيعي كمرحلة أولى.

- ثُم اختيار دولة واحدة من كُل إقليم لبدء تنفيذ الفكرة، مع الوضع في الاعتبار جاهزية باقي المساحات للعمل فوقها في المراحل التالية.

- بعد القيام بتخطيط الدول المُختارة الإعلان عن إطلاق وتدشين المشروع في مرحلته الابتدائية.

على أن تكون غاياته هي:

- السلام العالمي.

- المحبة ونبذ العنصرية.

- وحدة العالم من خلال تنوعه لا من خلال جعله نموذجًا واحدًا كـ«العولمة»، وإبراز التنوع والاختلاف الثقافي والحضاري بين البلاد.

- السياحة الثقافية والمعرفية في العالم.

- معرفة الآخر، والاقتراب منه ومن حضارته وثقافته وعاداته وتقاليده.

ومن الأهداف المرجوة أيضًا: إقامة مجلس مُصغر يُمكن أن يُطلق عليه (مجلس الأم الكبيرة) مُكون من مندوبين عن الدول يتم اختيارهم وفقًا للمعايير الدبلوماسية تكون مُهمته إفشاء المحبة ودعم ثقافة السلام، وذلك من خلال تقريب وجهات النظر خلال لقاءات تجمعهم بشكل دوري.

قد تكون الفكرة مثالية وصعبة التنفيذ، وقد تكون طموحًا أفلاطونيًّا للمدينة الفاضلة التي لن تتحقق، ولكن لِمَ لا نَحلُم ونُخطط لحلمنا، رُبما يأتي اليوم الذي يستطيع فيه أحدهم إقامة المشروع، وإن لم يأتِ فكفانا الحلم ونِعم المُريح.

وظلت الخرائط رفيقة دربي الأثيرة لا يُنازعها مُنازع مهما بلغت قوته وسطوته، حتى جاءت الفلسفة؛ لتُشاركها المحبة، بل وتتفوق عليها، وتستحوذ على المساحة الأكبر من عقلي وقلبي، هكذا هو الرجل.. لا أمان له على الإطلاق! فبعد أن منحتني الخرائط نفسها أعبث فيها كيفما أشاء، وأخرجها عن وقارها تارة وأُزيفها تارة أخرى حسب رغباتي، جئت لها بشريك استحوذ على البقية الباقية من الجزء الصالح للتفكير في عقلي وهي الفلسفة.. ولكن لأن الله لا يُحب الظلم فقد جعل للخرائط سطوةً لا تنتهي ولا تفنى، فكانت المُحرك الرئيسي الذي يُحرك المعرفة الفلسفية.. فحينما يُذكر فلاسفة اليونان، يأخذ الفلاسفة حيزًا من التفكير مُساويًا لحيز التفكير الذي تأخذه خريطة اليونان أرض هؤلاء الفلاسفة، وحينما تُذكر الفلسفة الفرنسية تقفز خريطة فرنسا في ذهني بتفاصيلها كاملة.. وحينما يُذكر «ابن سينا» و«الفارابي» و«الطوسي» ينجرُّ عقلي انجرارًا إلى بلاد فارس وما وراء النهر، وعند ذكر «ابن عربي» و«ابن حزم» أذهب مُباشرة إلى إسبانيا والبرتغال (الأندلس)... هكذا. وجدت الحبيبة القديمة لنفسها مكانًا أثيرًا حفظ لها مكانتها، وحال دون إهمالها أو الابتعاد عنها.

أول قفا ثقافي

سمعت كثيرًا عن سور الأزبكية، فهُو مكان يبيع الكُتب القديمة، بأسعار مُخفضة يَسهُل على فَقري زي حالاتي شِراؤها، عَقَدت النية على زيارة هذا المكان بعد تدبير تحويشة مُعتبرة، عن طريق القَرطمة من المصروف شِبه اليومي، بالإضافة لشَفط بواقي الفلوس مِن طلبات البيت، باعتبارها أتعاب المَشْوَرة وبَهدلة الطريق، حتى تَمَكَّنت مِن جمع خمسة عَشر جُنيهًا كاملةً، وظلت أحلام شراء الكُتب تُراودني طيلة الليلة التي سَبَقَت الذِهاب، أتخيل طريق العودة، وأنا أحمل كمًّا وافرًا مِن القصص ومَجلات السيارات التي أعشقها، وكُنت قَد تعرفت حينها على كتابات «محمود تيمور» و«توفيق الحكيم» و«إحسان عبد القدوس» و«يوسف السباعي»، ونويت أن أشتري كُل مَا أُتيح مِن كُتبهم المُمتعة، وكانت الرِحلة بالأتوبيس الذي يَمُرُّ على القاهرة كُلها تقريبًا طويلة ومُزعجة، وأنا أيضًا في سن السابعة عشرة لم أكُن مُعتادًا على ركوب المُواصلات، فالمدرسة قريبة مِن البيت ولا مشاوير لي بعد ذلك خارج نِطاق حينا، نِمت في الأتوبيس وأيقَظَني الكُمساري بِغلظة مُعلنًا عن نهاية الخط وعن ضيقه بهذه البلاوي التي لا يعرف جايبينها مِنين، وباعتبار أنني المقصود بالبلاوي التي لا يعرف جايبينها منين، قُمت مُسرعًا مُتسربعًا، ونزلت مِن أُتوبيس والدة السيد كُمساري، وأنا أُكيل له بعض الشتائم في جَوفي.

سألت عن المكان، فدلَّني أهل الخير، دَخلت كالمسحُور أتلفَّت حولي، خَشيت في البداية الوقوف أمام أي بائع، فقد كُنت أعتقد أن مُجرد الوقوف يعني

بالضَرورة الشِّراء، فوقفت بعيدًا أتلصَّص على العناوين، والتي كان أغلبها لأشخاص لا أعرفهُم ولَم تَمُرَّ أسماؤهم على عيني أو أُذني من قبل، باغتني بائع مُسِنٌّ بحركة لا يقوم بها إلا الأصدقاء، فوجدته يضع يده فوق كتفي وهُو يقول:

- تعالَ يا هَندزة عاوز إيه؟

فوجدتني مُنساقًا مع الرجُل رُبما حرجًا، حتى وجدتني أمام كُشكه، فوضع لي كُرسيًّا وطلب مِني الجلوس، وأخذ يحكي لي عَن ظروفه الصَّعبة وعن غدر الزمان ونذالة الخِلان ومشاكل الجيران، وقد ذَكَّرَني بالشحاذين السُّمجاء الذين يُصرون على تسويد عيشتك، وإظلام الكون مِن حولك مِن أجل بريزة، شَعرت حينها أنني واقعٌ في فَخٍّ، وكان عَلَيَّ الخَلعان الفوري، وكأن الرجُل قَد فَطِن لمرادي، وقرأ ما يدور في عقلي، فوجدته يُباغتني همسًا في أُذني بعدما انحنى بصعوبة مُمسكًا ظهره وقال:

- عندي حاجات حلوة.

ولم أفهم حينها ما هي الحاجات الحلوة التي يقصدها الرجُل المُسن، فارتبكتُ ولم أرد، فابتسم ابتسامة لاحت فيها أسنانه المُتآكلة، وضحك ضحكة شريرة مُتقطعة وقال مازحًا:

- إحنا شباب زي بعض يا عَمي، وأنا عارف إنت عاوز إيه.. عندي حتة إيطالي بتلاتين جنيه، بكيسها ماتلمستش.

وفي الحقيقة أنا لم أكُن أدَّعِي الغباء، ولكن بالفعل لم أكُن أفهَم حينها مَقصِده، وتوصلت قُرون استشعار الرجُل لجهلي، أو رُبما اعتقد أنني أتصنع الجَهل، فوجدته يشرح مُوضحًا ومُبَسِطًا:

- مجلة سيكو سيكو يا عَم.. ما تفهم بقى.

وهُنا احمرَّ وجهي وجَفَّ ريقي، وارتبكت الكلمات في حلقي، وانتفَضتُ واقفًا، واتخذت قرارًا بالهروب، فاستخدَم الرجُل آخر أسلحته لإغواء الشاب الغرِّ المسكين المُمتلئ بالرغبة والخَجَل مَعًا، فأخرج لي طرف المَجَلة مِن عِبِّه ليُظهر قدمًا أُنثوية طويلة وعارية إلى ما فوق الفَخذ بقليل، ثُم دَسَّها ثانيةً في عِبِّه، وقال:

- ها.. إيه رأيك؟

فأحنيت وَجهي في الأرض، وقُمت مُسرعًا دُون أن أمنحه فُرصة لأية مُساومات أخرى، تركت الرجُل ومشيت في خَطٍ مُستَقِيم على غَير وِجهة دُون أن أنظُر خلفي أو أهتم ببرطمات الرجُل الذي لم أستطع تمييز إن كان يشتم أم يَقترح مُساومة جديدة، وَقفت أمام مكتبة أخرى في مكان قَصيٍّ؛ حتى لا يراني الرجُل، وَقَفت أنظُر إلى عَنَاوين الكتب دُون أي تركيز، وادَّعَيت الاهتمام بالكُتب التي أمامي، وحاولت أن تُظهر حركات جسدي ذلك، فأمسِك مثلًا بكتاب لا أعرف عَنهُ أي شيء، وأرفع حاجبيَّ إعجابًا، وأهُز رأسي أعلى وأسفل، وكأنني شَخص وَجد ما يبحث عنه منذ مُدة، أو أمُطُّ شفتيَّ إلى الأمام مقطبًا ما بين حاجبيَّ وكأنني مُمتَعِض مِن عُنوان الكتاب، ومِثل هَذه

الحَركات القرعة، والتي فيما يبدو أن صاحب المَكتبة يَعرفها جَيدًا، فأخذ ينظُر لي نَظرة زوجة الأب ويسألني:

- طلباتك يا أستاذ؟

وفي الحقيقة لم يكُن لي طلبات، بل لم أكُن أُفكر في الكُتب التي أمامي، كُنت مَشغُول بتخيُّل باقي الصورة على غُلاف المجلة المُحَرَّمة، هل بالفِعل يُمكن لامرأة أن تَتَصَوّر عارية؟ هَل بالفِعل يُمكن أن أَرى ما لم أره طول حياتي؟ هَل مِن المُمكن أن أَدخُل هذا العالم السِّحري والسِّري مِن بوابة هَذا الرجُل صاحب الأسنان السوداء المُشوهة؟ أفقت على تِكرار سؤال الرجُل:

- طلباتك يا كابتن؟

فأجبته مُتأكدًا مِن عَدَم وجُود طَلَبي:

- باسأل على كُتب دراسة.

أفشل الشيخ مُكَسر الأسنان مُتعة البحث عَن الكُتب، وأفسدَ كُل مُخططاتي وأحلامي التي سبقت المجيء إلى هُنا، فقد جئت وأنا مُمتلئ بالشَغف المعرفي، فَحَوَّلَ وِجهَتي إلى شَغَفٍ مِن نُوع آخر لم أكُن أتَوَقعه أو أضعه في حساباتي، شَغَفٌ مُرهِق مُرَاهق يَحمَرُ له الوجه وتَهيج المِشاعر وأشياء أُخرى.

انتهى يومي المَغدُور دُون أن أشترى أي شيء، دُون أن أُحَقق أي حلم، ركَبت أُتوبيس العَودة، وكان للصُّدفة نَفس الأُتوبيس بنفس الكُمساري الذي ما أن رآني حتى ضَحِكَ مِلء شِدقيه وقال:

- أهلًا يابو النوم.. هيهاع هاع هاع.

وكأنه جاء ليُفسد باقي اليوم الذي فسدت بداياته وباظت ترتيباته، التزمتُ الصمت ودفعتُ ثَمَن التَذكرة، وانزويت في رُكن بالمِقعد الخلفي الواسع، وأرجَعت رأسي للوراء، ولكن كُنت حريصًا على ألا أُغمض عيني حتى لا أُعطي فُرصة للكُمساري الأحمق للعودة للسُخرية مِني، ورَغم فَنجَلَة عيني إلا أنني كُنت في عَالم الغواية الرخيص الذي أَدخَلَنيه ذلك البائع المشئوم، فقد ذَهَبتُ بحُلم وعُدت بهَمٍّ، وحينما وَصَلت البيت حاولت كثيرًا أن أطرد ذلك اليوم كُله مِن رأسي، وكَحِيلة دفاعية ضِد هجُوم هَذا الجَيَشَان المُستيقظ لرغبات المُراهقة، استجمعتُ كُل مشاعر الامتعاض لَديَّ ووجَّهتها مُباشرةً إلى وَجه ذَلك الرجُل المُستقر في تلافيف عقلي، ولكن استحضار المشاعر السيئة ضد الرجُل لم يُؤتِ بثِمار ناجحة، فقد كانت سَطوة الرِجْل البشرية أكثر حضورًا وفاعلية.

وبَعد عِدة أيام جاءني شيطاني وجلس مَعي، ونَهَرَني على ضَعفي وقِلة حيلتي، وأوعَزَ لي بأمر ما أستطيع مِن خِلاله أن أُثبت لنَفسي أولًا أنني لست ضعيفًا، ولا عَبد شَهواتي، فأنا قَوي.. أنا مَتين، وهو العودة مرة أُخرى إلى موقع الجريمة.

وبعدما أنهَى الشيطان الرَجيم طلعته تركني في حيرة مِن أمري، فهَل أعود مرة ثانية إلى هذا المكان؟ ماذا لو التقت عيناي بعيني المُسن الأثرم؟ وبعد تَفكيرٍ عَميق قررت أن أطعن الشيطان في أعز ما يملك وهي قُدرته على الوسوسة، وعَزَمت النية على ألا أعُود إلى هَذا المكان مرة ثانية.

ولأن الشيطان لا يستسلم بسهُولة، فقد عاود الكَرَّةَ مَرة ثانية، وسألني: ماذا عَن كُل هذه الكُتب ذات الأغلفة الجميلة، هل تتركُها دُون حتى إمتاع العين بجمالها؟ لماذا يا عزيزي الإنسان تربط بين سور الأزبكية العظيم، وبين بائع مُسن واحد لا يُمثل إلا نفسه؟ ففيهم بالتأكيد شرفاء لا يبيعون تلك الوساخات.

والشهادة لله فقد أقنعني ذلك الشيطان المُجتهد، وكان نتيجة ذلك أنني استيقَظتُ في الصباح، وارتديت ملابسي، ونزلت من بيتي، وركبت الأتوبيس مُتوجهًا إلى مَسرح الجريمة مَرة ثانية، وكانت نيتي المُعلنة أمام نَفسي وأمام مُكوناتي الأخلاقية هي الذهاب لشراء الكُتب والغَوص في نَعيم تفاصيلها، ولكن نيتي غير المُعلنة أمام نَفسي، ولكنها واضحة جَلية أمام مُكوناتي اللاأخلاقية كانت المرور على ذلك الرجُل مَرة ثانية، عَلَّهُ يُساومني بشيء أكثر كَشفًا هذه المَرة، وبالفعل كان وجهتي الأولى، ولكني فوجئت بعدم وجوده في المكان، وكان الواقف بدلًا مِنه شابًا يكبرني بِعدة سنوات يبدو مِن ملامحه ومِن هيئة أسنانه أنه يَمُت للرجُل بِصَلَة، لم أتضايق لأن ذلك بالتأكيد سيُسَهِّل مُهمتي، باعتباري زبونًا جَديدًا يجب مُساومته وإغراؤه من جديد، فَرَسَمت على وجهي علامات الجِدية والصياعة، وجاهدت لإخفاء خيابات الخَجل والدَهولة؛ حتى لا يستهيفني، ودخلت عليه ببعض المُفردات التي لا أُجيد قولها، ولا تليق بوجهي المكلبظ، من نوعية «صباح الخير يا برنس.. إيه الأخبار يابو الكباتن.. الدنيا إيه النهارده»، ولكن لأن الصياعة فنٌّ لا يُجيده المُحْدَثُون أمثالي، فقد فقسني البائع مُنذ فَتحت فمي بالكلام، فَنَظَرَ لي شَذرًا ولم يرد أو يقوم بأي رد فعل، فابتلعتُ الإهانة صاغرًا، ووقفت أنظُر إلى الكُتب

الأجنبية وإلى المجلات المُلونة التي لا يبيع غيرها، وحينما مَدَدت يدي على إحدى المَجلات، انتزعها مِن يدي وقال في غضب:

- ما تقول يا عم عاوز إيه وتنجز.

فاستجمعتُ بعض شجاعتي وقلت له إنني أُريد الحاج الذي كان موجودًا هُنا مِن عِدَة أيام، فحدجني بنصف عين وقال:

- «آاااااااااه»

وعِند هَذه الآه أيقنتُ أنه فَهِم كُل شيء، وعَرفَ مُرادي الذي فَشلت أن أُداريه، فسألني عما مَعي مِن أموال، فقُلت خمسة عشر جُنيهًا، فضَحِكَ ضحكة بانت مِن خلالها لوزتاه وقال:

- تعالَ ورايا.

ثُم قال لأحد جيرانه:

- خَلي بالك عشان معايا زبون.

وهُنا ضحك الرجُل، وضَحك الجار، فاضطُررت أنا أيضًا للضَحك دون أن أدري وقتها أن كلمة زبون لها دلالة استهفائية مُعينة، وذَهَبتُ خَلف الرجُل الذي دَخَلَ شوارع وحواري وأماكن غريبة الشَّكل والرائحة، ثَم صَعَدَ منزلًا مُتهالكًا، طالبًا مِني الانتظار، فوقفتُ أسفل البيت قُرابة نصف ساعة حتى نَزل وهُو يبتسم ابتسامة الأخ الأكبر الحَنُون، ويُعطيني شيئًا ما مبرومًا وملفوفًا في ورق جَرائِد، وقبل أن يُعطيني إياه أخذ يَتَلَفَّت حوله بطريقة سينمائية رديئة،

وكأنه يَخْشَى أن يرانا أحد، ثم أقسم بأغلظ الأيمان والأيسار أنه يشتري زبونًا، لذلك أعطاني المَجَلة بنصف ثمنها، حتى أصير زبونه المُستديم، وما أن لمست اللَّفة حتى سَرت قشعريرة مُبهجة في جَسَدي، وقبل أن أنطق بكلمة، شَدَّ الرجُل على يدي بقوة وطلب مِني ألا أُحاول فَتح هَذه اللفافة إلا وأنا في البيت، حيث إنها تُهمة ومُصيبة ولا يَجب أن يراها أحد في يدي، هززتُ رأسي موافقًا؛ لأنني لا أستطيع الكلام؛ بسبب جَفَاف حَلقي، وقَبَضتُ على المُصيبة التي بَلَيت بِهَا نَفسي، وهَرولت مُسرعًا كَلِصٍّ يَهرب بسريقته، شَعرت حينها بسخونة انتقلت من أطرافي إلى سَائر جَسَدي حتى وصلتُ إلى مرحلة ما قبل الانتفاض، جلستُ ألتَقط أنفاسي فوق أقرب رصيف بعد أن خبَّأت المُصيبة في عِبي، لاحظت برودة وجهي رغم الصَّهد الخارج مِنه، شَعرت برغبة في التقيؤ، وبالفعل أفرغت كُل ما في جَوفي، فتجمَّع بعض المارة حولي وأعطاني أحدهُم زُجاجة ماء كي أغسل وجهي، فكُنت أبلل يدي وأُمررها فوق وجهي حتى لا تبتلَّ الخَبيئة، شكرتُهم وأكملت المسير بعد أن اشتريت عِدة أكياس سوداء، وأدخلتُهم في بعضهم البعض، ووضَعت البَلوى بداخلهم.

فشل هواء شباك الأتوبيس في تهدئة سخُونة جسدي، كما فشلت أصوات الدوشة مِن حولي في جذب انتباهي، وتنازعني إحساسان أقل ما يُقال عنهُما إنهما مُزعجان ومُؤرقان، الأول إحساسي العنيف بالذنب، والإساءة لنفسي وأهلي ولأخلاقي وتربيتي وتَدَيُّني، والثاني الرغبة العارمة في فضِّ اللُّفافة واكتشاف آبار النشوة والعالم السِّري للمُحرم والممنُوع، حاولتُ أن أطرُد هواجس الذنب، وإقناع نفسي بأنها المرة الأولى وستكون الأخيرة، كما حاولت أن أطرد هواجس النشوة؛ حتى لا يفتضح أمرى أمام عامة الناس، وأخذت أُفكر في الوسيلة التي سأُخفي بها هذه التُّهمة، فأنا ما زلت فسلًا

مُراهقًا، وليس لي حُجرة مُنفردة، خاصةً وأن بيتنا صغير لا تستطيع إخفاء إبرة خياطة فيه، فما بالك بفضيحة الفضائح تلك، وبعد ما غلب حماري مِن التَفكير، اتخَذت قرارًا بإخفائها في حقيبة الدراسة التي لا يُفَتش فيها مخلوق، فقد كان بها جيب سحري عميق يُمكنك أن تُخبّئ فيه مُجلدًا كبيرًا، وليس مَجلة هزيلة.

نَزَلت مِن الأتوبيس، وتوجهت إلى البيت، وأثناء صعودي السُّلم وبعدما تأكدت من عدم وجود أي شخص صاعد أو هابط، أخرجتُ اللُفافة وأخذتُ أُقشر أوراق الجرائد من عليها، وحينها تَعَرَّقت بشِدة، وزادت ضربات قلبي؛ إيذانًا باكتشاف المجهول، وكانت المُفاجأة الكُبرى.

لُفافة الجرائد كان بها نصف كتاب اللغة العربية للصف الأول الإعدادي، ومن هَول الصدمة وقوة المفاجأة أخذت أُقَلِّب في الكتاب عَلَّني أجد فيه صُورة مخفية هُنا أو هُناك، ولكن للأسف مات الأمل، وبانت الحقيقة، وهُنا فقط فَطِنت لمعنى جُملة: «معايا زبون»، وهُنا فقط أيقنت أنني كُنت كُروديا مَضحُوكٌ عليه، وفَطنت إلى فطنة الرجُل الخبير باستحالة عَودتي إليه مرة ثانية أومُعاتبته في المقلب المُكْن الذي أكَلَنِي إياه، وكان ذلك أول قفا أتلقاه في عالم الثقافة.

فابتسمتُ ثم ضحكتُ وعلت ضحكتي رُبما على خيبتي الثقيلة، ورُبما لسَعادة داخلية لستر ربنا بعدم التورط في مُشكلة كهذه، وطَوَّحت الكِتاب في المَنور ورننتُ الجرس، ففتحت لي أُمي، وقابلتني بابتسامتها المعهودة وهي تقول:

- حمد الله ع السلامة، وكأن قلبها قد أحس بنجاتي من ورطة الرغبة الرخيصة التي كُنت سأُوقع نفسي فيها.

حكاية «الفؤش لِيفة»

ومكتبته العامرة وأُمه طيبة القلب

كان لي زميلٌ عجيب، مِن هيئة المجاذيب قَريب، كان اسمه «فؤش» وكُنيته «ليفة»، مُنتفخ كطاووس، فَحلٌ مثل جاموس، يعرف الإجابة عن جميع الأسئلة التي تُطرح عليه، لم نسمعه أبدًا يقول: لا أعلم، ولكنه كان دائم الفُتيا في كُل أحوال الحياة، من أول اليوجلينا والبراميسيوم، وحتى الغُبار الكوني والثقوب السوداء، التقيناه في الصف الثاني الإعدادي، جاء مُحوَّلًا فيما يبدو مِن مدرسة بكوكب المريخ، فثقافته ليست مِن أرضنا، وهيئته ليست كهيئة بني جلدتنا، كان له رأسٌ مُفُلطح محلوق دائمًا على الطريقة الميري، كان جسيمًا لحيمًا طويلًا عريضًا، له لحمية خانقة في أنفه تجعل المُستمع إليه يُصاب بالاختناق تعاطُفًا مع مُحاولاته العَثِرَة في الحَديث، يُجيد الحديث بالإنجليزية المشخلعة، فينطقها كالأجانب الذين رأيناهُم ذات مرة أثناء رحلتنا المَدرسية إلى الأهرامات، حيث كُنا نُهرول خلفهم ونسألهُم:

?What time is it now -

حتى نسمعهم وهُم يُجيبون، وبذلك نكون قد حظَينا بمُحادثة شخص أجنبي وبلُغَته أيضًا.

مدرستنا كانت تقع أمام منطقة مزارع كلها أشجار نُسميها «بين الجناين»، وكانت أشبه بالغابة المهجورة مُخيفة وقابضة، وكُنا جميعًا نتجنب المشي

بداخلها إلا «الفُؤش» الشُجَاع الذي نراه كُل يومٍ في الصباح يخرج من بين «بين الجناين» وهو مُندهش لخوفنا مِن الـ Between the gardens فهي مكان Very beautiful -على حد قوله- ولم يكُن يتورع عن وصف نَفسه بالـ Genius وفي الحقيقة هو كان يستحقها، وكله كوم والأسماء الغريبة التي ينطقها كوم آخر، فمرة يقول لنا إنه يُحب شِعر شخص اسمه «المُتنبي»، ومرة أُخرى يقول إن كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لشخص اسمه «أبو حيان التوحيدي» من أفضل الكُتب التي قرأها، وثالثة يُفاخر بأنه قرأ «الأجرومية» و«شرح الألفية» والكثير من الكلمات التي تنتهي بـ«يّة»، وطبعًا كُنا نحن نؤدي دور البلاليص حينما نسمع هذه الأسماء العجيبة، ولكن كُنا بلاليص مُعجبة ومُنبهرة، وفي نفس الوقت حاقدة ومُتربصة، فقليل مِن التواضع لم يكُن ليضرَّه، حيث أفقدته نرجسيته وغروره كل علاقات الصداقة المُحتملة ما عدا أنا، فقد كان نموذجًا مُبهرًا بالنسبة لي، كُنت أُتابعه عَن كثب، وأنا أُحاول أن أنهل من ثقته المُفرطة في نفسه، والتي أفتقد لثُمُنها أو حتى عُشرها، لدرجة أنني حاولت تَقليد مِشيته ونظراته المبربشة، بل أحيانًا كُنت أضبط نَفسي مُخنَقًّا أثناء الحديث، فيبدو أن التأثر الشديد به جعلني أظُن أن مُميزاته تكمُن في أفعاله وحركاته، وأذكر ذات يوم أنني اتخذت قرارًا هو الأسوأ في ذلك العام، وهو أن أقصَّ شَعري نمرة واحد كما يفعل العبقري، فرُبما الشَّعر هو ما يُطلمس على عقلي، ولا يجعلني أستطيع تَحصيل الدراسة المطلوبة، ولمن لا يَعرف فإن الشَعر بالنسبة لي شيء عزيز للغاية، لا أُفرط فيه بسهولة هكذا، فقد كان قرارًا صعبًا ومُؤلمًا، ولكن كله يهون مِن أجل العبقرية، وذهبت يومها إلى الحلاق الخصوصي للعائلة، وطلبت منه قصة ميري، فازبهلَّ الرجُل وبَرَّقَ بعينيه اندهاشًا وتكذيبًا، فهذا التحول لا بُد أن يكون سببه جنونًا أصابني، فهو يعلم

يقينًا ما لشعري من أهمية قُصوى، ولكن تحت الضغط التهديد اضطُر الرجُل لسماع الكلام، وقام بقصِّ شعري قَصَّة العريس على حَد قوله، وحينما ارتديت نظارتي، ونظرت في المرآة المكسورة أمامي شعرت بالأسى والرثاء لهذا المنظر العِرَّة الذي أراه أمامي، ونَظَرت في الأرض، حيث شعري المغدور، وتمنيت لو أن هناك أي وسيلة لإعادته مرة ثانية فوق رأسي، ولكن كان الأوان قد فات، والشَّعر قد مات، وكان ذلك اليوم هو يوم التريقة العالمي، ولكن كله يهون مِن أجل العبقرية المُرتجاة، والعجيب في الأمر هُو شعُوري بالفعل بأنني أصبحت أكثر تركيزًا وانتباهًا، بل اكثر ذكاءً، واكتشفت حينها أن الشَّعر يتناسب عكسيًّا مع الذكاء، كُلما زادت مساحة أحدهما قلت مساحة الآخر بالضرورة!! وظلت هذه الفكرة المُتخلفة مُسيطرةً على عقلي لفترة طويلة، حتى جاءت نتيجة امتحان آخر العام، وكُنت ضمن الطلبة الأوائل كالعام الماضي، ويقيني أن زميلنا ذا الرأس الكبير هو الأول على المدرسة بلا مُنازِع، بل رُبما يكون الأول على الجمهورية كُلها، ولكن الـ Genius كان ساقطًا في أربع مواد، ومن ضمنها اللغة الإنجليزية، فصُدمنا جميعًا فيه صدمة رجُلٍ واحد، وأخرجنا كُل ما في نُفوسنا مِن حقدٍ وغلٍّ تِجاه تفوقه المزعوم، ولكن في هيئة تُناسب الموقف، فقد حوَّلناه لشتائم قبيحة تَقدَح في الأنساب والأعراض، ولكن في سِرِّنا طبعًا، فقد كان الولد كمصارعي الثيران لا تستطيع أن تشتمه إلا في سِرِّك، ولكن رغم هزيمته المُخزية ظَلَّ بداخلنا -أو بداخلي أنا على الأقل- تقدير غير مُبَرَر له، رُبما هو إعجاب البدايات الذي يدوم كما يقول المثل الفرنسي، رُبما هو تأثير الوهم الذي يظل حتى بعد اكتشاف الحقيقة، المُهم أنني تَرَكت الباب مُواربًا في علاقتي به.

وفي العام التالي كان العيال قَد أطلقوا عليه لَقَب «ليفة» سُخريةً وتَنَدُّرًا؛ لأنهم اكتشفوا أنه مُنتفخ على فراغ، وريش على مفيش، وأن معرفته معرفة صابونية ليست إلا فقاقيع لا وَزن لها، وكان ذلك بالطبع فيما بينهم، فلم يجرؤ أحدهُم أن يناديه بهذا الاسم المُهَزَّأ، وذات يوم أثناء الفُسحة ناداني الزميل «ليفة»، وطلب مِني الجلوس بجواره؛ ليُفَضفض معي قليلًا، ومن ذا الذي يرفض لك طلبًا يا سِيد المعلمين، جَلَست بجواره فوق تَختة مخلعة على هامش الحُوش، فوجدته مُطأطئ الرأس حزينًا، وهي المرة الأولى تقريبًا التي أرى فيها قفاه العامر؛ لأنها المرة الأولى التي يُخفض فيها رأسه الكبير المُتَكَبر، وبدأ حديثه بديباجة المُستَلِفين:

- إنت عارف إنك أعز أصحابي، وإني مش برتاح لحد غيرك، وبلا بلا بلا بلا...

ثُم حَكَى لي عن ظروفه الصعبة بعد وفاة والده المُسِن وأُمه المريضة نَفسيًّا، وبيته المُفكك، حيث إخوته مِن أبيه الذين يكبرونه في السِن بنحو ثلاثين عامًا، وكُل واحد فيهم مشغولٌ بهمِّه وأُسرته، فهو لا يذكُر آخر مرة رأى فيها أحدهُم، لدرجة أنه قد نَسِي أشكالهم، وفي الحقيقة لا أعرف لماذا اختصَّني الأخ «ليفة» بالشَكوى والبوح؟ وما علاقة ما يحكيه بالفَشل الذي حققه في نهاية العام الماضي؟ فاعتبرت أن الأمر فَضفضة لا معنى لها إلا التنفيس وحَسب، ولكني فوجئت بأن العِملاق الأقرع يبكي بحُرقة لا تُناسب ملامح وجهه، فرقَّ قلبي لحاله، وآزرته في محنته النفسية، والتي لم أكن قد عرفتها بعدُ، واكتشفتُ أن بداخله طفلًا صغيرًا لا يُريد أن يُخرجه؛ حتى لا يستهيفه العيال، فحَكى لي كيف كان أبوه يضربه عاريًا أمام أمه المسكينة التي تَقف لا حَول لها ولا قُوة دُون أن تستطيع الدفاع عنه؛ لأنه طَلب شيئًا ما بطريقة

طفولية مثلًا، أو لأن الأب لمحه ذات مرة وهُو يبكي لأي سَبب، فهُو يُريده رجُلًا يتحَمَّل مسئولية أمه بعد موته، فكان الولد يجتَهد في أن يبدو رجلًا كبيرًا على عَكس طبيعة سِنِّه الأغرِّ، ويَجتَهد أن يُظهر أمام أقرانه أنه مُتميز، بينما هو يُعافر كي يحفظ كلمة مِن هُنا على كلمة مِن هُناك، ومعلومة مِن الشرق على معلومة من الغرب، فضلًا عن عناوين الكُتب في مكتبة أبيه، والتي كان يحفظها عن ظَهر قَلب، ولكنه في الحقيقة مسكين لا يُجيد إلا القَنعرة والنَفخة الكدابة التي غَرسها فيه أبوه المرحوم.

وحينما عَرِفَ صديقي الجديد محبتي للقراءة قال لي إن هُناك مُفاجأة تنتظرني، وإن عليَّ أن أُلبي طلبه في زيارته في يوم ما؛ حتى يُطلعني على المفاجأة الموعودة، وطالما في الأمر كُتب وقراءة فلا بُد أن أشدَّ الرحال إلى بيته، وكانت الزيارة التي لم أنسَها طول عُمري، فقد بدأ اليوم أسود على دماغه ودماغي ودماغ زَمَالتنا المديدة وصداقتنا الوليدة، فقد استقبلتنا أمه بسيل مِن الشتائم شاسعة الاتساع، المألوف مِنها والحداثي، بل وما بعد الحداثي أيضًا، وقفتُ مبهوتًا أنتظر أي تفسير لهذا الاستقبال المُعتَقلاتي الرهيب، ولكني لم أجد أكثر مِن ابتسامة بَلهاء من الصديق المُحتمل، ودعوة للدخول دون أدنى اعتبار للمرأة الثائرة، والتي قَد تَقذفنا بأي شيء قابل للقذف في البيت، فحاولتُ أن أنسحب مَّسرعًا، ولكن «ليفة» أمسك بيدي وطمأنني، فهي كما قال مريضة ومسكينة لا يجب أن نأخُذ لها على كلام، ومَلَّسَ على رأسها مُهدئًا، فأحنت المرأة رأسها، ودخلت إلى حيث كانت، ولكني كُنت قد توترت وعقدت العزم على التراجع، ولكن أثناء اتخاذ ذلك القرار إذ بالمرأة تَخرج مرة ثانية وهي تَربط طرحتها حول رقبتها وتقول بصوتٍ هادئ ودود:

- اتفَضَّل يا ابني أهلًا وسهلًا أهلًا وسَهلًا.

وفي الحقيقة أرعبتني وداعتها أكثر مما أرعبتني شتيمتها العنيفة، فدخلت أُقدِّم رِجلًا وأُؤخر الأُخرى، وحينما جَلَست وجدتها تجلس بجواري، وتَربت على كَتفي بحنوِّ أُم، فاقشَعَر جَسَدي في البداية، ولكن سُرعان ما ألفت وداعتها التي تَمنيت ألا تكون مؤقتة، ورغم الطمأنينة النسبية التي لمست قلبي إلا أنني كُنت أتوقع السيئ والأسوأ بين الفَينة والأُخرى، ولكن الحمد لله ذلك لم يَحدُث، ووجدت المرأة مِضيافة مُرحِّبة مُحتفية، بينما الزميل «ليفة» كان مشغولًا في صُنع الشاي، وحينما عاد وجدها تَحكي عَن ذكريات الماضي، فضحِك وامتدحها كما يمتدح أحدنا الطِّفل الصَغير؛ لقيامه بفعل شيء ما قائلًا لها:

- Good Boy, Good Boy.

وشربنا الشاي وهي ما زالت تَحكي عَن زوجها الذي كان يكبرها بخمسٍ وعشرين سَنة، وكيف أنها رضيت بالعيش مع رجُل سَبَق له الزواج أكثر مِن مرة، وكيف أنه كان يُسيء مُعاملتها ويُهينها ويضربها أمام الجيران، ولم تَكتفِ بالكلام، ولكنها قامت وشَمَّرت عن ساعديها، وبدأت تُمثل الطريقة التي كان يضربها بها، وكأنها تَعجن في ماجور فلاحي، ثُم أشارت بيدها لابنها وقالت:

- خُد يا واد صاحبك وفرَّجه ع المكتبة بتاعة المجحوم، الحاجة الوحيدة العدلة اللي سابها قبل ما يغور.

فَشَدَني زميلي بسرعة، مؤكدًا ضرورة الذهاب مِن أمامها؛ لأنها لو فَتَحت لن تنتهي مِن حكاياتها، فهي ما بتصَدّق تلاقي حد يسمع لها، ودَخَلنا غُرفة كبيرة كُل حوائطها مكسوة بالمُجلدات البُنية والسوداء، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها هذا الكَمَّ مِن الكُتب مرة واحدة، فوقَفت مبهوتًا أمامها، وكأن على رأسي الطَّير، فهل مِن المُمكن أن يمتلك إنسان كُل هذا الكَمِّ مِن الكُتب؟ هل قرأها والده المرحوم كُلها؟ وددتُ لو فَتَحت كُل هذه الكُتب وقرأت ما بها، وددتُ لو منحني زميلي المُثقف وقتًا كافيًا وبشكلٍ يومي للجلوس في حضرة هذا الكيان المَهيب، وحينها سألني:

- ها.. إيه رأيك بقى في المُفاجأة؟

كانت المرة الأولى التي أتعرف فيها على ما يُسَمَّى بكُتب التُّراث، فهي كُتب ليست كالتي نراها في أي مَكان، كُتب ضَخمة ومُجلدة وأوراقها صَفراء، ورائحتها زكية، وأسماء الكُتَّاب ليست كأسمائنا، فهذا اسمه «عمرو بن بحر الجاحظ»، وذاك اسمه «بهاء الدين الإبشيهي»، أما الثالث فاسمه «أبو العلاء المعري»، والآخر اسمه «الحارث بن أسد المُحاسبي»، أما القابع بجوارهم فوق نفس الرفِّ فاسمه «أبو نُواس»، وهذا «عُمر بن أبي ربيعة»، وذاك «البُحتري»، والآخر «أبو تمام»، وعلى يميننا لافتة مكتوب عليها بخط مُنمق «كُتب التاريخ»، وفيها «الجبرتي» و«المقريزي» و«أحمد شفيق باشا»، وشخص اسمه «ساويرس بن المُقفع».... دَوَّنت كُل هذه الأسماء في ورقة صغيرة؛ شَغَفًا دُون أن أعرف ما الذي عليَّ فعله بعد ذلك، وظللتُ أحفظها بعد ذلك، وأُردِّدها جميعًا، فقد كان في الأمر سحر وكأنه المَسُّ، فقد مُسست بأسمائهم

العجيبة ومُجلداتهم المُمتلئة، وحتى كلامهم غير المفهوُم بالنسبة لي في تِلك المرحلة.

تَعَلَّقت بالمكتبة وبكتبها، وصِرت أزور صديقي «الفؤش» كُل يوم تقريبًا، بل صرتُ مألوفًا بالنسبة لأُمِّه الطيبة، والتي كانت تستقبلني بالقُبلات والأحضان وكأنني ابنها الثاني، ومن حُسن الطالع أن «الفؤش» قد سمح لي بالاستعارة بعدما ضَرَبَ حولها سياجًا مِن الحَزم وشَقلة مِن الالتزامات الصارمة، وأذكر أن أول كتاب كُنت قَد استعرته اسمه «رسائل الجاحظ الأدبية»، وكانت صدمتي الكُبرى في الكثير مِن المُفردات المكشوفة جدًّا، والتي نقول عنها اليوم إباحية أو مُفردات خادشة لحياء مُراهقتي البازغة، فحكايات الجواري والعبيد والغلمان ومجالس الشراب كانت تُدَغدغ أوتار الرغبة، وتُقَطِّع نياط القلب، وحينما عُدت بصدمتي إلى صديقي «الفؤش» فوجئت بجهله التام بمُكتشفاتي السِّرِّية، وأخذ مِني الكتاب على عَجَل، وأخذ يتصفحه ويفرُّ فيه بعشوائية، وكأن الجواري سيقفزن في وجهه أو يَطُفن عليه بكؤوس النبيذ، ولكنه أدرك كلمة واحدة أثناء فَرِّه للورق، فَتَنَّحَ أمامها، وأطلق صيحة المُندهش انشكاحًا أو المُنشكح اندهاشًا، وقال: «يا سنة سُوخه»، وأخذ الكتاب ووضعه في حقيبته، ثم سار مَذهُولًا مُتَدَهولًا دُون استئذان أو حتى سلام عليكم.

وحفاظًا على أخلاقي كما قال الأخ «ليفة» تم مَنعي تمامًا مِن زيارة مكتبتهم العامرة، وشَحتَف قَلبي المسكين بعد استعارة أول كتاب، والذي كان أيضًا آخر كتاب، ولم يَشفَع له عندي إلا أمُّه التي كانت تسأل عَني دائمًا، وتُعاتبه لعَدم حضُوري، وتقول له حسب قوله:

- أُمال فين الواد المكلبظ السِّرح صاحبك.. مابقاش يجي ليه؟

فاضطُرَّ آسفًا لإعادة العلاقات مرة ثانية؛ حتى لا ينال ما لا يتحمله مِن أمه، ولكنه اشترط عَلَيَّ عدم اصطحاب أي كتاب معي إلى البيت، فإذا أردت الاطلاع يجب عليَّ الجلوس في غُرفة المكتبة، وإذا غادرتها أُغادرها خالي الوفاض بلا أي كُتب، فوافقت طبعًا على هذا الشَرط المُجحف؛ حتى أتمكن مِن العودة مرة أخرى إلى أحضان هذه الكائنات العجيبة، وكان الكتاب الثاني الذي قمت باختيار قراءته أو بالأحرى تصفُّحه، هو «الرسائل السياسية» للجاحظ أيضًا؛ ظنًّا مِنى أن كُلَّها رسائل، وأن ما وجدته في الرسائل الأدبية سأجده في الرسائل السياسية، ولكن مُنذُ مَتى والسياسة يأتي مِن وراءها أي شيء يَسُرُّ القلب؟

وبعد طُول فَحصٍ ومَحص بات مِن الواضح أن ما وجدته كان محض مُصادفة، وأنه لن يتكرر مرة ثانية، وأن عليَّ الاهتمام بشيء آخر في هذه الكُتب، ولتَكُن مُحاولة فَهم المكتوب، ولكن الأمر كان بالغ الصعوبة.

مرَّت المرحلة الإعدادية، وانقَطَعَت علاقتي بـ«الفؤش» وأُمه بعدما التحق بمدرسة التجارة القريبة مِن بيته، وصارت الزمالة ذكرى، وتبعتها الصداقة التي لم تستمر أكثر مِن عام، ورغم أنني وخلال هذا العام كُنت قد تعرفت على عناوين الكثير من الكتب التراثية فقط دُون فهم محتوياتها، إلا أن سحر أشكالها وأورقها ظلَّ فاعلًا في قلبي وعقلي ووجداني، حتى سَمَحَت لي ظروفي المادية باقتنائها، وفي البداية كُنت أذهب إلى المكتبات، وأطلب نفس العناوين التي احتفظت بأسمائها سابقًا، وأقوم بوضعها في المكتبة دُون التفكير في فتحها أو الاطلاع عليها، حيث كُنت واقعًا تحت تأثير التصور

السابق بأنها كُتب مُستَغلقة على الفهم، وأنني ما اقتنيتها إلا فقط من أجل ذكراها الجميلة في حياتي، وأيضًا لأنها تَصلح كمصدر وقور لتزيين المكتبة عندي، ولكن ذات يوم زارنا جارٌ مُسنٌّ فرأى مكتبتي التي كُنت أسعى لتنميتها قدر استطاعتي، فانبهر الرجُل بها، وأثنى على العَيِّل الصغير الذي يقرأ كُل هذه المُجلدات الضَخمة، وقال لي:

- إياك وثقافة العناوين.

وكان يقصد بالطبع مُثقف العناوين الذي لا يعرف من الكُتب إلا اسمها، وكأنه يقصدني بذلك، أو كأنه يعلم أنني مُدَّعي معرفة بكُتب التراث التي أضعها في المكتبة.

ظَل كلام الرجُل مُتصدرًا مَشهَد مرحلة ما قَبل النَوم، فكرتُ فيه كثيرًا لدرجة أنني قُمت ووقفت أمام المكتبة، وأخرجت كُل كُتب التراث الموجودة تقريبًا، ووضعتُها بجواري على السرير، وبدأت أتصفحها بشكل عشوائي، فكان أول كتاب وقع في يدي كتاب يُسمى «ذَيل الأمالي والنوادر» لأبي علي القالي البغدادي، ففتحته مِن المُنتصف، وبالتحديد عن فصل اسمه كتاب النوادر، فقرأت منه بعض الفقرات، ووجدتها مُستساغة وسهلة الفهم، فأكملت باقي الفصل وأنا في مُنتهى السعادة؛ لأنني كَسَرت هذا الحاجز الوهمي بيني وبين كُتب التراث، ثُم توالت القراءات في الأيام التالية، وصارت كُتب التُراث هي المَطلب الرئيسي لي في كل عمليات شراء الكُتب، حتى إن مكتبتي الشخصية في ذلك الوقت كانت قد تَحَوَّلت إلى مكتبة تُراثية شبه خالصة، بعدما أزاحت تلك الكُتب الكثير من أشكال المعرفة الأخرى.

وتعلمت من هذا الدرس المهم أننا كما نكبر في السن فلا بُد أن تَكبر معنا تصوراتنا، والتي يجب أن نَختبرها بشكلٍ دائم؛ حتى نتبين إن كانت صالحة حتى الآن، أم إنها كانت مُرتبطة بالمرحلة التي بَزَغَت فيها، فكما قال «هيراقليطس العظيم»: «إنك لا تنزل النهر الواحد مرتين؛ لأن مياهًا جديدة سَوف تَغمرك في المرة الثانية».

مشوار التعليم الطويل

«عبد الحليم».. صديق طيب ما زلت أحتفظ بصداقته حتى اليوم، كان رفيق فصلٍ واحدٍ وتختةٍ واحدة، لاشتراكنا معًا في حَرف العين، وللأسف هذا الحرف اللعين الذي جمعني بـ«عبد الحليم» في ذلك العام تسبب في ضياع أربع سنوات كاملة من عُمري، كان «عبد الحليم» عذب الصوت، يقرض الشعر، كما كان أحد نماذج الحساسين المُنقرضين، الذين يُذكرونك حين تتعامل معهم بـ«حسين صدقي» و«سعد عبد الوهاب»، وطبعًا «عبد الحليم حافظ» الذي سماه أبوه على اسمه.

«عبد الحليم» كان نموذجًا للطالب الموظف، أو ذلك النوع الذي يُسمونه المثالي، لذلك كان صديقًا لُقطة تمسكت به باليدين الاثنتين، والواحد وثلاثين سِنَّة (فقد كان لي سنٌ مخلوعة)، خاصةً أنه كان ابن ناظر، أي من تلك العيال النظيفة التي تُشَرِّف أمام الأهل، كان مُجتهدًا وشاطرًا يُشار إليه بالبنان، فلبدتُ فيه كالقراضة، ففيه كُل الصفات الحسنة، وذات يوم ونحن ما زلنا في أسبوعنا الأول في الدراسة، إذ بـ«عبد الحليم» ينتحي بي جانبًا؛ لمُشاورتي في أمر يبدو أنه جِد خطير، «عبد الحليم» يُقرر أن يترك الثانوي العام، ويلتحق بالثانوي الصناعي، لماذا؟ لأن بعض أصدقائه العالمين ببواطن الأمور أقنعوه بأنه برُبع المذاكرة التي يُذاكرها في الثانوي العام سيستطيع أن يدخل بمنتهى البساطة كلية الهندسة حلمه الأثير، اندهشتُ لهذه الفكرة النَزِقَة المجنونة، ورفضتها رفضًا تامًّا، ولكنه سار فيها حتى النهاية، وفُوجئت به في يوم يُسلِّم عليَّ بحرارة ويحتضنني حُضن المُسافر، قائلًا إن هذا اليوم هو آخر

يوم له معنا في المدرسة، فقد نفذ خطته، وقام بنقل أوراقه إلى المدرسة المعمارية القريبة من بيته، وحينما سألته: هل والده حضرة الناظر موافق على هذا التصرف الأحمق؟ أكد لي أنه هو من سعى له في الأمر عن اقتناع، وذهب «عبد الحليم» وتركني نهبًا للأفكار، فحضرة الناظر والده الأستاذ «رفعت» بجلالة قدره مُقتنع بالأمر، وهو من سعى لنقله، إذًا الأمر ليس بهذه الصورة المُرعبة التي أتصورها، ولم أُكذِّب خبرًا، وكان الأمر مطروحًا على مائدة الغداء في اليوم التالي مُباشرة، في البداية اندهش أبي للفكرة، ولكنني نجحت في الدخول إليه من ناحية أعلم أنه سيهتم بها، وهي ناحية المصاريف والدروس لاعبًا على الوَتَر الاقتصادي، فالأمر لا يحتاج أكثر من ربع مجهود الثانوية العامة، وكذلك رُبع مصاريفها ودرُوسها، فاستطعت استمالته ناحية الأمر، وخاصة أنه لم يكن يعرف الفروق الجوهرية بين نوعي التعليم، فقال لي:

- اعمل اللي تشوفه في مصلحتك.

فاعتبرت ذلك موافقة نهائية، وكُنت في اليوم التالي عند «عبد الحليم» في البيت، مُقترحًا عليه مُزاملته في الثانوي الصناعي، فكاد يطير فرحًا، وحينما جلس يُعدد مزايا الثانوي الصناعي دخل علينا والده حضرة الناظر، فقمت احترامًا وسلمت عليه، فوجدت «عبد الحليم» ينظر في عيني أبيه بتحدٍّ، مُثبتًا من خلالي صحة وجهة نظره.

- أهو.. «عماد» صاحبي وزميلي.. قرر هو كمان ينقل زيي ثانوي صنايع.

أستاذ «رفعت» مُمتعضًا:

- ربنا يشفيكم يا ابني.. يعني بدل الخازوق هيبقوا خازوقين؟! إنتم فين عقلكم نفسي أعرف؟

وهنا وقفت مشدوهًا فاغرًا الفاه كما يقولون، فهل الرجل موافق أم مُعترض؟ ذلك التقريع يؤكد أن الأمر قد جري دُون رغبة منه، وليس كما ادعى «عبد الحليم»، وهُنا بدأت الفكرة تتراجع في عقلي، وبدأت أتوجس وأثوب لرشدي، وأثناء اللحظة التي كُنت أُراجع فيها نفسي ضرب الأستاذ «رفعت» ضربته القاضية قائلًا:

- يا ابني أنا وافقته بس عشان عارف إنه طالما حط الموضوع في دماغه مش هيهمد إلا لما ينفذه، وبعدين في النهاية اللي بيشيل قِربة مخرومة بتخرّ على قفاه.

قال الرجُل ما قاله، وانصرف غاضبًا، في حين «عبد الحلم» صديقي الطيب تلبَّسته روح الشيطان، وجلس يُوسوس لي ما استطاع إلى الوسوسة سبيلًا.

- لعلمك هو مُقتنع، هو أنا كُنت أقدر أحول من غير ما يكون موافق؟ عارف الفولة فين؟ الفولة إنه السنة دي هيطلع معاش من النِظَارة، وهيمسك التعليم الصناعي على مُستوى المنطقة كُلها، عشان كده وافق بسرعة لما عرف إني عاوز أحوّل،

- طب ليه مش عاوزني أنا كمان أحوّل؟

- عشان بدل ما يخدم واحد هيخدم اتنين.. أبويا وأنا عارفه.

خرجت من عند «عبد الحليم» وأنا مُشتت الفكر مُبعثر الأهداف، حسمت الأمر حينما تَذَكَّرت الأستاذ «سعد نصر» مُدرس الرياضيات اللي تنفات له بلاد، فاتخذت قراري، وعزمت على ألا أعود للثانوي العام مرة أخرى.

كانت المدرسة الجديدة مُثيرة للندم مُنذ ولوجنا الباب الخارجي، فالعيال ليسوا شبهنا، والمُدرسون كَأُسطوات الفاعل، والمدرسة نفسها أشبه بسجن كبير بها عدد من العنابر، كل عنبر يخص قسمًا من الأقسام، كان «عبد الحليم» قسم مباني، أما أنا فقد كُنت قسم خرسانة مُسلحة، وظللت طوال ثلاث سنوات ألوك موادَّ لا أستطيع استساغتها، فضلًا عن الثلاثة أيام عَمَلي في عنبر الخرسانة، وفي حوش المدرسة الذي كان علينا أن نُحوله إلى شدات خرسانية، حقيقية لا ينقصها إلا الصَبة.

ليس أمامنا إلا المذاكرة يا «عبد الحليم»، التشرُّد أمامنا والخيبة وراءنا، فلنفلت منهُما بقُدرة قادر، و«حسبي اللّٰه ونعم الوكيل فيك يا عبد الحليم يا رفعت».

تحولت أنا الكائن المسبسب الحريص على مظهره إلى فواعلي منكوش الشعر ممزق الملابس بفعل الأسياخ والقُمط، كان عَلَيَّ كُل ليلة في البيت أن أجلس تحت مصباح مُمسكًا بملقاط كي أتمكن من إخراج سفا الخشب المُنحشر في جلدي، تحولت يدايَ اللتان لا تعرفان إلا القراءة واللعب إلى يدين خشنتين بهما شقوق تُمرِّر الفئران، لم أكن أشعر بأنني طالب في مدرسة، ولا حتى فواعلي أو نجار مُسلح، فالأول يجلس في فصله مُعززًا مُكرمًا يتلقى دروسه، والثاني يأخذ أجرًا نظير عمله، ونحن لم نكن طلبة مُحترمين نجلس في الفصول، وإذا جلسنا لا يدخل لنا مُدرسون، وإذا دخلوا لا يشرحون، كما أننا لا

نأخذ أجرًا نظير عملنا الشاقّ في حوش المدرسة، كُنا أشبه ما نكون في سجن نهاري، نعمل فيه أعمالًا شاقة، ولكن دُون مُقابل، أما «عبد الحليم» فصار أشبه بالمجاذيب، مذهولًا طول الوقت، وصموتًا لا يُكلم أحدًا ولا يُجالس أحدًا، وعرفت فيما بعد أن حضرة الناظر الأستاذ «رفعت» بعدما خرج على المعاش رفضت الوزارة تعيينه في أي مناصب إدارية أخرى، واكتفت بإشرافه على تعليم الكبار، وهي مُهمة شرفية، لا تعدو أكثر من تكريم للرجل الذي أضاع عُمره بين الطباشير والسبورات، فضاع حلم «الواسطة الكبيرة» التي ستُدخلنا الهندسة من حيث لا نحتسب، ولم يبقَ أمامنا إلا المذاكرة، ولكن كيف نذاكر هذه المواد، ومن أي الجهات يُمكننا أن ندخُل لها.

«عبد الحليم» هام على وجهه في صحراء الدروس الخصوصية علَّه يلحق بقطار المتفوقين، وتَبِعته على الفور دُون تردد، فليس أمامنا خيار آخر، فلنُكمل الطريق إلى آخره، ولنأخذ الأمور على محمل الجد حتى النهاية، والحمد لله تكلل مجهودنا بالتفوق، فكُنت أنا و«عبد الحليم» من الطلبة المتفوقين أصحاب المجاميع العالية بالمدرسة، أنا ٦٨٪ و«عبد الحليم» ٦٩ ٪، فالمدرسة جميعها ما بين راسب وما بين حامل لمواد، والناجحون بالكاد يعبرون حاجز الـ٥٠٪، وكان تفوقًا بطعم الفشل بالطبع، فمجموعنا لا يُدخلنا حتى معهد الدُمبوسكو قِسم لحام، فثار «عبد الحليم» يومها ثورةً لم أره عليها من قبل، وقرر أن يذهب شاكيًا إلى وزارة التربية والتعليم، ولأننا تعاهدنا على أن نأخذ الطريق إلى آخره، فذهبت معه ومع بعض الطلبة الذين يشكُّون في نتائجهم مثلنا، تقمص «عبد الحليم» أمام باب الوزارة دور «أحمد عرابي» ووقف يهتف في قوة: «عايزين حقنا يا وزارة.. عايزين حقنا يا وزير «، ونحن كالجوقة نُردد خلفه بالحرف، وظل الحال هكذا قرابة نصف ساعة

دون أن يُعَبّرنا أحد، وحينما عبّرونا كانوا يجرون خلفنا بالهراوات، وأذكر حينها أن «عبد الحليم» باعتباره الزعيم قائد المظاهرة قد سُفِخَ قفا من ذلك الذي تسمع صوته على بُعد كيلومترات، وبعد أن توارينا عن أنظار المُطارِدين، جلسنا على رصيف نلتقط أنفاسنا، حينها أكد «عبد الحليم» أنه لن يستسلم، وأن هذه المرة لن تكون الأخيرة التي سيقف فيها أمام الوزارة، ولن يتوقف حتى يُلبُّوا مطالبه ويُحققوا في نتيجته الظالمة، وكنت أنا أول من يعلم أن «عُبَد» كذاب، وأنه لن يُهَوّب ناحية الشارع بل المنطقة التي بها الوزارة مرة ثانية، فقد كان القفا الذي رجرج جسده وكاد يُسقط أذنيه من على جانبي رأسه ما زال صداه يطنُّ في آذاننا، لدرجة أنني كُنت أشعر بسخونة جلد قفاه المُزنهر، وبالفعل استسلمنا للأمر، وصرنا نبحث عن مكان آمن يؤوينا، فكانت الفكرة العجيبة التي صرت فيها خلف «عبد الحليم» للمرة الثانية.

- فلنُقدِّم في معهد أُمناء الشُّرطة.. عارف يا «عُمدة».. هما سنتين، وهنتخرج ونذاكر حقوق منازل، ونعلق دبورة ونبقى ظباط.

- .....

- مش هنخسر حاجة.. دا الدوسيه بخمستاشر جنيه، واهو اسمنا عملنا حاجة.

وكالمُغيب سرت خلف «عبد الحليم»، وكأنني مسلوب الإرادة، أو يُمكن أن نقول إنني كُنت مُحبطًا فاقد الأمل في أي شيء، فلا مانع أن نخوض التجربة.. فلنخُضها.

التجربة فشلت.. الحمد لله

الأمين/ «عماد العادلي»، تخيل يا مؤمن!!!!

طبعًا أنا لا أُسيء لهذه المهنة الشريفة، ولكن أنا آخر من يصلح لهذا العمل على الإطلاق، اكتشفت ذلك وأنا على باب المعهد، فقد كان في يدي كتاب أخذته لتزجية الوقت الطويل في الطريق، وأثناء التنقل بين أنواع الفحص المُختلفة، وما أن رأه أحد حُراس البوابة حتى رفع عقيرته بالصياح:

- الـ«.....» اللي شايل كتاب.. إنت مش جاي الحضانة يا عنيا.

تسمّرت مكاني، فلم يكُن غيري في الطابور الطويل يحمل كتابًا، وأجبرني الرجُل على تمزيقه، وإلا طلاق تلاتة مانا داخل المعهد، حاولت إقناعه بأن أتركه بجوار السور حتى أخرج، رَكبَ البيادة في رأسه، ورفض مُصدرًا صوتًا عظيمًا مِن أنفه الكبير:

- هو أنا كلامي مابيتسمعش؟

وقبل أن يتحرك نحوي قُمت بتمزيق الكتاب بسرعة ونثره في الهواء، ما زلت أذكر.. كانت مجموعة قصصية لـ«وجيه أبو ذكري» اسمها «في شاليه السُّلطان»، ولكن وأنت في شاليه السادة الأمناء عليك أن تتخلى عن كُل الشاليهات الأخرى حتى لو كان شاليه السلطان بذات نفسه، وقفت بعدها مفطور النفْس، فاتر الهمة، مُنكمش العزيمة، ولكنها خُطى مشيناها كُتبت علينا، ومن كُتبت عليه خُطى مشاها.

كان «عبد الحليم» أمامي مباشرةً، وطبعًا عَمَل أجنبي حينما زَعَّق فيَّ سيادة الشاويش على البوابة، دخلنا هذا العالم الغريب علي كلينا، وانتظرنا في أتون محرقة بلا مظلة حتى كان النداء.. كان الكشف الأول هو كشف الطول والعرض واللذان لا نعدمهما، فأنا والحمد لله الطاق طاقين، و«عبد الحليم» كان كسيمافور المحطة، طويل مثل عفريت، اجتزنا هذه المرحلة التافهة، وجاء الدور على كشف الأعصاب والثبات الانفعالي، فاجتزناه أيضًا بلا صعوبة، ثم كانت الطامة الكُبرى في الكشف الطبي، ولن أحكي لكم عن الكشف الطبي؛ لأن الحياء والرقابة كليهما يمنعان الخوض في تفاصيله.

كُل ما يُمكن قوله إننا سقطنا أنا وهو في الاختبار الطبي.. أنا لضعف نظري، و«عبد الحليم» الطيب حَد السذاجة فلغشومية ردِّه حينما سأله الطبيب عن أي شكوى يشتكي منها، فقال له: «ماعنديش أي مشكلة.. بس اللثة بتاعتي ضعيفة.. لو حد باسني بوقي بيجيب دم»، وهُنا ضجت قاعة الكشف بالضحك، ونال «عبد الحليم» من الضابط الطبيب أقذر الألفاظ، والتي تقدح في شرفه وفي رجُولته.. وانتهت الرحلة قبل أن تبدأ.

في رحلة العودة من حلوان إلى بيتنا، رُحت أفكر في اليمِّ الذي كُنت سأُلقي بنفسي فيه، لم يكن طموحي، بل لم يجُلْ في خيالي حتى مُجرد التخيل أنني أرتدي بدلة بيضاء، وأُعلق طبنجة بلا دبشك في جانبي، أي فعل عجيب كُنت سأقوم به؟ و«عبد الحليم» الصامت خرج عن صمته ونحن في الميكروباص:

- «عُمدة» إحنا هنذاكر ثانوي منازل.. مفيش حل غير كده.

- يا أخي اللّٰه يخرب بيتك.. ما كُنا في ثانوي مش منازل.. ضيعت علينا أربع سنين باختراعاتك.

الصمت المُطبق خيَّم علينا طوال الطريق بعدما عَبَّر ت عما بداخلي تجاهه، وذهبت إلى البيت بلا أي بوصلة، ولا أعرف لي أي اتجاه.

صِرتُ أُفكر في مصيري المُظلم بعد أن ضيّعت نفسي، ومشيت وراء هذا الساذج الأحمق، صاحب الأحلام العصافيرية، والمُخ الكتاكيتي، ساءت سُمعتي في الأسرة كابن فاشل في كُل شيء، أبي المسكين سَلَّمَ ووضع كُل أصابعه في شَق اليأس، وأمي الحكيمة احتوتني بشكل غير مسبوق، فأنا لست أول من يفشل، ولست بِدعًا من العائلة، فهُناك فلان وفلان وعلان وترتان، واستدعت أمي كُل نماذج الفَشَل في العائلة، وما أكثرها، شعرت حينها بأنني إنسان طبيعي، وأن الفشل ليس نهاية المطاف، تذكرت اقتراح «عبد الحليم» بالعودة إلى الثانوي العام عن طريق المنازل، ولكن سوابقه المُفجعة، دعتني للتفكر في الأمر كثيرًا، فكان الحل العبقري، وهو الدراسة بجوار العمل، والدراسة هُنا تعني الانتساب لمدرسة ثانوية، والعمل هُنا يعني أي عَمَل يحفظ ماء وجهي أمام نفسي أولًا، ثُم أمام الأسرة الصغيرة والعائلة الكبيرة، والتي كانت قد دخلت هي الأخرى على خَط التوبيخ والتقريع والإقرار بأنني صرت شخصًا عديم الفائدة، فعملت في مصنع طُرشي لم أستمر فيه أكثر من أسبوع، بعد أن هرىَ الملح جلدي، وأصابتني الالتهابات بفعل الشَّطة والفلفل الحراق، لدرجة أنني لم أكُن أستطيع أن أحمل كوب ماء بين يدي، وانتقلت بعد ذلك للعمل في مصنع لبان، وكان دوري المُساعدة في صناعة المادة الماضغة (الشنجام)، وكان عملًا شاقًّا عظيم المجهود، ولكنني

تقبلته عن طيب خاطر؛ لشعُوري القاسي بالتقصير، كان العمل لمُدة ١٢ ساعة، وبالطبع المُتبقي كان يضيع بين النوم والرغبة في النوم، وليس للمُذاكرة أي وقت، رغم أن كُل ما يُفعل من أجل عيونها، وطبعًا عدم الالتزام بالذهاب لمدرسة أو دروس أو الارتباط بجوِّ الدراسة الطبيعي ساهم في إهمالها تمامًا، أما «عبد الحليم» ابن الناظر فقد توفرت لهُ كُل سُبل الراحة، فتفرغ للمُذاكرة والدروس، وبالطبع كانت النتيجة الحتمية هي نجاحه هو، وخروجي أنا بسبعة مواد.. ضاعت سنة أخرى من عُمري، وبات من الواضح للجميع بما فيهم أنا نَفسي عَدَم صلاحيتي للدراسة، وعادت الحياة سوداء مرة أُخرى، وكَان على أبي أن يتدخل في هذا الوقت، وكُنت أتخيل أن تدخُّله سيكون لصالح ترك الدراسة، ولكن المُفاجأة أنه قال لي:

- أنا معاك يا ابني للآخر.

وكأي إنسان ليس جبلة، كان عَلَيَّ أن أفترس الكُتب افتراسًا، وخاصة أن أبي الكريم اتخذ قرارًا بتفرغي التام للدراسة، ولكنه اعتبر أنها الفرصة الأخيرة، وكانت نتيجة هذا الدعم المادي والمعنوي أنني فاجأت الجميع بتفوقي في السنة الأولى، وهنا فقط رُدَّت إليَّ رُوحي، وبدأت أشعر بأنني إنسان كامل الأهلية، رغم أن الإنجاز كان أقلَّ من العادي، طالب في سن الجامعة نجح في الصف الأول الثانوي، إلا أنه كان يُمثل لي النصر الأكبر، وعرفت فيما بعد أنه كان بمثابة البوابة السحرية للولوج إلى العالم الطبيعي الذي أنتمي إليه، كان الأمر أشبه بقطعة بازل وُضعت في مكانها الصحيح أخيرًا، بعد أن كانت

تُحاول الانحشار في الفتحات الخطأ، فضلًا عن أنه كان البداية للتعرف على اختراع عجيب ومُثير اسمه الفلسفة، والتي لها حكايات أخرى.

وكُنت سلفيَّ الهوى

كأي مُراهقٍ خَرَج لتوه حائرًا مِن نَعيم الطفولة إلى فورة المشاعر وجيشان العواطف والتهاب الرغبات، مُراهق يبحث عن معنى للحياة، وعن طريقٍ يسلكُه يستطيع مِن خلاله أن يتجنب التأثير الفتاك لكُل هذه الأشياء المُستأسدة عليه، وليس مِن طريقٍ أمامنا إلا التمسك العنيف بأي شيء يُخرجنا مما نحن فيه، وليس مِن سبيل أمامنا كأبناء طبقة رقيقة الحال مُتَعثرة الأحوال إلا الشكل المُتاح مِن التَدَيُّن، وقد كان.

ذَهبتُ إلى المسجد المُجاور لبيتنا؛ عَلَّنِي أجد فيه ما يشفي تَوتُرات الرُّوح وتشنجات الجَسَد، فاستقبلتني حياة مُختلفة، وأشخَاص مُختلفون عَن المسجد الذي كُنت أصلي فيه طِفلًا، الذي كان بالنسبة لي في سِن الطفولة مكانًا للالتقاء بالعيال أصحابي يوم الجُمعة؛ لنُصلي مَع الناس، ونُضايق الشيخ الذي كان يطردنا؛ لأننا نُخرج المصلين عن صلاتهم، وفي صلاة العِيد للجلوس في الصف الأول؛ عَلَّنَا نحظى برِضَا الشيخ ويُعطينا الميكروفون لنقول مع القائلين: «الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسُبحان الله بُكرة وأصيلا»، أو في رمضان مع الأب والإخوة والأصدقاء؛ لنُصلي التراويح والتَهَجُّد، باختصار كان المسجد مكانًا مُبهجًا لا يُعطي إرشادات، وإن أعطاها فلا نفهمها، ولا أحد يُعاقب أو يُحاسب على عَدَمِ فعلها، أما في مرحلة الشوارب الزغبية والحبوب الكثيفة في الوجه، فإن الأمر مُختلف، فقد جَرَت في النَهر مياه كثيرة في هذه الأعوام القليلة، ثُم أنت الآن رجُل عاقل بالغ مُكلف، وأصبحت فلقًا يسد عين الشَمس.

ولأن الأهل على سَجِيتهم، طيبون وبُسطَاء ظَنوا أن المسجد في المراهقة هو نفسه في الطفُولة، ولم يعوا أن هُناك قراءة جديدة للدين ليست كتلك التي تربوا هُم عليه، وأن هُناك (إخوة) يستقبلون الوافد الجديد؛ ليعلِّموه الدين على طريقتهم الصَّحراوية، والفقه الجامد الذي لا مرونة فيه، فكان الأهل يفرحون بالشيخ الذي راح والشيخ الذي جاء، وكُنا كالملائكة في جلبابنا الأبيض وطاقيتنا الشبيكة البيضاء، باختصار كُنا «بسم الله ما شاء الله، حاجة تِفرح وتشرح»، وذلك حتى حَدَثَ الصِّدَام المُحَتَّم مع الأسرة، ليكسر فرحتهم بالشيخ الجديد، حينما وَجَدُوني أُحَرِّم عليهم عيشتهُم، فحينها فقط حاولوا تَدَارك الأمر، ولكن كان السيف قد سَبَقَ العَذَل.

وأول ما أدهَشَهُم استغنائي عن قصصي وكُتبي التي كُنت أخاف عليها من الهواء الطائر، بل إن المكتبة تَحَوَّلت إلى مكان مهجور لا أمدُّ يدي عليه حتى امتلأت بالأتربة، واستعَضت عنها بمجموعة كُتب هزيلة الأوراق أضعها بجوار رأسي كي أقرأ منها قبل أن أنام، وأنا مُندَهِش مِن كَثرة المُحرمات التي نُمارسها جميعًا، من أول اللبس والأكل والاستحمام واللحية التي نحلقها دُون أي إحساس بالذنب، مرورًا بالفواحش التي نراها في التلفاز -اللي هو التلفزيون يعني!- وحتى الوصول إلى الكوارث العقائدية التي نُمارسها جهلًا؛ كالتبرك بالأولياء، وزيارة المساجد التي تحوي أضرحة، والحلفان بغير الله، والتعلق بعَرَضِ الدُنيا ومتاعها الزائل.

كُنت صبيًّا يعيش عُمرًا لا يُناسبه، وكُنت أتمنى أن أكون مثل الأخ فلان أو الشيخ علَّان، فأحمل مُجلدًا لا أفهم منه شيئًا وأسير مُنتصبًا بعد أن أقمط الغُترة فوق رأسي، وأرتدي قميصًا (لا جلباب، فالأخوة لا يقولون عنه جلباب؛

لأن الجلباب يكون للمرأة) كان لأبي، ولكني قصصته وشققته من الجانبين على الطريقة الباكستانية، وأجلس في مجالس «العلم».

و«العلم» هُنا كان العلم الديني، لا.. العلم الديني على طريقة الإخوة، الذين أقنعوني بأن كُل ما خلا علمهم باطل لا يُعول عليه، ولا يُؤجَر صاحبه يوم القيامة، بل يؤجَر على العلم الديني ويُثاب عليه، ويُحاسب على تركه لصالح علوم الدنيا التي لا فائدة منها، فأهملت دراستي «الدُنيوية» وأهملت قراءاتي «الدُنيوية» لصالح الكُتب التي تحمل عناوينها وعدًا أو وعيدًا أو تحريمًا أو تحذيرًا.

تعلمت حينها أن الخير فيمن سَبَق، وأن الحاضر ما هو إلا مسخٌ مِن الماضي، وأن المُستقبل لن يكون مُشرقًا إلا إذا تتبع خُطى الماضي شبرًا بشِبر، فبدأت أتخيل رجال الماضي، وكأنهُم ملائكة بأجنحة لا ينتمون إلى البشر في شيء، فالخير لن يأتي إلا من الوراء، ونحن دائمًا تلاميذ في حضرة هذا الوراء السحيق، فصارت كُل قراءاتي في كُتب الدين التُراثية، أرى المستقبل من عيون الماضي، وأتمنى عودة اليوتوبيا الإسلامية وعَصر الخلافة الذي كان الناس يعيشون فيه بسلام آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، باختصار.. كُنت أحيا في الحاضر بقدمي، بينما رأسي مسحوب تجاه ماضٍ تليد أتمنى أن يعود.

قَمَعتُ كُل ما كان بدَاخِلي مِن ولاء للدنيا بكُل تفاصيلها، وبراء مِن كُل ما يُخالف قناعاتي الجديدة، وعِشت مُنعَزِلًا معزولًا بعد أن يئس الأهل مِني، ورموا طوبتي، وبدأت أتَخَلى عن كُتبي وقصصي ومجلاتي، لا سيما مجلتي

الأثيرة «العربي الكويتية»، وما لم أستطع التَخلي عنه طمست أغلفته التي كانت تحمل صورًا لوجُوه بَشر؛ فالتصوير حرام؛ لأنه يُحاكي خَلق اللّٰه.

وأذكُر أن كتابًا للفلسفة كان قَد وقع تَحت يدي مُصادفة قبل أن أدرسها بسنين، فقد كنت جالسًا عِند صديق لي، فوجَدت كتابًا ضخمًا له غلاف يحمل صورة لرجُل هَرم له شعر أبيض مُهوش ولحية كثة بيضاء، مكتوب عليه «الفلسفة للصف الثالث الثانوي»، فأمسكت بالكتاب، وابتسمت، وملست على شُعيرات لحيتي الوليدة، وسألت صاحبي عن صاحب الكتاب، فقال إنه لأخيه، فأعطيته درسًا في خطورة الفلسفة، وكيف أنها تؤدي إلى الإلحاد كما قِيل لي، كما أعطيته درسًا في حُرمة التصوير، ووجوب طَمس وجه هذا الرجُل المُسن، فابتسم صاحبي وقال:

- وأنا ما لي؟ قول لصاحب الكتاب.

ثُم خَرَج ليؤدي حاجة، ووجدتني وجهًا لوجه أمام الكِتاب، فهل أقوم بطمس وجه الرجُل والشخبطة على صورته، هل أُقطع الكتاب، وبذلك أكون قَد غَيَّرت مُنكَرًا باليد والذي هو أقوى الإيمان، ولكن لا أعرف ما الذي حَرَضَني على فتح الكتاب والقراءة فيه، وأذكر أنني حينها أصابتني حيرة كبيرة بين حُرمة القراءة ومُتعتها، فقد استَعَدْتُ معه ذكريات الاستمتاع بالقراءة، والتي كُنت قَد نسيتها، وشعرت بأن عقلي بدأ يبرق مَع الكتاب بأفكار مُستلهمة من المقاطع القليلة التي قرأتها، ولكن ما أن أتى صاحبي مرة أخرى حتى وضعت الكتاب جانبًا، وانشغلنا في بعض الحوارات التافهة، ولكن قلبي كان قد تعلَّق بالكتاب كما كان يتعلق بالمعاصي مِن قبل التوبة والالتزام، حاولت أن أطرد هاجسًا طاف بخيالي، وهو أن أستعير الكتاب لقراءته كاملًا، ولكن لا حيلة في

ذلك، فماذا سأقول له وأنا الذي كُنت أقدَح في الكتب منذ قليل، وأخيرًا وجدت الحَل، وقلت له إنني سأنتقي بعض المواضع الكُفرية في الكتاب لأحَذر أخاه منها، فوافق الولد هازًّا رأسه، مؤكدًا أن أخاه لا يفتح الكتاب أصلًا، وأنه مِن المُمكن أن ينساه ولا يسأل عنه.

أخَذت الكتاب، واختليت به، وأخذت أقرأ فيه، وأُدَوِّن مُلاحظاتي في ورقة خارجية، ووجدت نَفسي كالمسحور أسير له مجذوبًا للغته السلسة وموضوعاته التي خلبت لُبي، وحَطَّمَت مُستقراتي التي ظللت لمُدة عامين أتَجَرَّعها، كان الكتاب بمثابة العالَم الذي أدخُل إليه دُون أن يَراني أحد، وأذكُر ذات مرة أنني جادلت أحد الإخوة الكِبار في شأنٍ ما، فأشاح بوجهه عَني، وقال لي:

- إنت بقيت لِمض.. والالتزام مافيهُوش لماضة.

كانت معركتي المُبَكرة حُول قضية المَعرفة التي تَقَدَّم مِن خلالها الغَرب، فكان ردُّ الأخ أن هذا الغرب قد سَخَّره الله لخدمتنا، فهُو يصنع ونحن نستَمتع، لذلك فهو يَشقى في الدُنيا، ويدخل النار في الآخرة، أما نَحن فنعيمٌ في الدُنيا ونعيمٌ في الآخرة.

وطبعًا حَرَّضَني هذا الكتاب على التَعَرُّف أكثر وأكثر على هذا العالم الذي غَيَّر نَظَرَتي للحياة، فبدأتُ أبحَث عَن كُتب الفلسفة في أماكن بيع الكُتب القديمة، وعِند الأصدقاء، بل وكَتَبت على كُتبي وأنا في الصَف الثالث الإعدادي «عماد علي العادلي.. كلية الآداب.. قسم الفلسفة».

وظَل بُركان الفلسفة ثائرًا في عَقلي، ولم أستَطع انتزاعه أبدًا، وأظُن أنه كان موجودًا، وسيظَل موجودًا مع كُل التَحَولات الفكرية التي طرأت وتطرأ وستطرأ عليَّ؛ لأنني وفي كُل معارك العقل التي خُضتها لم أجد أفضل مِنها سندًا ولا داعمًا ولا أنيسًا.

الفلسفة أول باب الكُفر والإلحاد

الأول على طُلاب المنازل.. هكذا جاءت نتيجتي بالثانوية العامة، هكذا داويت قَهرًا كُنت قد ألحقته بنفسي طوال الأعوام الضائعة، هكذا استطعت أن أُثبت لنفسي ولمن حولي أن الأمل لم يكُن كُله مفقودًا، بل كان ذيله ما زال يُداعب قدراتي، فتشعبطتُ فيه، وتَبَّتُّ بالأيدي والأرجُل، وعَكَمتُه بكُل نواجذي، وقبضتُ عليه قبض مُخبرٍ يشتاق لعلاوة استثنائية، أو لنيل لقب المُخبر المثالي، وجاء موعد التنسيق، ورغم الفُرص الكثيرة للالتحاق بكُليات لها طلب في سوق العمل، إلا أنني كُنت قد حسمت أمري من قبل التحاقي بالصف الأول الثانوي.. إنها كلية الآداب.. قسم الفلسفة.. لا أرى غيرها ولا أُريد غيرها، ووجدت الدهشة في عيون الجميع بمن فيهم رجُل التنسيق ذاته، والذي نادى على اسمي وسألني لماذا لا أختار قسمًا من أقسام اللغات كالإنجليزية أو الفرنسية أو حتى العبرية، فهُو قسم صاعد، وعليه إقبال في سوق العمل، ثم ضحك وقال:

- أهو ع الأقل لو مالقيتش شُغل ممكن تشتغل جاسوس!

فابتسمتُ مُجاملًا، وأكدت رغبتي في الالتحاق بقسم الفلسفة، فعاد وقال:

- يا ابني ده من الأقسام الكَسر.. اللي مابتتحطش في الرغبات.. يعني العيال اللي مش لاقيين مكان يلمّهم بيودوهم قسم الفلسفة.

شكرت للرجل نصيحته، وبقيت عند رأيي، ولكن بعد يأس أطلق الرجُل رصاصته النهائية همسًا، وهُو يُرتب الأوراق من حوله دُون أن ينظُر لي، وقال:

- يا ابني أنا خايف عليك.

وهُنا شعرت أن في الأمر شيئًا خطيرًا، فابتسمت للرجُل ابتسامة مُتوترة وسألته مازحًا:

- هُم بيقفِّشُوا بتوع الفلسفة ولا إيه يا حاج؟

فرفع رأسه من فوق الأوراق وتقمص شخصية الحكيم التي يرتديها كِبَار السن عِند اللزوم بعد أن أرجع نظارته التي سقطت عند أرنبة أنفه إلى مكانها وقال:

- هتلحس مُخك، اسألني أنا..

ولكن عم الحاج لا يعرف أن الفلسفة كانت قد لحست عقلي بالفعل من قَبل أن أدرسها، فعقلي لا يُمكن لحسه؛ لأنه ملحوس خِلقة.

كان اليوم الأول خاليًا خاويًا مِن أي شكل من أشكال الدراسة باستثناء مُحاضرة واحدة سيأتي ذكرها فيما بعد، فلملمت حاجياتي الدراسية وطموحاتي الفلسفية وعُدت إلى البيت، وفي الطريق مررت ببائع جرائد عتيق، فسألته عن كتاب «عالم المعرفة»، فوجدته يضع يده على كتفي بطريقة تمثيلية ويقول:

- شكلك مُثقف.. مابيشتريهاش مِني غير صفوة الصفوة.. إنت بتشتغل إيه يا ابني؟

الرجُل كان له هيبة وسطوة عجيبة، شعرت حينها أنني أمام مُحقق مُحترف، وطبعًا لأن شكلي أكبر مِن سني فضلًا عن أن من هُم في عُمري قد أنهوا دراستهم الجامعية، اضطُررت أن أحكي للرجُل العجوز حكايتي من أولها لآخرها، ثُم جاءت الطلقة التي قلبت الحوار من مجرد دردشة ودودة إلى نصائح شديدة اللهجة، حينما قلت إنني التحقت بقسم الفلسفة، وهُنا تَمَعَّرَ وَجه الرجُل وزادت حُمرته، ووضع يده على كتفي مرة ثانية، ولكن هذه المرة بشكلٍ أكثر قوةً وعنفًا، ثُم قال:

- يا ابني الفلسفة أول باب الكُفر والإلحاد.. ليه تعمل في نفسك كده؟ شكلك طيب وابن حلال.

وفي الحقيقة لم أستطع الدفاع عن الحبيبة الفلسفة، رُبما حرجًا من شيبة الرجُل، ورُبما لقلقي من رد فعله العصبي كما لاحظت من خلال تعبيرات وجهه عندما حاولت إفهامه وجهة نظري، ورُبما لا هذا ولا ذاك، فقد يكون استسلامًا وموافقة تدخّل فيهما الجانب المُتدين في تركيبتي، أو تحت تأثير خطاب ديني ظللت أتجرعه طيلة سنين، وجدتني أبتسم ابتسامة باهته، وأتناول الكتاب من يده، وأعطيه النقود، وأسلِّم عليه مستأذنا، فسلَّم عَلَيَّ بحرارة، وضغط على يدي طالبًا مني أن أعده بتغيير القِسم، ابتسمت ثانيةً وأفلتُّ يدي من بين يديه المُمسكتين عليها بقوة وذهبت.

تذكرت أيضًا الإخوة الذين كان لهم نفس النصائح المُعادية للفلسفة، فأحدهُم حينما رآني مُمسكًا بكتاب «التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» للشيخ «مُصطفى عبد الرازق» ابتسم ابتسامة العُلماء وقال:

- ما هذا التناقض أخي الكريم؟ العنوان لامنطقي بلُغة فلسفتكم، فهُو يجمعُ ما لا يجتمعان، كيف يضع كلمة «إسلامية» بجوار كلمة «فلسفة»، بينما الثانية خروج على الأولى، والأولى لا يُمكن أن تتوافق مع الثانية، ثُم من هذا الـ«مُصطفى عبد الرازق» الذي يضعون أمام اسمه كلمة «شيخ»، ويُصورونه بملابس أزهرية؛ ليُوهموا البُسطاء أمثالك بأنه رجُل دين؟ إنها حرب على الإسلام يا أخي، لو لم نواجهها أنا وأنت ومن هُم على شاكلتنا قُل على الدُنيا السلام.

وآخر حينما علم برغبتي في الالتحاق بقسم الفلسفة ثار ثورة مُهذبة، وذكَّرني بالعلم الديني الوفير، والذي لم أُحَصِّل منه عُشره، فالأولى بالقراءة والدراسة والتدبر هو العلم الديني وحسب، أما العلم الدُّنيوي فليس يُفيد على كُل الأصعدة، لا سيما إذا كان علمًا كُفريًّا كالفلسفة، ليتني أدرس ما يُفيد المُسلمين كالطب أو الهندسة أو الحقوق؛ لأُدافع عن الإخوة في السجون.

وبالرغم من أنني كُنت في هذا الوَسَط الذي تَشَرَّبت قيمه حتى النُخاع، وتجرعت خطابه حتى الثُّمالة، إلا أنني كُنت أندهش أشد الاندهاش من موقفهم من الفلسفة، رغم علمي بانغلاق الأفق عندهم في كُل شيء تقريبًا، ورُبما كان ذلك عدم قُدرة مني على الربط بين هذا وذاك، ورُبما كانت محبة زائدة جعلتني أتقبل نقدهم دُون امتعاض، وكما يقولون هُم في سِرهم ربنا يهديه، كُنت أقول أنا أيضًا في سِري ربنا يهديهم، ورغم تباين طريقي الهداية

المُتمناة مِن الطرفين، إلا أن نية الرغبة في الصلاح كانت واحدة، وقد علمتني قراءاتي اليسيرة في الفلسفة قبل الالتحاق بالجامعة قبول الآخر المُختلف في الرأي، ولكن ولأنهم لم يدرسوا فلسفة فقد انزاح عنهُم سريعًا وجه النُّصح المُجرد في الله، وحضر مكانه وجه الازدراء والنبذ، بعدما فقدوا الأمل في انصلاح حالي، وترك أمر الفلسفة وكُفرياتها، والعجيب أنهم جميعًا وبلا استثناء كانوا يتعالون على مُجرد فكرة قراءة مُقدمة كتاب في الفلسفة، فهُم لا يقرأون كلامًا كُفريًّا يَحصدون بسببه ذنوبًا بلا داعٍ، بل لا يستمعون إلى أي حديث فلسفي ويتعاملون معه باعتباره لغو القول.

حاولت الحفاظ على شَعرة المودة القائمة بيني وبينهُم، ولكن اتساع الهُوة التي صارت بيننا كانت أكبر من أن تلتئم، والخرق أوسع مِن أن يُرتق، فانسحَبت بكُل هدوء مِن عالم الإخوة إلى عالم الأفكار، وأنا أُشفق عليهم أكثر مما أستاء مِنهُم.

وكأي شخص خرج لتوِّه مِن دائرة متزمتي المُتدينين، كُنت مُتحير العقل مُذبذب المشاعر، وكانت الأسئلة الأهم في تلك المرحلة هي: هل يُمكن للفلسفة بالفعل أن تُخرجني من ديني؟ هل إعمال العقل وطرح الأسئلة يُمكنهما أن يُثيرا الرعب لهذا الحد؟ هل من الأَولى وأد هواجسك الفكرية ودفنها داخلك حتى تمتلئ بها حَد الانفجار الذي حينما يأتي لا يُبقي عقلًا ولا يَذر إيمانًا، فتنقلب انقلابًا عكسيًّا مُريعًا، أم الأفضل أن نُخرجها ونطرحها للنقاش الذي نصل من خلاله إلى قناعات تُريح القلب والعقل معًا؟ استسلمتُ للوضع الجديد الذي أراح عقلي ولم يُشتِّت قلبي، الوضع الذي أستطيع من خلاله أن أكون فاعلًا بعقلي، ولستُ مُجرد وعاء يملؤه الآخرون بما يرونه

صالحًا، الذي أستطيع من خلاله الإبحار في شتى صنوف المعرفة وبحُرية كاملة، ولا أقصُر قراءاتي على منهج إلزامي أو ورد للحفظ دون التدبر أرددهُم بشكل آلي، واكتشفت حينها أن الفلسفة أخرجتني بالفعل عن الدين، ولكن دينهم هم وليس ديني أنا، والساذج مَن يظُن أن الدين الذي يقر في صدورنا مع حليب أُمهاتنا يُمكن أن نخرج منه بإعمال العقل، فأرض هذا ليست هي أرض ذاك، وإن كان للعقل دور في معرفة الحقيقة الدينية إلا أنه دور ثانوي لا يُقارن بعمل القلب، والذي هُو الحاوي لكُل المشاعر الإنسانية، والتي من ضمنها الشعور الديني وتصوُّر الإله.

فلأن هؤلاء جُهلاء ومنغلقون لا يستطيعون الدفاع عن معتقداتهم أمام سطوة العقل، لهذا يُفضلون تعطيله، والاعتماد على مبدأ السمع والطاعة ورقبة العَالِم التي يُعلِّقون فيها بلادتهم ونطاعتهم في كثير مِن الأحيان، لهذا يُحاربون العقل ويرتعبون من ذكر كلمة فلسفة، فالعقل عندهم ليس أكثر من تدبر المُتدَبَّر وفهم المفهوم وشرح المشروح، فالأقدمون عندهم أولى بالمعروف المعرفي، ونحن لسنا إلا شَعرة في لحية الشيخ فُلان، ويا ليت مداسه يحتوينا، وعمامته تُغطينا.

الكفر والإلحاد أو لحسة العقل، أو كلاهُما معًا، نتيجة حتمية لدراسة الفلسفة أو حتى لمجرد القراءة فيها، هكذا ترى المُخيلة الجمعية لمجتمعاتنا، فبائع الجرائد ومُوظف الجامعة الطيبان لا يُمثلان نفسيهما فكريًّا، وإنما يُمثلان قناعات السواد الأعظم مِن الناس، فمن أين أتت هذه الفكرة السوداء؟ هل هي وليدة الآن، أم إن لها امتدادًا في التاريخ القريب أو البعيد؟

معروف أن الإنسان بشكل عام يخشى أن تُختبر قناعاته؛ حتى لا تُصبح عُرضة للوقوف مكشوفة في العراء، ولكن لماذا تختلف النظرة إلى الفلسفة وعمل العقل في مُجتمعاتنا عن المُجتمعات المُتقدمة إذا كان الأمر يخُص الإنسان بشكلٍ عام؟ لماذا مرَّ الغرب بمراحل التحول والتحرر الفكري مِن دُوننا؟ لماذا نخشى التطور، ونتمسك بمجهودات السابقين الفكرية، واعتبارها صالحة للتفعيل في كُل زمان ومكان؟

البعض يقول إن اللغة التي لا تتطور قد تكُون سببًا في هذا العُطل الثقافي والمعرفي، فاللغة عندنا -نحنُ العرب- كيان مُقدس مُرتبط بكلام مُقدس، إذًا هي كيان لا يُمس، وقد أدى ذلك إلى عَدَم القُدرة على التطور المعرفي، والذي يعتمد في أحد جوانبه على التطور اللُّغوي، وقُدرة اللغة على المرونة والتواؤم.

والبعض يقول إنها مُستقرات «الفهم» الدينية التي تُعاقب كُل من فكَّر خارج صُندوق المشايخ والفُقهاء.

والبعض يقول إنه إرثٌ فكري ضاغط لم نستطع الفكَاكَ مِنه؛ لأنه يُقَدَّم إلينا باعتباره دينًا لا يُردُّ، خالطًا بين ما هُو مِن الدين وما هُو عن الدين، بين المُقدس وفهم المُقدس.

والبعض تطرف في الأمر، مُؤكدًا أن التغيير لدينا مُستحيل، وأن جينات العرب الجماعية تلفظ كُل ما هُو عقلي دُون إرادة مِنها، حيث هي مَجبُولة على ذلك.

فهل يكُون الحل هو التعامل مع اللُّغة بمرونة أكثر، والخروج من صُندوق الخطاب الديني السلفي النزعة والماضوي الاتجاه، والسَّعي للتخلص من ميراث التحجر الفكري، ودراسة التُّراث دراسة نقدية، والتعامل معه وفق سياقه الزماني والمكاني؟

هل بإمكاننا الحفاظ على جينات الرغبة (الضعيفة) في التقدم والتطور وتنميتها والحفاظ على العقول التي تحملها.

ولكن هل كُل ذلك يصلُح كفعل للعامة، أم إنه مِن فعل الخاصة أو ما يُسمى بالنُّخبة الفكرية، وهل تحملت النُّخبة الفكرية مسئولياتها عبر التاريخ، أم إنها كانت تسير في رِكَاب السُّلطتين (سُلطة الأنظمة الحاكمة، وسُلطة الشعُوب المُستسلمة لأقدارها وواقعها)؟

فكرتُ في هذه الأمور جميعًا، فقد يكون بعضها صحيحًا، وقد يكُون كلها صحيحًا، ولكن سألت نفسي: إذا كُنا نعرف داءنا، ونرصُد دواءنا، فما الذي يمنعنا من وضع الاستنارة كهدف نسعى لتحقيقه، وردّ الاعتبار للفلسفة المَغبُونة الحقوق باعتبارها عمل العقل الأكبر؟

ومن حُسن الطالع أن قسم الفلسفة لم يكُن ليجتذب أصحاب هذه العقول، بينما كانت باقي الأقسام وباقي الكُليات تعجُّ بهم عجًّا، وبدأت أتعرف على كُل التوجهات الفكرية تقريبًا باستثناء هؤلاء السابق ذكرهم، بل وأنتمي أيضًا إلى قناعات بعضهم الفكرية، إلى أن نضج عقلي بشكل مُكثف خلال عامين من الدراسة، وقررت أن أرفض الانتماء لكُل التيارات الفكرية المُنغلقة، فقد اكتشفتُ أن الكثير من أصحاب الخطابات الفكرية لدينا يحملون نفس

الأمراض تقريبًا، ولكن بنسب مُتفاوتة، فهُم سَلَفِيُّو الهوي، ولكن سلفيتهم تجاه الأفكار التي تُمثلهم، ودوجمائيون مُتحجرون توقفوا عند بعض القناعات التي انتقلت إليهم في وقت سابق، فظنوا صلاحيتها المُطلقة لكُل زمان ومكان، تمامًا كما يفعل أهل السلفية الدينية، وقد احتاجت رحلة التَعَرُّف عليهم وتجاوزهم وقتًا ليس باليسير، ولذلك حكاية أُخرَى.

الهيرمنيوطيقا

وإمكانات المنهج الفونومونولوجي

كَ«خَلف الدَّهشُوري خَلَف» ذهبت إلى الجامعة، وأنا أرتدي بدلة كاملة ورابطة عُنق مِن النوع المُفلطَح، وحقيبة من تلك التي يسمونها (دبلوماسي)، واكتشفتُ نشاز هيئتي عِند اقترابي مِن الجامعة، ولكن سَبق السيف العَذَل، ورغم الشكل النشاز والهيئة اللاطُلابية، فقد تألقت نشوتي حين لاحظت نظرات التبجيل والاحترام في عيون الطلبة، لا سيما عندما دخلت الكُلية، فهيئتي لا تنم أبدًا عن هيئة طالب مثلهم، وخصوصًا أن شعري الشايب قبل الأوان أعطاني عُمرًا فوق عُمري الكبير أصلًا، كما أنني عشت في دور أستاذ جامعي حَصل لتوِّه على درع الجامعة، ومشيت كَدِيك كُولومبي انتصر في نهائي مُصارعة الديوك الدولية، ولكن لأن الزيف لا يدوم، والادِّعاء لا أرجُل له، فقد حدث ما لم أكُن أتوقعه.

الرجُل المُسنُّ الجالس أمام مُدرج المُحاضرات انتفض واقفًا حينما اقتربت، وشدَّ الحقيبة بيد وحيَّاني تحيةً عسكريةً باليد الأخرى، ثُم أفسح الطريق أمامي وهو يقول:

- اتفضل يا دكتووووور اتفضل يا دكتووووور.

لا أعرف إن كان الرجل حديث عهدٍ بالعمل في هذا المكان، أم إنني أُشبه أحد الدكاترة واختلط الأمر عليه حينما نَظَرَ إليَّ بعينيه المسكينتين، وأيًّا ما كان

الأمر، فقد أصبح عَرَقِي مرقي، واحتسْت حُوسة ما بعدها حُوسة، وانسَقتُ خلف الرجُل دُون أن أعرف ما الذي عليَّ فعله، فهل أفضَح نفسي وأقول له إنني مُجرد طالب في السنة الأولى؟ أم أُكمل الأمر لآخره حتى يخرج الرجُل من المُدرج، وأنسحب في هدوء، وأجلس في أي رُكنٍ قَصي مُتداريًا عن الأنظار قدر المُستطاع؟ أم أَدَّعِي أنني نسيتُ شيئًا عليَّ الذهاب لإحضاره، وأنتزع الحقيبة من قبضة الرجُل المُخلص في عمله وأقول يا فَكِيك؟

وَضَعَ الرجُل الحقيبة فوق منصة الأساتذة، وأدى التحية مرة ثانية، وخرجَ مُسرعًا، وكُنت بعيدًا عَنه بعِدة خَطَوات، فما أن سَلَتَ الرجُل رِجله، حتى لففتُ وجهي صَوُب المُدَرَج، وجلست في أقرب مكان تاركًا الحقيبة لمصيرها، ومَرَّ الوقتُ بطيئًا سُلحفاويًّا حتى دَخَلَ الدكتور الحقيقي، وأَمسَكَ بالحقيبة سائلًا عن صاحبها، فأشار الجلوس إليَّ إشارة رجُلٍ واحد، فدعاني الرجُل لأخذها، ثُم بدأ المُحاضرة، والتي كانت الأولى لي في الجامعة، تَغَلبتُ علىَ خَجَلِي مِن الموقف باستحضار طيف «أحمد ذكي» في مُسلسل «الأيام»، وصوت «علي الحجار» الشَجِي يَصدَحُ في الخلفية: «من عتمة الليل النهار راجع، ومهما طال الليل هيجي نهار.. مهما يكون في عتمة ومواجع، العتمة سور ييجي النهار ينهار» وطيف «أحمد عبد العزيز» في مُسلسل «الوسية»، مُصاحبًا لصوت «محمد الحلو» العَذب: «دُنيا جديدة بتنفتح وبتاخدني.. بافتح لها دراعي وقلبي وروحي»، ولكن قَطَعَ هذه الغَمرة مِن التَخيُّل صوت الدكتور الأجَش وهو يعرِض الدنيا الجديدة اللي بتنفتح وبتاخُدني على وَصلة مدخلية من التَخويف والإرعاب مما نحنُ مُقبلون عليه من دراسة مناهج أفنى هُو عُمره في فهمها، ثُم صال وجال في سُمعة وشرف التعليم الحكُومي الذي جئنا منه لا نعرف الألف مِن كُوز الذُّرة، وكيف أنه في سنِّنا كان يَدْرُس كُتبًا تنوء الجبال

بحملها، ولُغات لا يستطيع الفنان «عُمر الشريف» بجلالة قدره أن يَرطُن بها، أما نحن فقد جئنا في الزمن السهل، وكُنا نُذاكر بعدما تأتي لنا أُمهاتنا بـ«البحة» لكي نأكلها أولًا، وكيف أنه كان يُطبق باليومين والثلاثة ساهرًا مُستيقظًا حتى يُحقق لأبيه أمنيته بأن يُصبح أستاذًا جامعيًّا، أما نحن فجيل آخر الزمان، نُريد أن نأخُذ المُؤهل على طبقٍ مِن فضة، ودون أن نبذل أدنى مجهود....

وظَل الرجُل يُقَرِّعُنا دُون سببٍ مفهُوم إلا الافتخار بأمجاده ومُنجزاته، والتي ظَل طُوال أربع سنوات يُعايرنا بها، ثُم قال إنه لن يستطيع أن يُفرغ علينا عِلمًا ويُلحقنا بالمُتفوقين إلا إذا اختبر قُدراتنا الفلسفية، وإلا اعتَذَرَ عَن التدريس لفرقتنا نهائيًّا، ولكن كيف يختبر الرجُل علاقتنا بالفلسفة دُون أن يَشرَحَ لنا هُو أو أي أستاذ غيره أي كلمة؟ وبالتأكيد لم يعترض أحد وأنا أولهُم، ثم استدار الرجُل وكتب على السبورة جملة كان ينطقها أثناء الكتابة وهي:
«الهيرمنيوطيقا وإمكانات المنهج الفونومونولوجي»، وطَلَبَ مِنا بحثًا مُفصلًا في هذا الموضوع.. وهُنا بُهِتَ الذي سَمِع.. إنها جُملة مكونة مِن أربع كلمات، الكلمتان الأوسطيتان مفهُومتان، والكلمتان الطرفيتان طلسميتان، لا يفهمهُما فيما يبدو إلا من يعمل في السحر الأسود، ولكن ما قيمة خط الوسط دون دفاع وهجوم، فنحن نَعرف معنى كلمتي «إمكانات» و«منهج» وحسب، وبذلك نكون قد كسبنا صلاة النبي أحسن.

وحينما رأى الرجُل نظرات الحيرة في عيوننا، وشعر بالخواء الذي تمتلئ به عقُولنا، اقترح علينا -أو أمرنا بمعنى أدق- أن ننزل إلى المكتبة، ونستخدم المراجع، فعلينا أن نتخلص حَسَب قَوله من جوِّ أستاذ «مُحسن« وأبلة

«سوسن» بتاع المدارس، ونتعلم أصول وقواعد البحث العلمي الصحيح، وقبل أن أشعر بالارتياح تجاه الحل المطروح لحيرتنا، باغتنا الرجُل بمُفاجأة من العيار المُؤلم، حيث طَلَبَ أن ننتهي من «هرمنيوطيقته الفونومونولوجية» اليوم، ونقوم بتسليم «البحث» غدًا، وطبعًا صَاحَبَ هَذا الطلب الصادم وصلة أخرى من قَبِيل: «أنا لما كُنت في سِنُّكُم يا حيلتها إنت وهو...»، واختتم الرجُل حديثه بالوعيد، ولم ينسَ التأكيد على ضرورة شراء كتابه؛ حتى نستطيع عمل البحث في الملزمة المختومة والمُلحقة به.

وامتلأت المكتبة بطلبة الفرقة الأولى فلسفة؛ للبحث الأعمى عَن أي كُتاب يحمل عنوانًا به كلمة من كلمات البحث التي لا نستطيع حتى قراءتها، فكُنا كطلبة تجارة يبحثون عن كتاب في «الفارماكولوجي»، وأذكر أن أحد الزُملاء قد استعصت عليه كلمة «هيرمنيوطيقا»، ففتح كشكول المُحاضرات، وأشار لموظف المكتبة على الكلمة، وقال له:

- عاوزين نعمل بحث في البتاعة دي.. نلاقي كُتبها فين اللّٰه يكرمك؟

فابتسم له الرجُل، وأشار إلى قسم الفلسفة الحديثة والمُعاصرة، فانتصبنا جميعًا أمام الكُتب نستجدي الست «هيرمنيوطيقا» كَي تجود علينا ببعض أسرارها، أو حتى تجود علينا بمعناها.

ومرَّت عَلَيَّ الساعات الخمس التي قضيتها في مكتبة الكُلية وكأنها دَهر، وطاف بخاطري التاريخ المُضني من المرمطة لأجل عيون هذا المكان، والآمال الكبيرة والأوهَام الأكبر، هل هذه هي الفلسفة التي تمنَّيتُ دراستها؟ وأخذت أُقارن بين الفلسفة التي قرأتها للدكتور «مصطفى عبد الرازق» في

«تمهيده» والدكتور «يحيى هويدي» في «مُقدمته»، والمُؤلفات التي قرأتها عن «سُقراط» و«أفلاطون» و«أوريليوس» وفلاسفة الطبيعة، وبين فلسفة أخرى دَخَلَتْ فينا شِمال مَرةً واحدةً، بين قراءة حُرة ممتعة ومُرفرفة بعقولنا، ومناهج تمتلئ بالمُصطلحات التي تحتاج إلى فيلسوف؛ لمعرفة معانيها، وجاء سؤال: «هل أخطأت بدخُولي قسم الفلسفة؟» مُبكرًا جدًّا، فاليوم الأول لم ينتهِ بعد، ولكن إذا كانت الفلسفة كُلها كـ«الهيرمنيوطيقا»، حتمًا ولا بُد من الفرار والذهاب إلى دراسة بلا مُصطلحات طلسمية، وهُنا قررت أن أتَّخِذ القرار الصعب.. سأترك دراسة الفلسفة التي ظننتُ خطًأ يُسرها وسهُولتها، فما زالت هُناك فُرصة للتحويل، عَقَدتُ العزم وبَيَّتُّ النية، وبقيت مرحلة الاختيار، هل أقُوم بالتَّحويل من القسم إلى قسمٍ آخر، أم أترك الكُلية بما فيها، وأنتقل إلى كُلية أُخرى؟

وذهبت في اليوم التالي دُون أن أَمنَح لنفسي أدنىَ فُرصة للتفكير، فمِن الحكمة أن نُصحح أخطاءنا فور اكتشافها، وكانت المُحاضرة الأولى لنفس الدكتور، والذي بدا مُتحفزًا منتظرًا مجهوداتنا الهرمنيوطيقية العظيمة، فوجدته يُشير إليَّ وهُو يقول:

- تعالَ يا كابتن انت.

ظننته سيبدأ بي، ولكنى وجدته يطلب مني أن أُوزع ورقة مطبوعة ومُصورة بشكل رديء على زُملائي، ثُم ناولني كيسًا بلاستيكيًّا كي أجمع فيه رُبع جنيه مِن كُل واحدٍ مِنهم، الورقة التي عرفنا فيما بعد أنها تَضُم أسماء الموضوعات المُقررة علينا، وأيضًا أجمع الأبحاث التي قام بها الزُملاء، وقفت مبهوتًا أمام أستاذ جامعي يطلب من طالب أن يلمَّ له رُبع جنيه من الطلبة؛ نظير ورقة

مصورة، مع العلم أن سعر تصويرها في ذلك الوقت كان شلن (خمسة قروش)، مررت بالكيس البلاستيكي كجامع تبرعات، حتى انتهيت ووضعت الكيس و«الأبحاث» أمام الـ«دكتور»، ومعهم بحثي الذي لا يحمل أي كلمات أكثر مِن اسمي واسمه ورقم فرقتي وعنوان البحث الذي وأد طمُوحي الفلسفي في مهده، وقتل الفيلسوف المُحتَمَل بداخلي، فإذا بالسيد الدكتور يرفع عقيرته بالصياح قائلًا:

- اللي جاب البحث هياخد درجة، أيًّا كان اللي كاتبه، واللي ماجابوش يا ويله مِني.

وهنا وقع الكلام فوق رأسي كالمطرقة، أهذا هو التعليم الجامعي؟ أهذه هي الدُّنيا الجديدة؟ أهذا هُو النهار الذي رَجعَ من عتمة ليل الماضي؟ هل هذا هُو أستاذ الجامعة كما رسمته مُخيلتي الساذجة؟ بحثًا لا نفهم حتى اسمه مُلحق بكاتبه، ووجود البحث يعني شراء الكتاب، وانتهى الأمر.

وضعني هذا الموقف في حيرة مِن أمري، فمن ناحية هو داعم لقراري بترك دراسة الفلسفة، ومن ناحية أخرى هو موقف كاشف لما سيكون عليه حال التعليم الجامعي برُمَّته، ثُم إن هذا الدكتور لا يُمثل إلا نفسه، وغالبًا سيكون هناك أساتذة يحترمون أنفسهم ويحترمون طُلابهم، وعلى كُل الأحوال فقد أرجأت قراري حتى أرى ما سيكون عليه حال باقي الأساتذة، وحسنًا فَعَلت، فقد جلست بعد ذلك أمام أساتذة أجلَّاء طمأنوني على حالي وحال الفلسفة وحال التعليم الجامعي، وعرفت فيما بعد أن الأستاذ «بحة الهرمنيوطيقي» لهُ سُمعة كبيرة في تَدني المُستوى العلمي والأخلاقي، وأنه يتعمد استخدام مُفردات عَصية على أفهام الطلبة المساكين؛ كي يُثبت لهُم عبقريته ولوذعيته،

فقد كان يمتلئ طربًا حينما يسمع طالبًا وهو يتعثر في نطق كلمة ما، وأذكر أنه راهن كطفل صغير على من يستطيع أن ينطق كلمة «ترنسندنتالية» عشر مرات مُتتالية دُون خطأ، وبات من المؤكد في الجامعة كلها أن هذا الرجُل يحمل الكثير مِن مُركبات النَّقص تجعله يمشي بخُيلاء ساذج واضعًا البايب الخالي من الدخان بين أسنانه، وهو يتكلم باستمرار بمناسبة وبغير مناسبة عن فتوحاته الفلسفية في باريس ونيويورك وبرلين وموسكو ودلهي، ولكن من حُسن الطالع أن أحد الأساتذة كان يتناوب معه تدريس الفلسفة الحديثة، وتحديدًا عصر «نيتشه» وفلسفة ما بعد الحداثة، فكُنا نحضر للدكتور «بَحَة» هذا مِن باب جبر الخاطر وملء الفراغ وإزجاء الوقت، بينما كُنا نحضر للأستاذ الآخر حُبًّا في الفلسفة وفيه، وحُبًّا في طمُوحنا في الفهم.

وفي يوم مِن الأيام دار سِجَال حامي الوطيس أمام المُدرج بين الأستاذين بصوت مسموع، وكانا حينها يتناقشان في شأن فلسفي لا نعلم عنه شيئًا، كُل ما أذكره أنهما كانا يتحدثان عن «ماركس» و«تروتيسكي» والثورة البلشفية، وهُنا فوجئنا بالأستاذ الذي نُحبه وهو في فورة غَضَبه يلكم الأستاذ «بحة» في وجهه، فيُسقطه أرضًا مغشيًّا عليه، ويتَجَمَّعَ الطلبة والعُمال حول الرجُل الذي فقد الوعي، ثُم يُستدعى أمن الكُلية الذي أمسك بالأستاذ الهائج، وذهب به إلى مكتب عميد الكُلية، وحتى هُنا كُنت أظن أن هذا المشهد العجيب قد انتهى، ولكني فوجئت بعد دقيقتين بسيل مِن طُلاب فرقتي والفِرَق الأخرى يهتفون بصوت عالٍ أمام مكتب العميد القريب مِن مُدرجنا هتافات مُناصرة لأستاذنا الذي نُحبه، وهُنا اضطر أمن الجامعة للتدخُل بقيادة رئيس أمن الجامعة والذي كان برتُبة عميد، فانسحب الطُّلاب إلى مُدرجاتهم، ولكن لم تنسحب حالة السُّخط التي انتابتُهم، وأخذت الحوارات بينهُم كُل الأبعاد

المُمكنة، وكان أبرزها البعد السياسي، حيث الأستاذ «بحة» معروف بكتابة التقارير الأمنية ضد زُملائه بل وضد الطلبة أيضًا، بينما الأستاذ المحبوب يساري مأصَّل أبًا عن جد، وثورجي عتيد لم يترك مُظاهرة إلا وكان في صفوفها الأولى، حتى لو كانت تحت قيادة الإسلاميين، وأن وشاية وتقارير الدكتور «بَحة» كانت سببًا في أن أستاذنا ما زال مُدرسًا رغم أن من في سِنِّه يحملون درجة الأستاذية، أو على أقل تقدير الأستاذية المُساعدة، وطبعًا كان الحديث يدور حول المسائل المهنية، وكيف أن الأستاذ «بحة» لا يفقه شيئًا في الفلسفة، وأن أحد أقربائه المُهمين كان سببًا فيما وصل إليه من درجات ومناصب وترقيات، بينما الرجُل الذي يفهم الفلسفة ويُقدرها حَق قدرها، ويحمل درجة الدكتوراه في الفلسفة الألمانية مِن ألمانيا لا يحظى برُبع ما يحظى به صاحبنا المُدلل، ودَخَل الفراشُون على الخط؛ حيث سمعت أحدهم يقول إن الدكتور «بحة» كان يأتي إلى الكُلية بجلابية وشبشب، وأن أساتذته كان يصفونه بالغباء التام، بل إن رسالته للدكتوراه لم يكتُب فيها حرفًا، بينما استأجر له قريبه صاحب النفوذ بعض الباحثين المُتميزين لكتابتها له.

وطبعًا لا يُمكن التحقق مِن كُل هذا الكلام، وخاصة أنه قد خرج من أفواه غاضبة وعقول أرهقتها هيرمنيوطيقية الرجُل الملكوم، ولكن ما كُنا على يقين منه، أننا لم نستفد من الرجُل بكلمة واحدة مفيدة، حتى كتابه الذي جُزينا حَسنًا لشرائه، لم يكن فيه معلومة واحدة مُتسقة مع الأخرى، فقد كان الكتاب عبارة عن (copy – pest) مِن كُتب أُخرى، حتى أن فونط الكتابة كان يختلف مِن مقطع لآخر، فلم يكُن الرجُل ليُكَلِّفَ خاطره بنسخ المقاطع المسروقة، وإنما يأخذها كما هي وبنفس الخط ويضعها في الكتاب، ما نحنُ على يقين مِنه أن الرجُل يتخذ من التعليم سبوبة يُقلب رزقه مِن خلالها.

وتم وقف الأستاذ المحبوب عن العمل، وتحويله لتحقيق إداري وجنائي أوصى كلاهُما بأنه غير أمين على التدريس، ولا يستحق ألقابه الشريفة العفيفة التي منحته الجامعة إياها، وأذكر أن الأكثر حُزنًا على إبعاد الرجُل كان زميلًا يُقاربني في السن، ولكنه سَقِّيط مِن العيار الفَريد، وله شعر منكوش دائمًا وعينان غارقتان في الجرأة حَد الوقاحة، وفم تشُمُّ منه رائحة الكُحُول على بُعد فراسخ، ونظارة مُطَوّسَة ومُتَرَّبة بشكل سرمدي، لم أرها مرة واحدة مُنظَّفة، حتى إنني كُنت أُشفقَ عليه وعلى عينيه من بَصَمَات اليد وعوامل الطبيعة التي كانت تُصيب نظارته.

وكَغَيري من الطُلاب كُنت أتجنب هذا الولد المجنون المُلحد الفاشل والثورجي مُثير المشاكل، ولكن موقفه وحُزنه الذي ترجمه إلى خُطب حماسية في المُدرج في الأوقات البينية لصالح الأستاذ المحبوب، ثُم إن غمُوضه وثقافته الموسُوعية التي لا تتناسب أبدًا مع فشله المُستمر شَكَّلا لديَّ تساؤلات عديدة، ورغبة في فهمه أكثر، والتعرف عن قُرب على قناعاته ومُستقراته الفكرية، فقد كان الزُّملاء يصفونه بالواد الشيوعي، وفي الحقيقة لم أكن قد قرأت عن الشيوعية ولا أعرف عنها إلا اسمها، وأنها قادرة على إخراج عناتيل التدين مِن دينهم، وكُل ما أعرفه عَن رائدها «كارل مَاركس» أنه قائل العبارة التي لا أعرف مَدى صحّتها بلفظها ومعناها ودلالاتها التي سِيقَت لَنَا: «الدين أفيون الشعُوب».

وكُنت آنذاك مُدَلدَلًا حتى أُذُنَيَّ وغَارقًا في آثار خِطاب الإسلام السياسي، والذي كان في جانبٍ كبيرٍ مِنه إقصائيًّا رافضًا لكُل ما خَلَا أفكاره، الواقعي منها والمُتَوَهَّم رغم ابتعادي عن أصحابه بعد الالتحاق بالجامعة، ولَكِن في

نَفس الوُقت مَنَحَتني قراءاتي اليسيرة في الفلسفة قبل الالتحاق بالجامعة فُسْحَة مِن قَبُول الآخر واستيعابه، فتنازعني الإحساسان، ولكن تَغَلَّب الإحساس الثاني بعد حَدِيث نَفسٍ طويل، وقررت الاقتراب من هذا الزميل المُختَلف، وكان القرار الذي تَسَبَّبَ في تَحَوُّلات فِكرية كُبرى لم أندم عليها لحظة، ولكنني تجاوزتها.

آمنت بالقيم اليسارية، وصِرت من أشَدِّ المُدافعين عنها أمام الجميع، فقرأتُ المُتاح مِن كتابات «ماركس» و«لينين» و«تروتيسكي»، غَرِقت حَتى أذُنيَّ في الأدب الروسي، قبل وبَعد الثورة البلشفية، ورَغم أن هذه المرحلة المهمة في حياتي لم تستمر أكثر مِن عامٍ دراسي واحد، إلا أنها عَلَّمتني الكثير من الدروس، أهمها أن هُناك من يُفكر بشكلٍ مُختلفٍ على الضِفة الأخرى مِن النَهر، وأن الاكتفاء بالسماع المعرفي مُصيبة كبيرة لن يُعالجها أو يحلها إلا أن تنزل إلى النَهر لتغتسل مِن أفكارك الجامدة أولًا، ثُم تَعبره قاصدًا الضِّفة الأخرى للتعرف عليها عَن قُرب، فقد تجد عِندها ما لم يكُن موجودًا في ضِفَّتِك، وقد تَجِد العَكس تمامًا، حيث تَكتَشف أن ضِفتك أفضل مِن تلك الأخرى، ولكن لن يحدُث ذلك وأنت واقف تُداعب أسماك النهر بقدميك على ضِفتك.

وبعد عامٍ مِن الانبهار بالفكر اليساري، والانغماس فيه قراءةً وتقديرًا وانتماءً، جاءنا مَن لا تُرَدُّ فلسفته، لُيخرجنا مِن ظُلمات الأيديولوجيا إلى نور الحُرية الكاملة التي لا تَتَقَيد بنَصٍ ولا بفكرٍ مُغلقٍ يَدَّعِي امتلاك الحقيقة المُطلقة والعدل المطلق والخير المُطلق.. جاء من يهدم فكرة النَسَق أو المَذهب الفلسفي مِن جذُوره ويُعلمنا استراتيجية جديدة لنتعامل بها مع النصوص،

ونُفكك بها الفلسفات الجامدة.. إنه الفرنسي «جاك دريدا» الذي أود أن أُفرد له موضُوعًا مُنفصلًا.

«جاك دريدا»..

صاحب أول ضَربة تفكيكية

الفلسفة بشكلٍ عام تَصدم العَقل المُتَكَلس والمركون حتى الصَدَأ، بينما العقل الذي يفتح نوافذه لتهُبَّ عليه رياح الأفكار المُختلفة، لا تُصيبه الكَمكمة، ولا يَتَعَفَّن فيه الهَوَاء، ولكن هُناك نُوع من الفلسفة يصدم كُل العقول، ويُربك حساباتها، حتى العَقل المُنفتح منها، مِثل «فلسفة التفكيك»، والتي تَعَرَّفت عليها أثناء دراستي بالفرقة الثانية بكُلية الآداب، عَن طريق أحد الأساتذة الغارقين حتى آذانهم في غرامها.

وإرباك فلسفة التفكيك للعقل نابع مِن كونها استراتيجية للتعامل مع كُل النصوص الفلسفية وغير الفلسفية، بطريقة الخلخلة والتفكيك، فالمُفكك يتموضع داخل فكرة مُعينة، ثُم يقوم بخلخلة الأفكار الواردة ومن ثم تفكيكها، حتى ينكشف النَّص ويقف عاريًا تمامًا مما يستره من دلالات مُطلقة وإثباتات يقينية، فيتأكد القارئ بذلك أن هذا النَّص الذي تم تفكيكه لا يتوفر قَط على ما يَدَّعيه من امتلاء واكتفاء وإغلاق، فالتفكيك يُحاول فتح الدائرة التي يسعى واضع النص أن يُغلق بها نَصه، ليُفلت مِن شبهة النقصان أو الزيف، حيث يكشف المُفَكك كَم المُفردات الميتافيزيقية الغارق فيها النَص، والتي لا يستطيع الكاتب إثباتها.

فكانت التفكيكية بمثابة عصا «موسى» التي التَهَمَت كُل ثعابين الفلسفة السمينة، لذلك هَبَّ أهلها للدفاع عنها ضِد غُول التفكيك، حتى وَصَلَ الأمر

ببعضهم إلى أن وصفه بالمُهرج، واتهمه البعض الآخر بالعبثي العَدمي الذي لا يُريد أن يُبقي شيئًا على حاله.

وقَد مَثَل لي «جاك دريدا» وفلسفته آنذاك حالة معرفية فَريدة جدًّا، فهُو أول شَخص أقع في غرام أفكاره دُون أن أقرأ له حرفًا واحدًا؛ لأن كُل قراءاتي كانت عنه وعن أفكاره، ومِن سوء الطالع أن ترجمات كُتب الرجُل حينها كَانت شحيحة، والمُتاح مِنها مُربك وغير مفهوم، وللأمانة فإن ذلك يعود في جانب كبير منه لصعوبة ومراوغة فلسفة التفكيك، واعتماد «دريدا» على بعض المُفردات المُركبة والمُربكة صعبة الترجمة، والتي يحار المُترجم في نقلها، حيث من الممكن أن تُعطي دلالات ناصعة الوضوح في لُغتها، ولكنها ليست بالضرورة كذلك في لغتنا، ويظهر ذلك جليًا في الاسم ذاته، فلسفة (التفكيك) (Deconstruction) حيثُ تُتَرجم في العربية بـ(التشريح/ التقويض/ الهدم/ التفكيك) وتَعدُّد الترجمات يُحيل إلى ما عَبر عنه «دريدا» نفسه، بأن المُفردة لا يُقابلها كلمة تُساويها في اللغات الأخرى، مِمَا يُحيط الأفكار المطروحة بسياجٍ مِن الغموض والضبابية، لذلك كُنا نَلجأ لشرح الفلسفة عن طريق الكُتب المُتاحة لمفكرين عَرب، أو كُتب مُترجمة أيضًا عن نفس الموضوع.

وجاءت زيارة «جاك دريدا» لمصر بمثابة الحَدَث العظيم بالنسبة لي، وكان اهتمامي بالاستماع للرجُل يفوق اهتمامي بأي شيء، فَذَهَبت مُبكرًا وجَلَست في الصفوف الأولى كأجعص أستاذ، وأنا أضع ساقًا فوق الأُخرى، وحين مَرق الرجُل الرشيق النحيف ذو الشعر شديد البياض بجواري ليصعد على المنصة، وددتُ مِن باب المَحَبة لو أمسكته من ملابسه وسلَّمت عليه، وعَبَّرت له بفرنسية مدغدغة عن مَدَى سعادتي بزيارته، ولكنه كان خفيفًا سريعًا،

وبصحبة أستاذان كبيران، أحدهما أستاذ للغة الفرنسية، والآخر أستاذ للفلسفة على ما أذكُر.

وكان الحضور كثيفًا والقاعة مُمتلئةً عَن آخرها، وكان يُمثل الصفوة الفلسفية المصرية وأساتذة الفلسفة، فالمُناخ كان مُعبأ بالفلسفة، والأجواء كلها فلسفية، ودارت الحوارات بين الرجُل وبين الحضور، ولم أجرؤ بالطَّبع على طَرح أي أسئلة وسط هذا الحضور الـ(high level)، ولكن فوجِئت بأن ملامح الرجُل غير راضية عن المُداخلات، والتي بالفعل شعرتُ بأنها ليست على مُستوى أهم فيلسوف على قيد الحياة حينها، وفجأة أبدى الرجُل انزعاجه من سؤال لأحد الأساتذة، والذي كان نَصه: «ألا ترى سيد «دريدا» أن التفكيك الذي يُحارب المذهبية الفلسفية هو بحد ذاته مذهب، وأن مُجَرد وضعه لمبادئ وأُسس يتحول مُباشرة إلى نَسَق فلسفي من ذلك النوع الذي ترفضه؟» فكانت إجابة «دريدا» قاسية، حيث عَبَّرَ فيها عن استيائه؛ لأننا لم نفهم التفكيك، ولم نُكلف أنفسنا بقراءة كتاباته، وأن نَظرتنا تجاهه تحتاج إلى الكثير من التعديل، وكانت كُل ردوده على الأسئلة شبيهة بهذا الرَد.

وانتهت الجلسة، وخَرَجَ الرجُل مِن القاعة، ولكنه لم يَخرج مِن عَقلي، فقررت أن أُكثف قراءاتي حوله، حتى أستطيع فهمه وهضمه، ثُم أخوض رحلة لقراءة ما تيسَّر من ترجماته، وكُنت كالمجذوب في فضاء التفكيك، واستطاع «دريدا» أن يلحَس عقلي بمعنى الكلمة، وظللتُ لفترة طويلة أُسَمِّي نَفسي «المُفَكِّك»، فبدأت أقرأ كُل النصوص الموجودة أمامي قراءة تفكيكية على قَدر ما فَهمتُ مِن التفكيك، وأنا أحمل في عقلي عدة قناعات أهمها أن أي خطاب سواء أن كان دينيًّا أو سياسيًّا أو أخلاقيًّا لا ينفصل عن إرادة القوة،

أي أن الخطاب البارز المُسيطر هو الذي يمتلك القوة على كُل الخطابات الأخرى، والتي بدورها تسعى لاكتساب قُوة تُمكِّنها مِن إزاحة الخطاب المُسيطر، والجلوس مكانه في موقع الصدارة.

وبدأت أتلمَّس الجوانب الإنسانية في فكر الرجُل، مثل نقده القاسي للمركزية الأوروبية، حيث الأوروبي لا يرى إلا ذاته، ولا يتمحور إلا حولها عن طريق مركزيته حول اللوغوس أو الكلمة الصادرة من عنده هو وحده، في حين أن الآخر لا وظيفة له أكثر من تأكيد مركزية هذا الأوروبي المُسيطر، وهي الفكرة التي كانت سائدة بقوة في أزمنة الحداثة الغربية، وجاء فكر ما بعد الحداثة لينتقدها ويزيحها باعتبارها وهمًا يجب التخلص منه، فالاستعمار الغربي في رأيه لم يتأسس فقط على فكرة الغزو الجسدي، بقدر ما تأسس على حيازة آخرية الآخر، ومحاولة محوها وطمسها، لذلك كان «دريدا» الفرنسي المولود في الجزائر حينما كانت فرنسا تحتلها، أحد أبرز الأصوات التي ناوأت الاستعمار، ونادت بحق الشعب الجزائري في الاستقلال، بل وانخَرَطَ في نضال عملي ضد العنصرية بكُل أشكالها، بما في ذلك نقده المستمر لـ"إسرائيل" رغم يهوديته، ودعمه للحقوق الفلسطينية المُهدرة.

ولا أُنكر أنني انحزت للرجُل ولفلسفته بشدة، وصِرت لا أرى أمامي إلا التفكيك، وأبتهِج حينما أجِد شخصًا يُناقشني فيه، ويحمل ولو قدرًا يسيرًا من المعرفة تجاهه، ولكن لا أُنكر أيضًا أنه وفلسفته قد أدخلاني جُحر ضَب، وأهالا التُّراب على بابه، فلا أستطيع الخروج، ولا أجد أمامي منفذًا للدخول، فقد جاء كلاهُما بساطور ضَخم وأعملاه في جسد الفلسفة المسكين، فأثخنوها بالجراح القاتلة، فبدأت أبحث عن نُقاد التفكيكية؛ مَحَبةً في

الفلسفة، وشفقةً عليها، وبالفعل وجدت الكثير مِنهم ما بين الجاد والهازل، وشعرت تجاه قراءة نُقاد فلسفة التفكيك بشُعُورين مُتَضَاربين، فأنا أنتظر مِنهُم المزيد من الضرب على وَتر التفكيك الحساس؛ حتى أسمع صُراخه عاليًا؛ لأنه أفقدني ثقتي المُفرطة بالفلسفة، وشَكَّكَني في كُل الأفكار التي آمن بها عقلي، ومن ناحية أُخرى أنظُر بعين السُّخط لتلك المُحاولات التي تَسعى للنَيِل مِنه وتعريته، وأراها كُلها هي العارية، (أدعي على ابني وأكره اللي يقول آمين!)، ولكن هذه الازدواجية لم تَستمر طويلًا، وسرعان ما عُدتُ إلى يقيني باللايقين الفلسفي، وسرعان ما عُدت للنَظر بعين المُستَريب للمنتوج الفلسفي كُله، وصِرت أتعامل مع مُفردات مِن نوعية «الحقيقة» - «اليقين» - «الجوهر» - «القطعية» ....." بحَذَرٍ شَديد، دُون أن أشعُر بأي خَطَرٍ على صحتي الدينية، فأنا أعتقد أن الاحتياج للدين في حياتنا يسمو فوق عَمَل العقل، فهُناك أداة أُخرى لا أعرفها حتى الآن هي التي تَرَى «ضرورة» وجُود كيان مُفارق نراه دُون أن نراه، ونُحبه دُون أن نَشعُر؛ لأنه في تكويننا وقناعاتنا غير العقلية، وأن هُناك مشاعر كثيرة نُحاول أن نجد لها أسبابًا وجيهة يقبلها العقل، ولكن في النهاية نكتشف أن هذه الأسباب وحدها ليست كافية، مثل شعورنا بالحُب تجاه شَخص ما، فنحن نُحبه أولًا، ثُم نَبحَث عن أشياء مُقنعة كي تُقنعنا بصدق وضرورة هذا الحُب، فنبدأ بالأسباب التي نَظُن أنها كافية مثل: «أصل أنا مرتاح له / أصله بني آدم مُحترم / أصل بيفكرني بابا / ..... إلخ»، ثم سرعان ما نَكتَشِف أن هذا الأسباب لا تُقنع العقل، فنَبدأ بالبحث عن أسباب أخرى قد يقبلها العقل، مثل: إنه ساعدني في كذا، أو إن له الكثير من المواقف النبيلة... ومثل هذه الأشياء، ولكن يبقى أن الحُب حادث، وأن الأسباب ليست أكثر من مُحاولات لإقناع العقل بأن هذا الشخص جديرٌ بأن يُمنح هَذا الحُب.

خَرَجت مِن تجربة «جاك دريدا» أكثر نُضجًا في التعامل مع الأفكار والنصُوص، خَرجت بقناعة غيَّرت علاقتي بكُل المقروء، وهي أن كاتب النَّص إنسان كان موجودًا في مكانٍ (ما) وفي زمانٍ (ما)، وفي ظروف تاريخية ونفسية واجتماعية (ما)، وأن نَصه الذي كتبه كَتَبهُ تحت تأثير كُل هذه الـ(ماهات) السابق ذكرها، إذًا وَجَبَ عليَّ أن أقرأه مِن خلال هذه السياقات، ولا أُحمِّله أكثر مِما يحتمل، ولهذا الأمر تحديدًا حديث مُنفصل.

الشهادة المبرومة

حينما تخرجت في كُلية الآداب قسم الفلسفة كان طموح الأهل هو العمل السريع في وظيفة مُناسبة، فسعيت لإيجاد عمل مُناسب، ولكني لم أجد إلا مهنة التدريس في المدارس الخاصة، حيث إن التعيين في المدارس الحكومية لا يكون إلا لخريجي التربية فقط، بينما خريجو الآداب والعلوم عليهم تدبُّر شؤونهم بأنفسهم إن أرادوا العمل في التدريس

فقذفتُ بنفسي في أتون المدارس الخاصة «الشعبية»، والتي لم تكن أكثر من مشروع استثماري يُدرُّ على صاحبه -المعلم فلان صاحب الفرن، أو الحاجة فلانة زوجة الحاج فلان المقاول- ربحًا وافرًا، ويجعله يتسيَّد ويتسلطن فوق خريجي الكُليات المساكين العواطلية، وكان نَصيبي العَمل في مدرسة في صحراء شَرق القاهرة التعليمية، لصاحبتها الحاجة «حنان»، والتي كما تَصف نفسها «ست شبعانة»، وكانت امرأة صغيرة السن، ولكن بدانتها المُفرطة أعطتها سنًّا آخر فوق سنِّها، ولها زوج يفوقها بدانةً وله شارب عَنتري كالذي يستخدمه الكُفَّار في الأفلام الدينية، كان وقت غضبه على المُدرِّسين يطعن في شَرَف شهاداتهم الجامعية، والتي يُمكنه أن يمسح بها (.....) لو أحب،

وكُنت أحد أصحاب تلك الشهادات التي يُمكنها أن تنال شرف المرور فوق عجيزته الكريمة، رضيتُ حينها بالراتب النَّحيل، الذي كانوا يبررون هُزاله بأننا سنأكلها والعة من الدروس الخصوصية، ولكن ما لم أستطع تحمُّله هو سلوك الطلبة تجاه المنهج، فالمطلوب منك كمدرس أو كـ«بيه» كما كان الطلبة يُنادوننا أن تُبرشم لهم المنهج في أقل عدد من الكلمات، وكُلما اختزلت أكثر صرت صاحبي وحبيبي وكفاءة، وأنا رجُل أعشق الفلسفة، وأخاف عليها من الهواء الطائر، وحينما نَصَبت قامتي للشرح، صُلتُ وجُلتُ في تاريخ الفلسفة، موضحًا وشارحًا ومُفسرًا ومُبررًا ومُؤوّلًا وواصفًا وراصدًا، وكل ما يحمل علامة التنوين تلك (ًا) لم يعجبهم، وشكوني إلى الحاجّة صاحبة المدرسة، والتي استدعتني ذات مرة فذهبت إليها، فوجدتها تضرب ساندوتشات كبدة ومُخ من عربة عم «شكوكو» الذي يقف أمام باب المدرسة، فأشارت لي بالجلوس بيدها التي تحمل نصف طنٍّ من المعادن اللامعة، فجلست أمامها جلسة عريس خجلان جاء لقراءة فاتحة عروسته.

- شوف يا بيه، العيال بيشتكوا منك، وبيقولوا إنهم مابيفهموش منك أيوتها حاجة.

- .....

- أنا هاديك فرصة أخيرة لعل وعسى ربنا ينفخ في صورتك.

- .....

- اتفضل يا بيه على فصلك.

ما أعجبني حينها أنها مُقتضبة الجمل، وحريصة على تكثيف المعاني المطلوبة دون رغي أو ثرثرة، ولكن إعجابي بأدائها لم يمنعني من الاستغناء عن راتب عدة أيام عَمل، وقررت عدم العودة مرة أخرى إلى هذا السيرك العجيب.

رقَّ لحالي صاحبي «عبد الحليم» الذي كان قد تعيَّن مباشرةً فور تخرُّجه؛ لأنه خريجة كُلية التربية، فأحضر لي بعض الدروس الخصوصية في مجال الفلسفة وعلم النفس والاجتماع، وبالفعل ذهبت إلى أولها، وكان لبنت سمراء ضعيفة البدن يتيمة الأب، لها أم لا تقل عنها ضعفًا، ولا تستطيع القيام من مكانها من كَثرة الهُزال، و عفش البيت عبارة عن بعض الأثاث (روبابيكياتي) الهيئة، وحوائط البيت بلا طِلاء وعلى الطُّوب الأحمر، وكانت ملابسهُما تنم عن حالة فقر من ذلك النوع الذي يُسمونه «مُدقع»، آليت على نفسي ومُنذ دخولي البيت للمرة الأولى ألا أخذ مُقابلًا من هذه الأشباح البشرية المسكينة.

البنت كانت نابهة وذكية ولماحة ومُحبة حقيقية للفلسفة، فاكتفيت بها بعد أن تركت كُل الأولاد والبنات الذين جاد بهم عليَّ «عبد الحليم»؛ لأنهم لا يختلفون عَن طلبة مدرسة الست «حنان معادن»، شعرت حينها بأنني أفعل شيئًا عظيمًا، وأنني أُقدِّم للبشرية نابغة فلسفية جديدة، وكانت البنت كأي فتاة مُراهقة تسرح وتهيم على وجهها أثناء الشرح، بل أحيانًا كانت تسرح وتهيم على وجهي أنا، ولم أكُن أُقابل ذلك بالصد أو الجفاء، بل أُشجِّعها على أن تُحبني، فقط أضبط لها البوصلة، فأنا بمثابة الأب المفقود لا أكثر ولا أقل، ظل الأمر على ذلك الحال حتى انتهى العام وأنا دون عمل، إلا من هذه الفتاة الرقيقة مجانية المُقابل، وفي الحقيقة لم تكُن مجانية تمامًا، فقد منحتني

بهجة كبيرة وثقة أكبر في نفسي وفي أدائي كمُعلم، حينما أينعت ثمارها الزكية بعد أن ظهرت نتيجتها التي زيَّنها الامتياز في كُل المواد، وكانت المرة الأولى والوحيدة التي أحتضنها فيها، وكان ذلك في حضرة الأم، وفي فناء مدرستها، وبكى ثلاثتنا في لحظة سعادة نادرة، وحينما جاء وقت اختيار الكلية عبثًا حاولت إقناعها من الاستفادة بالمجموع الكبير والالتحاق بكلية من كليات «القمة» كالاقتصاد والعلوم السياسية أو الألسن أو الإعلام، ولكن كان الرد الحاسم:

- آداب فلسفة يا مستر.

ولم أستطع إثناءها عن رغبتها الواثقة المتينة.. وقَد كان.

ولو قفزتُ بك -عزيزي القارئ- قليلًا سأقول لك شيئًا واحدًا فقط، وهو اسمها الآن.. الدكتورة فلانة فلان الفلاني.. وأنها وأمها تعيشان بمنزل جديد له أثاث آدمي، وأن التواصل ما زال قائمًا بيننا حتى تلك اللحظة، لنفسي وليس لها، فقد علَّمتني هذه الفتاة الرائعة أن صاحب الطموح لا يجب أن يعوقه أي شيء، وأن الرغبة في تحقيق الذات لا بد أن تعلو فوق كُل العقبات.

وخلال تلك السنوات جاهدت للعمل في أي شيء إلا التدريس، وبجوار العمل قررت أن أمنح نفسي فُرصة تعليمية ثانية، لعلها تُخرجني من أتون البطالة المُقنعة الذي أرزح فيه، وكان قرارًا عجيبًا اتخذته أثناء النوم، ولذلك حكاية لطيفة.

في إحدى الليالي الصيفية والأرق يُسيح العقول، خلدت إلى النوم بعدما جاهدت كثيرًا للوصول إلى لحظته الناعمة الساهمة، وأثناء ذلك الوقت

المخملي بين اليقظة والنوم، حيث الاثنان موجودان دون ترجيح لأحدهما على الآخر، أراني أدخل إلى محكمة كبيرة مُرتديًا روب المُحاماة، وأقف أمام القاضي، وأنظر في عينيه بقوة، وأبدأ مُرافعة عظيمة لا أذكر منها حرفًا، انتهت المُرافعة بتصفيق حاد من الجماهير الغفيرة حيث تحولت ساحة المحكمة بقُدرة قادر إلى استاد كبير يُصفق فيه الناس، وأنا أقف لأُحييهم، وحينما استيقظت لم أُكذِّب خبرًا، وقُمت مُسرعًا حاملًا حقيبة الأوراق المهمة والموجودة في كُل بيت مصري، وارتديت ملابسي على عجل قبل أن تنطفئ الفكرة في رُكن الرغبات داخل عقلي، وذهبت مُسرعًا إلى كُلية الحقوق طالبًا الانتساب إليها، رغم أنني في ذلك الوقت كُنت أُحضِّر للماجستير في الفلسفة، المُهم.. ارتكبتُ الجريمة سريعًا، وكأن القدر يُريد توريطي في هذا الاختيار العجيب، خرجت من حرم الجامعة، وأنا مذهُول من هذا الفعل المُتعجل، حُلم يُحركني بهذه الطريقة المكوكية، هل أوتيت علم «يوسف» في تأويل الرؤيا؟ ما هذه الثقة الواثقة؟ ما هذه العجلة من الأمر؟ ثُم ما هذه الكُلية التي دخلتها؟؟؟

سنوات أربع عجاف مرَّت وأنا أدرس مواد لا أستسيغها، ولا يستطيع عقلي أن يتجاوب معها، ليس لعيب فيها، وإنما لعيب في خيالي الجامح، والذي لا يُريد الهبوط فوق أرض الواقع، ورُبما لمُقارنتي المُستمرة بين ما كُنت أدرسه بمحبة في كُلية الآداب، وبين ما أجبرت نفسي على دراسته دون أسباب واضحة أو حتى خفيَّة في كُلية الحقوق.

كُنت مُتزوجًا في ذلك الوقت، وأعول أسرةً مُكونة من زوجة وابن وحيد رضيع، وكان عليَّ العمل بجوار الدراسة؛ حتى أستطيع أن أُوفي باحتياجات

الأسرة من مطعمٍ وملبسٍ وبامبرزٍ وسيريلاكٍ، وكُنت قد قطعت شوطًا واسعًا في القراءة بكُل أشكالها، فلماذا لا أستغلُّ هذا الشوط الواسع في عملٍ ثقافي بدلًا من مرمطة الأعمال غير المواتية كالتدريس وخلافه، ورُبما يكون العمل في مجال الصحافة هو الأقرب إلى الذهن من أي مجالٍ آخر، ولكن كيف الولوج إلى بلاطها، وأنا شخص عَدِيم المعارف معدوم الوسايط، ففكرتُ في طرق الأبواب بشكل مُباشر، ولكن الصحافة في بلادي لا تُمطر جُنيهاتٍ ذهبيةً على رؤوس المُبتدئين أمثالي، ولا تُمطر حتى جُنيهات فضية من تلك التي نتعامل بها في المُعاملات اليومية، فالعمل مجاني بشكلٍ كامل، وكان العزاء الوحيد هو وجودك في الوَسَط، وانخراطك في عمل كُنت تتمناه، وأيضًا كما كان يقول لك رؤساء تحرير الصُّحف التي عملت بها:

- أنت بتعمل تراكُم يا أستاذ.

ولكني قُلت لهُم لا أريد التراكم، ولا أُريد أيضًا أن أراكُم، فأنا في حاجة إلى دَخل يناسب رجُلًا يعول، وحاصلًا على شهادتين عاليتين، ويَقوم بالتحضير لما هُو أعلى، فكان القرار.. لماذا لا أستفيد مِن شهادة الحقوق التي حصلت عليها، الأمر لن يحتاج أكثر مِن رُوب أسود بشراشيب صفراء، ولافتة صغيرة تُعلق أعلى شباك بيتي، واللّٰه الرازق يَرزُق الهَاجع والنَاجع والمُحامي أيضًا.

ظَلت اللافتة مُعلقة قرابة شهرين، ولم يُعبرني أي أحد، سألت صديقي «عبد اللطيف» المُحامي عن تصوُّره لأسباب المُشكلة، فأكد أن عَلَيَّ أولًا أن أتدرب في مكتب محامٍ كبير (مثله)؛ حتى يتعود جُمهور المُتقاضين على شَكلي، وحينما أفتح المكتب أكون مألوفًا للسادة المُجرمين وأرباب السوابق،

والزوجات الخالعات والأزواج المُطَلِّقُون، وحينما سألته عن طبيعة عملي في مكتبه، قال وهو يضحك ضحكة بلهاء:

- صبي مُحامي يا حُبي.

خُضت التجربة مُكرهًا، وكان اليوم الأول الذي ارتديت فيه بدلتي الكُحلية الكتان، والكرافت البيج وارد محطة رمسيس، وحقيبتي الدبلوماسي وحذائي اللميع والروب الذي استلفته من الأستاذ «عبد اللطيف»، كانت مُهمتي هي الذهاب للمحكمة، وتخليص بعض الأوراق بدلًا مِن «عبد اللطيف» أفندي، وأول القصيدة أن البدلة الكتانية سهلة التكرمش كانت قد تبهدلت وتنيلت وتَقَندَلت في المواصلات، والكرافت الشيك تم خلعها ووضعها في جيب الجاكيت؛ لأن الجو كان كله فرهدة، بمعني أنك تربط فيه القرد يقطع، أما ثاني القصيدة والذي أتى على المهنة الوليدة بالضربة القاضية، هو منظر المحكمة المُزدحمة بشكل لم أكن أتصوره، والطوابير المليونية التي وقفتها أمام مكاتب السادة أُمناء السر والموظفين، أما ما أنهى اليوم لصالح البطالة فهو طابور الأسانسير الذي كان أشبه بيوم الحساب، وقفت فيه كغيري من السادة المواطنين والسادة المُحامين داعيًا اللّٰه أن ينتهي هذا اليوم على خير، وفجأة وجدت رجلًا مُسنًّا يُهرول ناحيتنا، ويُزيح الوقوف بعنف وغلظة وهو يقول:

- وسّع للباشا يا ابني.. وسع للباشا يا عم.

ومَرَق الباشا الذي لم يكن عُمره قد تجاوز العشرين إلا بأعوام قليلة، وبمجرد أن دخل الباشا الأسانسير لففت وجهي، وخرجت من المحكمة بلا رَجعَة،

وحينما سألني «عبد اللطيف» عن أسباب اتخاذي لهذا القرار المُتعجل، قذفتُ بالأوراق والروب في وجهه، وأنا أقول له:

- اللّٰه الغني.

وذَهَبت إلى البيت، وأنا لا أعرف ما الذي عليَّ فِعله.

قولٌ مُنفَصل

ولكنه ليس خارج السياق

ربما يحتاج الحديث عن القراءة وعن فضلها وأهميتها كتابًا مُنفصلًا..

بل كُتبٌ كثيرة، ولكنني لا أستطيع تمرير هذا الكتاب دُون أن أُحدثكم قليلًا عن فعل القراءة الحبيب، لا سيما وأن الكتاب يحكي عن علاقتي بالقراءة مُنذ بداية الوعي، ومرورًا بالمراحل العمرية المختلفة، وحتى الوصول إلى مرحلة بدايات العمل في مكتبات (أ)، والتوقف عند بعض المحطات هُناك، وهي مرحلة تحتاج بالتأكيد إلى إفراد كتاب خاص بها، وقد عزمت النية على ذلك، وليُعنِّي الله على ذلك.

لماذا القراءة؟ وهل تستحق كُل هذا العناء؟ وقتٌ ومجهودٌ وأموال!!!

اعلم يا صاحبي

أن القراءة لمن يعرف أهميتها هي فعل الضرورة.. هي ماء نبات العقل وهواء قلبه، هي الفعل الذي يجعلنا أكثر إنسانية، هي سعادة الحضارة وأريجها الفواح، فبدونها يصمت التاريخ، ويخرس الأدب والإبداع، ويتوقف العلم، ويتجمد الفكر والتأمل.

قديمًا قال «سقراط» سيد سادات الفلسفة وحامل لواء الفضيلة والمعرفة: «تكلم حتى أعرفك»، ونحنُ حينما نتكلم إنما نتكلم من خلال خبراتنا

المعرفية والتي نستقيها غالبًا مِن الكُتب.. فالكتاب خَير مُعرف إذًا.. قُل لي ماذا تَقرأ أقل لك من أنت.

واعلم

أن القراءة فعلٌ يُحب النمو، فلا تحرمه من الصعود المُستمر إلى عنان السماء، اغرس شجرته.. تتبعها بالسقاية والاعتناء.. لا تحجب عنها الضوء، ولا تمنع عنها الماء.. وكُن كـ«غاندي» العظيم حينما قال:

«تعلمتُ أن أفتح كُل نوافذ بيتي؛ لتهُب عليه رياح جميع الثقافات.. بشرط ألا تقتلعني من جذوري».

فافعل ذلك، وإلا أصاب عقلك العَطَن، وأصاب خيالك العَفَن؛ فالكتب هي النوافذ التي تطل منها نفسك على عوالم المعرفة والخيال، فبيت بلا كُتب هو بيت بلا نوافذ.

واعلم أيضًا

أن القراءة ليست أكوامًا من الورق الميت والموضوع فوق أرفُفٍ صَمَّاء.. إنها عقولٌ حية تخرج مِنها أصوات الماضي والحاضر والمُستقبل.. إنها عقولٌ حاربت وناضلت وجاهدت مُتع الحياة ونعيمها؛ حتى تضع في يدك ويدك أنت بالذات خُلاصة اجتهاداتها وعُصارة تحصيلها.

واعلم

أن القراءة فعلٌ دائم الحدوث، فأينما سِرنا وأينما حللنا نحنُ نقرأ، نقرأ حيواتنا وحيوات الآخرين.. نقرأ صفحة السماء وأديم الأرض.. نقرأ الطبيعة من حولنا.. نقرأ لوحة الرسام وسيمفونية المُوسيقي.. نقرأ أفكار وإبداع الآخرين بين دفتي الكتاب.

واعلم

أن القراءة ليست فعلًا سلبيًّا.. فأنت سيد قراءتك.. أنت سيد كتابك، إنها جدل ونقاش هادئ أو عاصف بينك وبين الكاتب، والذي قد يكون في باطن الأرض من مئات السنين، حوار عادل بينك وبينه، هو يقول وأنت تُنصت.. توافق.. تُعارض.. تنتقد.. بل تُعَدِّل أيضًا.

أنت كلاعب البيسبول الذي يمسك بالعصا ليستقبل الكُرة.. فبدونك تَفسَد اللُّعبة ولا تَصح، فاستقبالك للكلمات هو شِطر الإبداع.. فأنت تُبدع الكتاب قراءةً كما أبدعه الكاتب كتابةً.. فكلاكُما يقوم بعملية الإبداع.. هو قد أنجز كتابته في الماضي القريب أو البعيد، وأنت من قدمت لنا قراءته في الحاضر.. الآن.. وما أدراك ما الآن.. الآن هي العيون التي ترى الماضي، وهي الآفاق التي تستشرف المستقبل....

كُـن

صاحب عين ناقدة.. إياك والعين المُسلمة المُستسلمة.. فهُم رجال ونحن رجال.. هم يكتبون ما تراه عقولهم، ونحن نقرأ بالطريقة التي تراها عقولنا.. عقلٌ يُقابل عقلًا.. لا عقل يخضع لعقل.. فارس القراءة في مقابلة فارس الكتابة.. كلاكما فارس كلمة...

كُـن

صاحب عينٍ راصدة.. صاحب عينٍ واعية.. صاحب عينٍ حاصدة.. صاحب عينٍ مُبدعة.. المُهم أن تكون صاحب عين.. فلا تجعل القراءة فعلًا في العماء...

اجعل

لعقلك سطوةً مُساويةً لسطوة الكتاب.. بل زِد عليها.. فللكتاب سطوة لا يستطيع الإفلات منها إلا كُل ذي عقلٍ حصيف.. حصيف؛ لأنه يُقَدِّرُ نفسه، ويعلم أن الكتاب يطرح أفكارًا قد تكون صائبة موفقة وقد لا تكون.

إياك

ومن يقولون إن القراءة فعلٌ لا جَدوى منه، فنحن -حسب زعمهم- نعيش عصر السماوات المفتوحة والإنترنت، وكل المعلومات مُتاحة لمن أراد، فما الداعي للإمساك بالكتاب إذًا!؟

قُل لهُم إن سُوشيال ميديتكُم لا تصنع المعرفة، وإنما فقط هي تُعطيني المعلومة، وفرقٌ كبير بين المعرفة والمعلومة، فالأولى يُعطيني إياها الكتاب، وهي ذات نَسق ووحدة موضوعية مُتكاملة، أما الثانية فشذرية مُتفرقة، خَبرٌ مِن هُنا على خبر من هُناك، معلومة من الشرق على أُخرى من الغرب.

فوحده الكتاب هو القادر على خلق هذه الحالة المعرفية المُتسقة، وحده الكتاب هو الذي يمنحني شعُورًا حميميًّا مُحببًا، هو الصديق الذي لا تخيب صداقته، والحبيب الذي لا يخُون أحبَّته.

إياك

ومن يقولون إن الوقت أضيق من منح بعضه للقراءة.. فهؤلاء خائبون، مُتحَججون، وحُجتهم سقيمة.

فأولًا: القراءة فعلٌ يُغير مسارات الحياة للأفضل، القراءة تُنير العقل وتُجلي الوجدان، إذًا القراءة تستحق أن نمنح لها بعض الوقت والجهد، تستحق أن نستقطع لها الوقت كأي شيء أساسي في الحياة.

ثانيًا: ألا تعلم أيها المُتحجِّج أن نصف عُمرك تقريبًا يضيع في الفترات البينية، يضيع في الأوقات التي تتخلل الأشياء المهمة التي تقوم بها، ألم تحسب مرة واحدة عُمرك الذي أفنيت بعضه في وسائل المواصلات، في عيادات الأطباء، في المصالح والمؤسسات المُختلفة حينما تُنجز مُهمة ما أو تنهي بعض المُعاملات؟!

أتعلم أيها المُتحجِّج أن هُناك مؤسسة نشر في الولايات المُتحدة الأمريكية معنية فقط بطباعة كُتب تصلح للقراءة لعمليات القراءة القصيرة جدًّا اسمها (American body reading in bathroom الهيئة الأمريكية للقراءة في الحمام)؟

ألم ترَ الناس في البلدان المُتحضرة يمسكون بالكُتب في كُل مكان؟

فراجع حُججك وحاول أن ترى غيرها.

عُدَة القراءة وعتادها

أهِّل نفسك لخوض التجربة.. افتتح الأمر بالنية الصادقة للقراءة والفهم ومُحاورة المُؤلف.

الكتاب الآن ملكك، أنت سيده الوحيد.. اقرأه.. اقرأ ما بين أسطُره.. فليس بالاقتناء وحده تمتلك الكتاب.

ضَع العلامات.. اكتب المُلاحظات.. فلتبقَ مُتيقظًا.

فالقراءة حوار عادل بينك وبين الكاتب فلا تُميزه عنك.

فلتُدرك إذًا حقيقة مُهمة.. حقيقة إبداعك كقارئ للكتاب الذي تقرأه.

ولتعلم أن القراءة مصيدة الأفكار.. مصيدة المُفردات.. فوسِّع حصيلة أفكارك ودائرة مُفرداتك.

احتفظ

لنفسك بحق التعليق على الكتاب.. فلتُدوِّن قراءتك.. إنها سِجلٌّ مُهم في تاريخك الشخصي، إن لم تَعُد إليه ثانية فقد يشهد خطك داخل الكتاب على نُضج قراءتك واستيعابك.. إذًا فقلمك الرصاص عُدةٌ لا يُمكن الاستغناء عنها..

إنه ملكك

هامش الكتاب.. جُعل خصيصًا لك.. هيا غَيِّر بياض ساحته بقلمك ومُلاحظاتك.. هيا أرِنا كيف فهمتَ واستوعبتَ، هيا ضعِ الدوائر على كلماتك المفتاحية.. ضَع الخطوط تحت كلماتك الكاشفة أو الدالَّة.

فليكُن لك دفتر مُستقل تُدون فيه تعقيباتك.. نقدك.. إعجاباتك.. تحفظاتك.. تمنياتك.. سُخطك.. لا تخف فلن يقرأه الكاتب.. حتى وإن قرأه فلن يغضب إن كان حصيفًا.. وإن غضب فماء البحر وافر لأمثاله.

اقرأ

لنفسك وللآخرين..

اجعل لأبنائك نصيبًا من ذاتك القارئة..

اشترك معهم في متعة قراءة كتاب..

فإن القراءة تُوسِّع لديهم دائرة الخبرات المعرفية، كما تُحقق لهُم المُتعة والتسلية فضلًا عن الاستفادة، كما أنك تضمن عدم انشغالهم فيما لا يُفيد، وطبعًا لا تستثنِ اللعب؛ فهو جدّ مُفيد.

فلتسْعَ لإكسابهم عبر القراءة حسًّا لُغويًّا سليمًا، وأداءً أحسن في الحديث، ولتُنمِّ لديهم ملكات التفكير القويم، ولتدعم لديهم القُدرة على حل المُشكلات التي يواجهونها.

الحدوتة

لها فعل السحر في مراحل حياتهم الأولى.. لا تُغفلها وقدِّرها حق قدرها.. فإنها تُوسع مداركهُم وتزيد الروابط والحميمية بينك وبينهم، بل ستُحفزهم على استكشاف الأمور بأنفسهم فيما بعد.

خصِّص

وقتًا للقراءة مع أبنائك الصغار، ولتبتعد عن الطرق الجافة والتقليدية في الحَكي.. فلتكُن مُمثلًا مُجيدًا.. مثِّل معهم الحدوتة.. امنحهم أدوار البطولة.. أدوارًا نبيلة تجعلهُم أسياد الحدوتة وفرسانها.

ناقشْهم فيما قرأتَ لهم.. ناقشْهم فيما قرأوا.. نمِّ لديهم ملكات النقاش والنقد.. عرِّفهم معنى أن يكون لهُم رأي.. خالفهُم واجعلهُم مختلفين.

صاحبْ

أهل القراءة ومُحبيها؛ فهُم للسواء النَفسي أقرب من غيرهم.. هُم لفهم الآخر المُختلف عنهُم أقرب.. فاصطفِ من يصطفي الكتاب فهُو خير مُصطَفَى.

«الناس مَوتَى وأهُل الحَرف أحياء»

ندوة ما في مكانٍ ما

بعد تخرجي في كُلية الحقوق، وأثناء عملي المجاني في الصحافة الورقية، كان لا بُد مِن الارتباط بالوسط الثقافي بشكلٍ ما، وأهم رباط حينها كان حضور الندوات الثقافية وحفلات التَّوقيع (الوليدة في ذلك الوقت)، فبدأت أبحث عن الأماكن الشهيرة التي تُقيم هذا النوع مِن الفعاليات داخل القاهرة، حتى نصحني بعض الأصدقاء بالذِهاب إلى مكانٍ ما تُقام فيه أهم الندوات في مِصر، حيث أستطيع مِن خلاله تكوين شَبَكِة علاقات ثقافية مَتِينة، وبالفعل تَتَبَّعت أخبار الندوات هُناك، والتي كانت تُنشر في جريدة أخبار الأدب، وذَهَبت مُتحمسًا وعقلي مُمتلئ بتصورات كثيرة عن تِلك الأماكن التي لم أكُن قَد ارتدْتُها مِن قَبل، وحينما وصلت قابلني رجُل بدين له ملامح لطيفة يبدو أنه الفَرَّاش، سألته عن مكان النَدوة، والتي كانت لمُناقشة ديوان لشاعرة مصرية، قالوا إنها كبيرة، فابتسم الرجُل ابتسامة ودودة، وأشار إلى القاعة المُخصصة، وما أن رأيتها حتى فَتَرَت حَمَاستي التي جئت بها، فالمكان شِبه مهجور، رغم أن مُوعد الندوة كما هو مكتوب في الجريدة بعد عشر دقائق مِن الآن، والمقاعد كلها خالية إلا مِن رجُلٍ مُسنّ رُبما في العقد السادس مِن عُمره، يمسك بالديوان مَحَل المُناقشة ويُقربه مِن عينيه بعد أن يرفع النظارة فوق جبهته،، ثُم يزَفَر زَفرة تَهِدّ الجِبال الرواسي، ثُم ينظر في ساعته ضَجرًا.

الفراغ والهِوّ مِن حوالي جعلاني شديد التركيز مع رِيأكشناته المُمتعضة والبادي عليها الرفض المُطبق لكلمات ديوان الشاعرة الكبيرة، وفجأة باغتني

الرجُل بنَظرة فاحصة، ثُم قام مُتثاقلًا مُستندًا على عصاه وجلس بجواري ثُم قال:

- قرأت الديوان؟

أجبته بلا، فرفع حاجبيه مُزبهلًا:

- إنت قريب الأستاذة بقى.

أجبته مرة ثانية بلا.

- صحفي؟

أرحته هذه المرة وقُلت نَعَم.. فسألني عما سأكتبه في تغطيتي للندوة، فكان ردِّي أن الندوة لم تبدأ بعدُ..

- يعني هتمدح ولا هتشتم؟

فأجبته بأنني سأتكلم بموضوعية، فقال لي:

- إن الديوان ليس فيه ما يستحق.

فكررت ثانية أنني سأتكلم بموضوعية، فأشاح لي بيده وقام مُبرطمًا، ولم أفهم مِن برطمته إلا بعض الكلمات مِن قَبيل: «موضوعية آه... إن شاء الله.. هاها.. ابقى تعالى قَابلني»، قُمت مِن مكاني وذهبت إلى الفَرَّاش البدين اللطيف، وسألته مرة ثانية، فطمأنني بأن كُل شيء على ما يُرام، وأن الشاعرة

الكبيرة قد وصلت، وهي الآن تجلس في مكان قريب حتى يحين الموعد، فأكدت له أن الموعد قَد حان مَنذ ثلث ساعة، فقال:

- لاااااااااا ما هم بيكتبوا المعاد بدري شوية على ما الناس تيجي، إنت عارف بقى مواعيد المصريين يا بيه.

فعُدت إلى القاعة، وكُنت حريصًا على الجلوس بعيدًا عَن الرجُل الحانق الذي يَطق شَرَار.

وبَعد حوالي ساعة إلا رُبع جاءت الشاعرة الكبيرة تتهادى في مشية طَاووسية بِكَعبٍ عالٍ وجِيب قصير ومفتوح عِند أعلى السّاق، يُحيط بها بعض الرجال المُتَعَرقين والمُرتدين لبِزَّات ثقيلة ورابطات عُنق خانقة رَغم أننا كُنا في شَهر يونيه الحارق، والمكان بلا أي وسائل تُعين على هذا الجَوّ القَائظ، فقط مروحتا سَقف تُصدران مِن التزييق والأزيز أكثر مما تُصدران مِن الهَوَاء، وصَعَدَ جميعُهم فوق المنصة، وظَللت أنا والرجُل الحانق بمُفردنا جُلوسًا في مقاعد الجمهُور، نَظَرَ أحد أصحاب البِزات الخانقة في ساعته غاضبًا، ثُم توجه بحديثه للجمهور (أنا والرجُل) قائلًا بصوتٍ زاعق:

- واللّه مِش معقولة المصريين ومواعيدهم.. وبس حضراتكُم تَكفُونا طبعًا.

ثُم دَخل في المُوضوع مباشرة، وألقى كُل ما في جوفه في وجوهنا، مُتحدثًا عَن عَتبات النص، وأهميته مِن وجهة نَظَر الدراسات اللُغوية للوظيفة الشعرية، وعن مجهودات الكاتبة ما بَعد الحداثية، وسيميائية النَّص الشِّعري المُعاصِر والكَثير مِن المُصطلحات التي لم أكن أنا شخصيًّا أعرف عَنها أي شيء، وأظُن أيضًا أن الحاج الجالس بجواري في موقع المُتلقين لا يَعرف

عنها شيئًا، وبعد قُرابة نِصف ساعة مِن استعراض العضلات المُصطَلحَاتية عِند أخينا الناقد، قال إنه لا يُريد أن يُطيل علينا، وتَرَكَ الكلمة للدكتور فُلان الفُلاني، والذي كان قَد أخرج مِن حقيبته المُنتفخة عِدة ورقات فلوسكاب مكتوبة بخط اليَد، وأخذ يقرأ وهُو يُشير بإصبعه كأنه يتوعّد أحدًا ما، رغم أن الكلام لم يكُن به أي وعيد، ولكن يبدو أنه لم يتعلم إلا هذه الحركة أثناء الحديث، لَفَتَ نَظَري الرجُل الستيني بجواري، وهُو يُجاهد كي يَظَلَّ مُستيقظًا، ولأن النوم بيجيب نوم، وَجَدت نفسي أتثاءب أنا الآخر.

وجَدير بالذِكر أن الحَرج فَقَط هُو الذي مَنَعَني مِن الانصراف بعد عشر دقائق مِن بداية الندوة المَجِيدة، باعتباري نِصف الجُمهور العريض (والعريض هُنا عائدة على الجمهور، وليس عليَّ أنا بالتأكيد).

وبعدما انتهى السيد الدكتور مِن مُداخلته أعطى المجال للشاعرة الكبيرة كَي تُلقي علينا بعَضًا مِن دُررها الشعرية النفيسة، فتنحنحت واعتدلت في جِلستها، ورَفَعت نظارتها التي كانت قَد تَزَحلقت لتستقر فَوق أرنبة أنفها، ثم فتحت الديوان وبدأت في القراءة، وهُنا حَفَّزت مَلَكَات التَلَقِّي في عقلي ووجداني، حيث إنني مِن عُشاق الشعر ومُريديه، كَما طرطقت أذُناي للوقُوف هذه الدقائق في بُستان الشِّعر الساحر، ولكن أثناء إلقائها وجدت أنني محتاج للوقوف هذه الدقائق حِدادًا على رُوح قُدرتي على استيعاب الكلمات المُلقاة على قارعة النَدوة، فالسماء مُلبدة بالغيوم، والأرض تحوم تحوم، والجميع مُلتف حول التخوم، في هذا اليوم المزعوم عُوم عُوم عُوم.

وبعد أن أتحفتنا الست الشَّاعرة بنَصٍّ مِن نُصُوصِها العصماء، قام أهل المنصة الشُّرفاء بالتصفيق لها بسخاء، وقُمت أنا أيضًا كجمهور بأداء دور المُستمع

المبهور، ولأن الستيني الجالس معي كان قَد غَطّ في النَوم، فلم يبقَ لهُم جمهور إلاي اليوم.

ثُم قَامت شاعرة البَرَّين، وفاتنة البحرين بعد انتهاء وَصلة نَحر الشِعر العَربي المُعاصر بتقديم السيد الأستاذ الصحفي الذي جاء خصيصًا من بلاد الواء الواء ليكون بجوارها يوم المَشهَد العَظيم، فبدأ حديثه بالتأكيد على أنه ليس شاعرًا وليس ناقدًا للشِعر، وأن قراءة الشِّعر أيضًا ليست مِن هواياته، بل أزيدك مِن الشِعر بيتًا، أنه لم يقرأ الديوان، ولكنه جاء خصيصًا؛ لأنه مُتأكد مِن أن الشاعرة العظيمة من الذين تُشَدُّ لهم الرحال، ثُم أشاد بوطنيتها وحيويتها، وهُو يُبادل النظرات بيننا وبينها، وحينما صَفَّق أهل المَنَصة على هذه الكلمة الهزيلة، صَفَّقت معهم كي أؤنس وِحدتهم، كما أمنح نَفسي صِفة مُشارك وفاعل في هذا اليوم الفُقاعي.

وبعد انتهائهم مِن الحديث المُوجَّه لشخصي، باغتني أحدهُم بسؤاله إن كان لَدَيَّ سُؤال للشاعرة؟ فارتَبَكتُ ولم أجد أمامي إلا الإشادة بشخصها الكريم وعملها العَظيم، وكان الرجُل الجالس بجواري قَد استيقَظَ بَعد أن أخذ كفايته الشِّعرية مِن النوم، فَرَفَعَ يَده طالبًا المُداخلة، فَوَضعت يدي على قلبي خُوفًا مِن إظهار امتعاضه، وإفساد فرحتها واحتفائهم، ولكن ويا للعَجَب وَقَف الرجُل مُنتصبَ الظَّهر الذي كان واهنًا مُنحنيًا طوال الندوة، مُعرفًا بنفسه وأنه الأستاذ فلان الترتاني كبير كُبراء مش عارف إيه، ورئيس رابطة اللي مادرك إيه، وعميد طائفة اللي مابصر إيه، ثُم قال في القصائد قصائد، وفي الجمال جمال، وكان عِتابه الوحيد للست هو أنها مُقلة في دُررها الشِعرية، ونفحاتها اللوذعية، ثُم صَعَد إلى المَنَصة ليُسَلِّم عليها ويستأذنها في رقم هاتفها.

وانتهت الندوة كوقت، ولكنها ظَلت مُستقرة في ذهني مُدة طويلة، هل هذه هي الندوات الثقافية؟ بالتأكيد حَظي العَثِر هو الذي أوقعني في شِر أعمالي وجعلني أحضر هَذا الهُراء المُسمى نَدوة، لا بُد أن هُناك فعاليات حقيقية، تكُون مصدرًا للاستفادة والاستمتاع، وحتى لا أُكَوِّن قَناعة مِن خلال ندوة واحدة، حرصت أن أُكَثِّف مِن حضوري للندوات، والتي للأمانة كانت فِي مُجملها أفضل كثيرًا مِن نَدوة الولوج إلى هذا العالم، ورُبما كانت هذه الندوات تحمل فائدة ما للجالس في مقاعد الجمهور، ولكن ما لاحظته أن كُلها تدور على نَفس الوتيرة، (كاتب – ناقد – أستاذ جامعي)، وأن الاستعراض النقدي فيها يكون أكثر مِن الرغبة في التواصل مع المساكين الجالسين بالأسفل، والذين يعتبرونهم طَرفًا دُخانيًّا في مُعادلة النَّدَوات، رَغم أنهُم الطرف الأصيل، فبدونهم لا تقوم للندوة قائمة، فيُمكن الاستغناء عن الناقد وعن الأستاذ الجامعي، بل عن الكاتب نفسه، (فأحيانًا تُقام ندوات عَن كُتَّاب غير أحياء)، ولكن بدون جمهور فلا مَعنى لأي فعالية، وأقصد هُنا بـ(بدون مُتلقٍّ) ليس فقط الحضور الجسدي الفيزيقي، بل أيضًا حضور العقل والوجدان والعاطفة، حضور البهجة والابتسامة والروح المُتفاعلة، حضور المُشاركة والفاعلية، ولكن -للأسف- الكثير مِن مُتَحَدثي المَنصَّات تأخذهم نَشوة الحديث وتسوقُهم شَهوة الميكروفون، ويظلون يرغون ويزيدون ويسترسلون في أحاديث استعراضية، دُون مُراعاة للشخص الذي جاء مِن بيته إما مُجاملًا وإما راغبًا في الاستفادة، وفي كِلا الحالتين يبتغي حضورًا مُمتعًا.

وكان هذا أول دَرس تعلمته في إدارة الندوات فيما بَعد، وهو أن أضع الجمهور نَصب عينيَّ وفي المقام الأول، فأضاحكهم وأُمازحهم، وأجعل لهم نصيبًا

وافرًا من التعبير عما بداخلهم، ولا أسخر مِن مُداخلاتهم حتى لو كانت سطحية أو ساذجة، بل على العكس أُشجعهم علىَ التَحَدُّث، وعلى التواصل مَع كاتبهم، وأقُوم بالتنويه عَن ذلك في البداية، فأقول لهم إنهم شُركاء اليوم، وإن المنصة لن تستحوذ على الحديث، ولا ينبغي أن تَفعَل ذلك، بل أحرص بين وقتٍ وآخر أن أسألهُم إن كان لديهم أسئلة، أو يودون طَرح موضوع للمُناقشة، فأخرج مِن اليوم بكاتب مُنشَكح لتفاعل الناس معه، وجمهور مبسوط؛ لأنه شَعر بأن له دُورًا أكبر من كونه مُجرد مُتلقٍّ.

وفي النهاية، فإن أهم درس تعلمته بعد أن صِرت مدير ندوات ألا أحضر ندوات، وإن حَضَرت فيَجِب أن يكون لي فيها دور فاعل وحضور مُرضٍ، أو إذا كُنت أضمن حدٍّ أدنى مِن المُتعة والانبساط، وقررت مُقاطعة تلك الندوات البلاستيكية التي لا تمنح إلا القَرَف والامتعاض والشعور بأن الثقافة في بلادنا في حالة احتضار.

صدفة (أ) العجيبة

اتصل بي صديقٌ مُحب، وسألني عن مكاني، فأكدت له أنني «مَرمي في البيت يعني هاروح فين؟»، فطلب مِني أن أرتدي ملابسي بسرعة؛ لأنه سيعزمني على شيء أُحبه، فكرت ما هذا الشيء الذي أُحبه، ويُمكنه إخراجي مِن عُزلتي، فلم أجد أي شيء قادر على فعل ذلك، ولكنه ألحَّ في الطلب، فلم أجد بُدًّا من ارتداء ملابسي بلا مزاج وبلا تنسيق، وأذهب معه حيث لا أعلم، وقد رفض أن يُخبرني بوجهتنا والتعامل مع الأمر على أنه مُفاجأة، وفي الحقيقة لم أكُن شغوفًا أو مُتحمسًا للمفاجآت، ولم أُبدِ أي تجاوب مع حماسته، وصلنا إلى مصر الجديدة فإذا بي أقف أمام لافتة مكتوب عليها باللغة العربية حرف (أ) وبالإنجليزية كلمة ALEFBOOKSTORES، فابتسمتُ ونظرتُ إلى صديقي، فابتسم وقال:

- أنا عارف إيه اللي ممكن يخرَّجك من عُزلتك.. دي مكتبة جديدة، وافتتاحها النهارده.

وكان قد قرأ الخبر في الجريدة، فاتخذ قرارًا باصطحابي لحضور الافتتاح، وكان يعلم حُبي للكُتب وللمكتبات، دخلت المكتبة المُزدحمة، فوجدت الكاتب «إبراهيم عبد المجيد» يُوقِّع روايته «في كُل أسبوع يوم جُمعة»، فطلبت نُسخة، ووقَّعتها، ثُم سحبت نفسي من زحام التوقيع، وأخذت أتجَوَّل بين الكُتب، فلاحظت بعض المُشكلات في تصنيفها، فيبدو أن التصنيف قد جاء على عجل ليتم الافتتاح، فناديت على أحد الشباب العاملين بالمكتبة، وتحدثت معه في الأمر، فاستجاب بشكل مُهذَّب، وطلب الاستزادة من

المعلومات، فشمَّرت حينها عن ساعديَّ، ووقفت أشرح وأُنسِّق بنفسي بعض الكُتب، ولم ألحظ حينها أن مُدير المكتبة كان يُراقب الموقف عن كثب، فاستأذن في الدخول في الحوار، وسألني عن نفسي، فقُلت: أنا فلان، وسألني عن عملي فقُلت في مجال النشر، وكُنت حينها بلا عمل فعليًّا فلا نشر ولا يحزنون، فاستأذنني في رقم هاتفي، فأعطيته إياه عن طيب خاطر، وانتهى المشهد، ثُم انتهى اليوم كُله، وشكرت صديقي وعُدت إلى البيت، ونسيت الأمر برُمّته، وفي اليوم التالي اقترحت زوجتي أن نُسافر إلى بلدتنا بريف المنصورة لنُغير جو، في الحقيقة هي كانت تقصد لأُسَرِّي عن نفسي، وسافرنا بالفعل، وبعد يومين مِن سَفَرنا وأثناء جلوسي في غِيط أحد الأقارب أَشوي ذرة صَفراء، وأُهَوِّي عليها بجلباب أبي الذي كُنت قَد سَطَوت عليه، جاءني اتصال مِن رقمٍ لا أعرفه، ولكنه كان مُميزًا جدًّا، ونادرًا ما تتصل بي أرقام مُميزة، فلم أمنح خيالي فُرصة للتفكير، وقُمت بالردِّ سريعًا، كان على الهاتف السيد مُدير المكتبة التي كانت فرعًا واحدًا آنذاك، ودخل في الموضوع مُباشرة:

- نُريد أن نتعاون سويًّا، فهل تقبل أن تعمل معنا؟

وهُنا تملكتني رُوح «الأليط»، أو الأقرع ونُزهي، وأشعرت مُحدّثي أنه قد فاجأني بالأمر، وأنني أحتاج إلى وقت للتفكير، وأن عليه أولًا أن يُقدم عرضًا أُفكر فيه وأتخذ القرار، فقال:

- نحتاجك معنا مُستشارًا ثقافيًّا ومُديرًا للفعاليات بمُرتب مَعقُول قابل للزيادة بشكل سنوي، ورغم عطالتي وفَلَسِي تحفَّظت على المبلغ المرصُود، فأكد لي الرجُل المُهذب أنهم لن يعترضوا على ممارستي لأي عمل آخر بجوار عملي

معهم، طالما لا يتعارض مع مصالح المكان، فاستأذنته في الردِّ بعد يومين، ولا أُريد أن أُخبركم بأن هذين اليومين قد مرا عَلَيَّ مُرورًا عصيبًا رغم أنني أنا من حددهُما، ولكن خشيت أن يتعاقدوا مع أحد غيري، وتضيع الفرصة المُحترمة؛ بسبب «عَيَشَاني في الدُور»، وفي مساء اليوم الثاني اتصلت به، وأبديت مُوافقة مشروطة بحريتي الكاملة في العمل واستقلال وظيفتي، حيث إنني صاحب الحق الوحيد في تنسيق عملي وفق ما أرى، فوافق الرجُل على الفور ودُون تحفُّظ.

وكان اللقاء الأول بيني وبينه للاتفاق وكتابة العقد،والذي بعد أن كتبناه استأذنته في أن أبدأ عملي، وناديت على أحد الشباب العاملين بالمكان، وذهبنا لنُعيد تنسيق الكُتب وفقًا للتصنيف الجديد، ولكن في الحقيقة أنا استأذنته وُقمت حتى لا يسألني عن تصوري لطريقة سير الفعاليات من ندوات وحفلات توقيع وغير ذلك، أو عن تصوري لمهام المستشار الثقافي، فالرجُل لم يسألني في شيء من هذا، ويبدو أنه تحرَّج من طرح مثل تلك الأسئلة على شخص يظُن أنه خبير من العيار الثقيل، ولكن ما لا يعرفه الرجُل أنني لم أُدر ندوة واحدة في حياتي، بل إن لَدَيَّ حساسية مُفرطة من التجمعات بشكل عام، ما لا يعرفه الرجُل أنه «تَدَبَّسَ» في شخص انطوائي وغير اجتماعي لا يستطيع أن يتحدث أمام ثلاثة أفراد، فما بالك بالندوات التي يحضرها العشرات، وما بالك بمُناقشة شخص في كتابه وتحمُّل مسئولية يوم ثقافي بكُل تفاصيله؟ ما لا يعلمه الرجُل أنني لا أعرف معنى مُسمى المُستشار الثقافي هذا، ولا أعرف ما هي مهامه، وكان عَلَيَّ أن أُخوض حربًا ضروسًا ضد النفس الأَمَّارة بالاستسلام لمشاكلها، وضد العَطَالة القاصمة لظهُور الرجال، فجلست أمام الكُمبيوتر في البيت، وفتحت الكثير من المواقع

التي بها كلمات مُستشار ثقافي أو ندوات أو حَفلات توقيع، وقُمت بطبع عشرات الأوراق التي مازلت مُحتفظًا بها حتى الآن، وعناوين من نوعية: كيف تُدير ندوة؟ ما هي مَهام المُستشار الثقافي؟ وغير ذلك.

وبعد أن جمعت المادة النظرية، كان عَلَيَّ أن أتدرب على الجانب العملي، وقد شَهِدَ مَكتبي أوقاتًا كُنت فيها أشبه بمجذوب يُكلِّم نفسه، وبالطبع كان وجُودي مُنفردًا بالبيت شرطًا رئيسيًّا قبل البدء، فمرآة التسريحة في غُرفة النوم، والتي كانت تُستعمل فقط في أوقات التزيُّن والسبسبة، صارت الآن تستقبل خُطبي العصماء ومُناقشاتي مع اللاشيء، وللأمانة شعرت أنني تسرعت في الموافقة تحت ضغط عدم الرغبة في الجلوس بالبيت، وتقشير البصل مع المدام، وكيف سمحت لي أخلاقي بالتغرير برجُل وثق بي وبقُدراتي الكبيرة، ثُم إن كُل شيء سينكَشف مع أول فعالية، وستكون فضيحة من تلك التي يُسمونها بجلاجل، وكان التراجُع مُستحيلًا، وليس أمامي إلا بحر التجربة، والذي أعلم يقينًا أنني سأغرق فيه لشوشتي، ولكن ما باليد حيلة.

سارت الأمور بشكل لم أكن أتوقعه، ففي أقل مِن عام واحدٍ حصلت على سُمعة طيبة في الوَسَط كُله، وصرت «نَدَوَاتجي» قَد الدنيا، وشَهِدَت مكتبات (أ) مَولد شَكل جديد تمامًا للفعاليات والأنشطة، يَجعل الجمهور طرفًا أصيلًا في العَملية، ويُدخل الفُكاهة على قلوب المُستمعين، بدلًا مِن مُعاملتهم كَرَقَم مُهمل في مُعادلة الحَدَث الثقافي، أو على أكثر تقدير كطرف مُتَلَقٍّ لا كطرف فاعل ومُتفاعل.

ورغم الرُّعب الذي كان ينتابني قبل كُل نَدوة، وعمليات الطوارئ التي أقوم بفرضها على كُل مَن في البيت، وقراءة العمل مَحَل المُناقشة، وما يدور حَوله

من كتابات أو مقالات نقدية، أو حوارات صحفية مع الكاتب، وحتى آراء القُراء في موقع Goodreads الشَهير، وإن كانت لا تُفيد كثيرًا في مَجَال المُناقشة؛ لأن معظمها قراءات انطباعية تميل إلى المَدح أو الذَم دُون وعيٍ نَقدي.. رَغم ذلك إلا أنني وعلى عكس ما كُنت أتصور، أُحَقق سَعادة ورِضا كبيرين بعد كُل حَدَث، وكانت نَظَرات المحبة والتقدير التي ألمحها في عيون الناس بعد كُل لقاء كفيلة بأن تُرمم كُل تشققات روحي، وتُضَمد كُل جِراحات اليوم، لا سيما النَّفسي منها.

ومع التَوَسُّع المُبهر لمكتبات (أ) في مُعظم مُحافظات مِصر، صِرتُ أدُور مع الفعاليات وُجُودًا وعَدَمًا، أينما وُجِدَتْ وُجِدْتُ، وأينما حَلَّتْ حَللتُ، ورُغم أن الإرهاق والتَّعَب كانا عظيمين، ورغم أن رُعب استقبال الأحداث ومُواجهة الناس ظَل قائمًا وما زال، إلا أن مَحَبتي للدور الذي أُنِيطَ بي كانت تُذهب بأس الرَهبة وتُحارب بؤس الانطواء، ففي كثيرٍ من الأوقات أشعُر أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاني هذه الفُرصة الذهبية كي أُثبتَ لنَفسي قَبل غيري، أن ما أرى عليه نَفسِي ليس بالضرورة أن يكُون صحيحًا، فَقَد حَييت عُمري كُله لَدَيَّ قَناعة مُتَرَسخة أنني شَخص أعَمى لا يَنفع في إصلاح الساعات، وحينما أمسكت بأول ساعة في حياتي اكتشفت أنني أصلحتها بشكل استَدعَى إعجاب الناس، بل إنهم قَد ذهبوا إلى بيوتهم، وأحضروا ساعاتهم الأُخرى، وطلبوا مِني إصلاحها، فوَجَدت نفسي أقول كما قالت «أوبرا وينفري»: «حاول دائمًا أن تنجز ما تعتقد بأنه من المستحيل إنجازه، وعندما تفشل حاول من جديد؛ فالأشخاص الذين لم يختبروا الفشل لم يحاولوا أن ينجزوا شيئًا في حياتهم»، فحاولت واكتشفت أن هُنَاك بعض المَلَكَات الصَّامتة التي لَم تُختَبر بَعدُ، وحينما اختُبِرَت أَخبَرَت بِما لم أَكُن أَتَوقَّعه.

وتَعَلَّمت درسًا عظيمًا لن أنساه طُوال عُمري، وهو أن تَصُوراتنا عَن الحياة وعَن أنفسنا ليس بالضرورة أن تكون صحيحة وصادقة، لذَلك يجب اختبارها وعرضها على محكَّات الواقع والتَّفعيل، فالفرق بين التصورات والفعل هو الفرق بين النظرية والتطبيق، لذا يجب علينا أن نختبر تصوراتنا وقناعاتنا حتى نتأكد من أنها صحيحة، وحتى لا تضيع أعمارنا في أداء واهنٍ ومُتخاذلٍ في الحياة تحت زعم أننا لا نستطيع فِعل شيء أكثر من ذلك.

تاكسي المعرفة

بدأت مكتبات (أ) بداية قوية؛ رغبةً منها في خَلق حالة مِن الحراك الثقافي ودَعم القراءة في مصر، وقد نَجَحَت فكرة (أ) نجاحًا مُبهرًا؛ حتى إنها استطاعت أن تُقنع الكثير من أصحاب الأعمال بإمكانية استثمار أموالهم في الكتاب، بدلًا مِن المشروعات التجارية الأخرى، وذلك من خلال طرح فكرة الامتياز التجاري للمكتبات، أو ما يُسمى بنظام franchise، وهي المرة الأولى من نوعها في مصر فيما أعتقد التي يُقرر فيها مُستَثمر أن يستثمر أمواله في مجال الكُتب عن طريق استخدامه للعلامة التُجارية لمكتبة ما، فقد كانت الفكرة مطروحة فقط لمحالِّ الطعام أو الأحذية أو الملابس أو السلع الاستهلاكية، واستطاعت المكتبة أن تزيد من عدد فروعها في أقل من سبع سنوات، لتُصبح بِضعًا وثلاثين فرعًا، ونحو سبعين نقطة بيع، داخل القاهرة وخارجها، وكانت تبحث عن الأماكن التي لا تتوافر فيها خدمة المكتبات، فتقوم على الفور بافتتاح فرع بها، ومنها مُحافظات تم إهمالها ثقافيًّا بشكل كبير، كأسيوط، والسويس، والإسماعيلية، فضلًا من مدينتي طنطا والمنصورة وشبين الكوم وطبعًا الإسكندرية، وكان لديها طموح كبير بالوصول إلى كل محافظات مصر، بل والخروج من مصر إلى الدول العربية والأجنبية، وبالفعل نَجَحت في إقامة فرعين في لندن، كان أحدهُما في شارع بيكر ستريت الشهير.

وكان من ضمن خططها الشهيرة، الخروج بالكتاب خارج المكتبات بدلًا من انتظار حضور القارئ إليها، وأُوكل هذا الأمر لي باعتباري المستشار الثقافي،

ولزُملائي مُدير التسويق، ومدير العلاقات العامة والإعلام، فجلسنا ثلاثتنا نُمَخمخ، وخرجنا بفكرة رئيسية كانت بمثابة المظلة الكبيرة التي اندَرَجَت تَحتها مشروعات أُخرى، وكان اسمها «مصر تقرأ»، وكانت فكرتها الرئيسية هي إقامة قوافل ثقافية، وتسييرها إلى المُحافظات، لا سيما الأماكن النائية فيها، والتي لا يَصِل إليها الكتاب.

وانقسمت مُهمتي إلى قسمين، الأول هُو التواصل مع دُور النشر وإقناعهم بالفكرة وبالمُشاركة فيها، أما الثاني فكان إقناع الكُتَّاب أنفسهم على خَوض تَجربة السفر إلى هذه الأماكن النائية، والتي لم يَدخُلها أي كاتبٍ من قَبل، ونَجَحَت المُهمتان، لا بِفضل مهاراتي المُتواضعة في الإقناع بالتأكيد، ولكن بفضل الله أولًا، ثُم بفضل قوة الفكرة وطزاجتها المُغرية، وبفضل إيمان الكُتَّاب بنُبل المَقصد وجديته، وبالفعل خرجت القافلة الأولى بمُحافظة المنيا، وتحمَّس الكثير مِن الكُتَّاب للسفر، واستقبلنا الناس باحتفاء شديد، وكان الإقبال مُنقَطع النَّظِير.

وتَحت مظلة «مصر تقرأ» الواسعة، كان هُناك مشروع اسمه «تاكسي المعرفة» لا يقل أهميةً عن المشروع الأُم، بل فاقه شُهرةً وحضُورًا، وكان مُنطلقه أيضًا فكرة الخروج للقارئ، والوصول إليه في الأماكن التي لا يتوقعها أحد، وكان الهدف الأساسي مِن المشروع هو استغلال الفترات البَيْنِية التي تضيع بلا فائدة في القراءة، حيث إن أكثر الأماكن التي تضيع فيها أوقات بَيْنية هي المُواصلات بكُل أنواعها، فوقع الاختيار على التاكسي الأبيض داخل القاهرة الكُبرى كبداية نستطيع من خلالها اختبار الفكرة للانتقال إلى غيرها مِن

المواصلات بالتدريج، ليكون هُناك بعد ذلك قطار المعرفة، وطائرة المعرفة، وسفينة المعرفة.

وبعيدًا عن وسائل المواصلات، فهناك العديد من الأماكن التي تضيع فيها الفترات الأوقات البينية دُون أي جدوى، مثل عيادات الأطباء، لا سيما أطباء الأسنان، والمُستشفيات بشكل عام، والمصالح الحكومية وما أدراك ما المصالح الحكومية، وكان المشروع طَمُوحًا لدرجة التخطيط للوصول إلى كُل هذه الأماكن.

وفي البداية قمنا بالاتفاق مع أصحاب التاكسيات البيضاء بالقاهرة الكُبرى على وَضع مكتبات قماشية بعرباتهم خلف مسند الرأس وفي مواجهة الراكب الجالس على الكَنَبة، على أن يتم اختيار الكُتب المُخصصة للمشروع بعناية فائقة، بمعنى أن تكون كُتبًا مُناسبة للوقت التقديري للراكب (من ربع ساعة إلى ساعة) أي الكتب ذات الموضوعات المُنفصلة كالمجموعات القصصية، وكتب التنمية الذاتية، وبالطبع كتب المرأة والطفل، والبعد عن الكتب ذات الموضوعات المتصلة كالروايات أو الكتب الفكرية، وأيضًا تجنَّبنا الكُتب التي بإمكانها إثارة الجَدل كالكتب الدينية أو السياسية، أو تلك التي تحوى موضوعات بها شُبهة جنسية.

بدأنا باستطلاع رأي الناس في الفكرة، فتَعَرضنا للسُّخرية وأيضًا لاستهجان الفكرة؛ بحُجة أنهُم لا يقرأون في بيوتهم، فكيف سيقرأون في المواصلات؟

وبسؤالهم عن الكُتب في حياتهم، قال بعضهم، إن الكُتب الوحيدة في حياتهم هي كُتب الدراسة، والتي قاموا بحرقها أو بيعها لـ«بتاع الروبابيكيا» فور

انتهاء الدراسة، فجاء الـ feedback الطريف مؤشرًا على أن علاقة الكثير من الناس بالكُتب علاقة عَدَائية، ولكنه أيضًا جاء كدافع مُهم لتغيير الصورة الذهنية السلبية عن الكتاب، وأن ذكريات الناس مع كُتب الدراسة لا يجب أن تقف حائلًا بينهم وبين الاستمتاع بالقراءة الحُرَّة.

وكانت المُهمة الأصعب هي إقناع السائقين بالفكرة، والتي احتاجت لشهور، وذلك عن طريق الوصول إلى كُبرائهم والمسئولين عن مواقفهم الكُبرى بالقاهرة، وقد كان تخوُّفهم الأكبر من أن يتسبب لهم الأمر في مشكلة مع المرور، ولكننا سعينا لطمأنتهم، ووعدناهم باتخاذ كل الإجراءات القانونية في هذا الشأن، وبعد الكثير مِن المفاوضات تم إقناعهم بالأمر.

وبدأت المرحلة الثانية، والتي كانت إقناع الناشرين بالمُساهمة في المشروع، وأذكر أن إقبال الناشرين كان خُرافيًّا، وأن مخازن (أ) ضاقت بمُساهماتهم، بل ومُساهمات بعض الكُتَّاب بشكل مُنفصل أيضًا.

واستقبل الإعلام حينها المشروع استقبالًا حَسَنًا، وظَل يحتفي بالفكرة فترة طويلة، وكان عليَّ أن أطوف القنوات المُختلفة؛ للتعريف بالفكرة وتطوراتها، حيث إن المشروع لم يكُن لدَعم القراءة في التاكسي فقط، بل كان لدَعم فكرة «الخروج بالكتاب» إلى الأماكن التي لا يعتادها الناس، وعَدَم انتظار القارئ ليدخُل المكتبة، ونَشر ثقافة القراءة في كُل مكان.

فكان مشروعًا طموحًا، ولديه رؤية ثقافية شاملة، لذلك دَعَمته وزارة الثقافة حينها مُمَثَلةً في وزيرها النبيل «عماد أبوغازي»، والذي أكد حماسته ورغبته في إتمام هذا المشروع، وأكد أن الوزارة تَفتح أبوابها لمثل هذه المشاريع

التي تُفكر خارج المألوف، بل وقام بافتتاح المشروع بنفسه؛ ليؤكد للجميع أن هذا المَشروع حقيقي لا ادعاء فيه.

ولكن للأسف توقف المشروع لأسباب لم يُكن لصُنَّاعه يَد فيها، ولكنه ظَل شمعة مضيئة في تاريخ المكتبة، وتاريخ الترويج لثقافة القراءة في مصر كُلها.

شهبندر الحكائين

بعد شهادة الحقوق عَمِلت لفِترة قصيرة في الصحافة الورقية، وتَحديدًا في الصفحات الأدبية، فرغم اهتمامي بالفكر بشَكل عام والفلسفة بشكلٍ خاص، إلا أن الأدب كان الباب الأكثر حِراكًا وحُرية، ويُمكنك من خلال أحداثه وفعالياته المُتعددة أن تَجد مادة عملك بسهُولة، وكانت مُهمتي آنذاك هي مُتابعة تِلك الأحداث والفعاليات، وتَغطيتها بشكل مِهني مُحترف.

وذات يوم قرأتُ دراسةً مُتعمقةً في أدب الكاتب الكبير خيري شلبي تتحدث عن مُنجزه الأدبي الضَخم وخصوصيته الإبداعية الفريدة، فاقترح عليَّ عَقلي اقتراحًا راق لي كثيرًا وهو: لماذا لا أصنع مَعه حوارًا مُتميزًا يُثقل كَفَتي في ميزان العمل الصحفي، ويُثبت للقائمين على الأمور أنني مُختَلف عن أقراني مُحدَثي نعمة الصحافة، وأنني صحفي مَصرُوف عَليه «مِتكَلف يعني»؟

وبالفعل اتخَذتُ القرار، واتصلت به واستأذنته في إجراء حوار صحفي معه، فكانت أول القصيدة رَفض، فقد اعتذر بِشدة عن إجراء أي حوارات صحفية، مُتعللًا بأن الصحافيين يسألونه أسئلة تقليدية عقيمة لا تُفيد القارئ في شيء، أسئلة مكررة لا إبداع فيها، فأكدت له أنني مُختلف عن هؤلاء، فأنا كبير وناضج ولست صحفيًا مُتدربًا يُريد أن يُرضي رئيسه في الجريدة، فأنا صحفي بمزاجي ولا سُلطان لأحدٍ عليَّ، وبعد كثير إلحاح -رغم أنه ليس مِن عاداتي- وافق الرجُل بشَرط، أن أقرأ روايته الأحدث، والتي كانت حِينها «صحراء المماليك» على أن أتصل به بعد يومين، وأطرح عليه قراءتي للرواية ونموذجًا للأسئلة المُقترحة، واشتريتُ الرواية، ولم أنم ليلتي إلا بعد

إتمام قراءتها، واستيعاب أحداثها، وتركت صياغة الأسئلة لليوم التالي، وحينما استيقظتُ قُمت بصياغة الأسئلة قبل أن أُعيد النَّظَر في الرواية، واتصلت به مرة ثانية، فرحَّب بي قبل أن أُعرِّفه بنفسي، وطلب معرفة الأسئلة التي سأطرحها، فقلت له سؤالًا فقال: «عال»، ثم طرحت الثاني فقال: «تمام تمام»، وقبل أن أطرح الثالث قال لي: «سأنتظرك غَدًا في تمام الخامسة»، فابتهجتُ لموافقته، فأنا أولًا أُحب هذا الرجُل كثيرًا مِن خلال أعماله، ثم إنني سعدت لأنه رأى أن أسئلتي مُختلفة عَن غيري، وأنها تستحق أن تُناقش، فذهبت إلى المعادي حيث يسكُن، وأثناء سؤالي عن العُنوان، فوجئت بحرقان شديد في ذراعي، فنظرت لأجد نحلةً من النوع المُعتبر مُلتصقة بيدي التصاقًا حميميًّا، فأزحتُها بقوة، فخرجت ميتة، ولكنها تركت لي الزبان كتذكار، نزعته بأظافري، وجلستُ على جانب الطريق أصرخُ صرخات مكتومة مِن كثرة الألم، فنصحني بعض أهل الخير أن أضع بعض الطَمي الموجود في الحدائق المُجاورة حتى يخف الألم ويفِشَّ الورم، فأخذتُ أنبش في الأرض كالمجنون واضعًا كُل ما خرج في يدي السليمة فوق يدي الملدوعة، فتطينت وتبهدلت وملأ التراب ملابسي ووجهي، وانتكش شَعري الطويل، وصِرت أشبه بمجاذيب السيدة، وحينما وَصَلتُ إلى البناية سألت البواب الذي نظر لي نظرة ازدراء وقَرف عن العنوان، فقال: هو في الدور الثاني، ثم شرحت له أسباب هذا المنظَر المُزري، فَرَقَّ الرجُل لحالي، وأعطاني زُجاجة مياه كي أغسل يدي ووجهي، وطبعًا الأمر كان يحتاج إلى استحمام كامل وتغيير ملابس، ولم يفعل الماء أكثر مِن أنه لَحْوَسَ الاتساخ لا أكثر.

صعدتُ إلى منزل الرجُل، ورننت الجرس، ففتحت لي السيدة زوجته «مدام فوزية»، والتي تحتاج إلى كتاب مُنفرد للحديث عن ذوقها ورُقيِّها وطيبتها

وسماحة استقبالها، ووجدتني أقول لها بعد الترحيب:

- معلش حضرتك أصل النحلة قرصتني وأنا جي، واضطريت أحط طين على إيدي فبهدلت نفسي.

فابتسمت السيدة الطيبة وقالت:

- ولا يهمك إنت عملت الصح.

ثُم أعطتني درسًا عامًّا في كيفية التعامل مَع هذه الحالات، بلهجتها التي تمتزج فيها الريفية مع المدينية في تون صُوت يدخل القلب ويتربع داخله.

جلست أشرب الليمون الذي صنعته لي، وأنا مُنبهر بالشقة الطُولية التصميم التي تتغطى جميعها بالكُتب، استأذنتها بالوقوف أمام المكتبة؛ لمُطالعة عناوين الكُتب فأذنت، لم أمُدَّ يدي على أي كتاب؛ احترامًا، ولكني لاحظت أن المكتبة تحفل بكُل صنوف المعرفة تقريبًا، وحتى بعض الكتابات الشابة، والتي أعتبرها أنا شخصيًّا مُتواضعة، ففطنتُ على الفور أنها مُهداة للرجُل مِن كُتَّابها، وأثناء الاندماج مع عناوين الكُتب وتدوين بعضها في دفتري، دَخل عَلَيَّ الرجُل مُرحِّبًا ومُبتسمًا ابتسامةً ودودةً، وكان مُرتديًا حينها جلبابًا منزليًّا أنيقًا، ويعتمر طاقية نزعها عن رأسه عَند بدء الحوار، دخلت معه صومعته الصغيرة، وقال لي حينها: هات ما عَندك، فبدأت أطرح عليه هذا الحوار الذي لم تنشُره الجريدة؛ لأنها اتخذت قرارًا في اليوم التالي لإجراء الحوار بإلغاء الصفحة الأدبية؛ ترشيدًا للنفقات.

وكانت أبرز عناوين الحوار كالتالي:

١- أنا مدرب علي الحكي بلسان معظم الشخصيات المصرية.

٢- الرواية فن مجتمعي يقوم أساسًا على حركة المجتمع.

٣- لا يوجد ما يسمى في وجهة نظري شيء اسمه زمن الرواية، فدائمًا وأبدًا كل الفنون موجودة في كل زمان.

٤- القارئ المعاصر قارئ «مدووش» ليس عنده طاقة صبر على لغة المجاز.

٥- ستحدث انتفاضة في العالم العربي قد تغيِّر وجه الخريطة.

٦- الواقع يشهد كل يوم حركات ضيق، فهناك مخاض، وهذا المخاض لا نريد أن نتورط في تفسيره.

٧- حين يتصادم قانون الصدفة أو ما نسميه بالصدفة مع قانون الحياة يصبح الأمر عبثيًا أو ما نسميه نحن عبث.

٨- فن الرواية يريد أن ينزل الكاتب إلى الأرض، ولا يتحدث في أمور مفارقة وأفكار مجردة أو متعالية.

٩- أرى أنني ما زلت أتعلم الكتابة.. فأنا في حالة ابتداء دائمة، كمن يبدأ الكتابة من أول السطر.

١٠- العصر المملوكي هو أشد العصور تأثيرًا في المصريين وفي المجتمع المصري وفي الشخصية المصرية، فقد خلق هذا العصر في الشخصية المصرية «حتة» مملوكية.

١١- الجوائز العربية بالذات لا أعتقد أنها عادلة، فهي غالبًا ما لا تذهب إلى مستحقيها.

١٢- «باموق» لا يستحق جائزة نوبل للآداب وإن كان موهوبًا حقيقيًّا.

١٣- من السذاجة والعته أن نظن أن «إسرائيل» هي السبب في منح «نجيب محفوظ» أعظم جائزة عرفها التاريخ الحديث، لمجرد أنه ميال للتطبيع، فالخلاف بيننا وبينهم في الأساس خلاف حضاري.

١٤- ليس لي صبر في التعامل مع الكمبيوتر والإنترنت، ولم أستطع تعلم الكتابة على الكمبيوتر، فـ«التكتكة» على الكيبورد تثير نفوري.

١٥- هناك حركة جيدة للأدب الشاب.

١٦- نصيحتي للكتاب الشباب هي: «اقرءوا ألف صفحة لتكتبوا صفحة واحدة».

ثُم دار الحوار كالتالي:

١- يمزج الأستاذ خيري شلبي في أعماله بشكل فريد بين لغة شبه تراثية ولغة شبه عامية في نسيج متماسك عالي الرصانة، صاكًّا بذلك لغة جديدة في القصِّ العربي، فإلى أي مدى يعول الأستاذ على اللغة؟ ولماذا اختار هذه الطريقة في الكتابة؟

اللغة في الأدب هي الأساس، فلكي يكون أدبًا حقيقيًّا لا بد أن تكون لغته سليمة، أما اللغة التي أكتب بها فهي لغة فنية متعددة مستويات التعبير، ففي

الأساس كلها مفردات فصحى، فكل المفردات المعروفة بأنها عامية هي في الأصل مفردات فصحى، والتميز هنا في إخضاعها للإعراب، كل ما في الأمر أننا ننطقها دون إخضاعها للإعراب، ولكن عند الكتابة لا بد أن تكون قابلة للإعراب، وهذا هو الجهد اللغوي الذي أبذله لاكتشاف المنجز الوجداني العامي من خلال اللغة العامية مع إرجاعها إلى أصلها الفصيح بإخضاعها لقواعد النحو، وكما قلتُ إن في اللغة عندي مستويات متعددة للتعبير؛ لأن في المشروع الفني الذي التزمت به منذ البواكير الأولى أسلوب يقوم على نفي الكاتب، فالراوي عندي شخص مختلف عن الكاتب، والكاتب حسب قوة موهبته قادر على أن يتقمص كل شخصية من الشخصيات التي يعبر عنها، ويكون جهادي النابع من اتساع تجربتي في الحياة في قدرتي على أن أحكي بألسنة متعددة، فأنا مدرب على الحكي بلسان معظم شخصيات المجتمع المصري، ولهذا تجد هذه المستويات المتعددة من اللغة في كل رواياتي.

٢- يعمد الأستاذ إلى ما يشبه التحليل النفسي لبعض الشخصيات في روايته الأخيرة «صحراء المماليك»، كما يحلل أيضًا شخصية الشباب المصري بعد النكسة، كما تزخر الرواية بقدر لا بأس به من التحليل السوسيولوجي، فيطرح أحوال المصريين وطبائعهم، كما نراه محللًا سياسيًّا في بعض الأحيان، ولا يفتأ الأستاذ يدلو بدلوه كمثقف عاش في فترة من أصعب فترات التاريخ المصري، حيث التحولات الكبرى، والصدمات المفزعة، فهل تحتمل الرواية كل هذا الزخم؟

هذا هو ميدان الرواية، فالرواية أصلًا فنٌّ مجتمعي، فن يقوم على حركة المجتمع، فلا بد إذن أن يكون هناك رأى عام فني لكي ينضج فن الرواية،

وهذا الرأي العام الفني ينشأ لأن الفن الروائي يتناول الحياة بكل مستوياتها وبكل اتجاهاتها وكل طبقاتها، فيرتبط بها القارئ، فهو فن يرتبط بالقارئ ارتباطًا حميمًا، ليفكرا معًا ويحاولا معًا إعادة بناء العالم إن أمكن من خلال التشريح الاجتماعي. فهذا الزخم هو أصلًا المادة الروائية التي بدونها لا يوجد فن الرواية.

٣- إلى أي مدى يتفق الأستاذ مع مقولة إننا نحيا الآن زمن الرواية؟

لا يوجد -من وجهة نظري- شيء اسمه زمن الرواية أو زمن الشعر، فدائمًا وأبدًا كل الفنون موجودة في كل زمان، ولكن يحدث أن ينتعش فن وينتكس فن آخر، فالظروف العالمية المحيطة بنا تجعل هناك تراجعًا للشعر، وفي بعض الأحيان تتراجع القصة القصيرة، أما بالنسبة للرواية فقد أخذت جماهيرية كبيرة؛ لأن هناك نشاطًا روائيًا مكثفًا منذ أربعة قرون تقريبًا، ينتقل تألقها من مكان إلى آخر، ففعلًا هناك انتعاش للرواية، ولكن ذلك لا يعطيها الحق في أن تتسيَّد الزمن الحالي، فمن الممكن أيضًا اعتبار هذا الزمن هو زمن الشعر، كل ما في الأمر أن الشعر انتقل من مرحلة إلى مرحلة جديدة، والتي تسمى شعر التفعيلة أو مرحلة الشعر الحديث، وهذه المرحلة لم تترسخ بعدُ، ويلزمها سنوات طويلة لكي تؤتى ثمارها في الأدب العربي، ثم جاءت قصيدة النثر، والتي لم تستطع حتى الآن أن تخلق جماهيريتها، وحتى قصيدة التفعيلة لم تستطع خلق جماهيرية كبيرة، وإنما خلقت بعض المتذوقين، وفي نهاية الأمر الشعر قد حدث فيه قلاقل جذرية أدَّت به إلى هذا الركود الذي نراه الآن، بعكس فن الرواية الذي شهد تراكمات فنية متقدمة في العالم يستفيد منها الكتاب في كل مكان، ففن الرواية لم يتعرض لهزة جذرية كما تعرض الشعر،

لكن مع ذلك هناك شعر عربي جيد جدًّا، وهناك شعراء كبار جدًّا، ولكن السوق الإعلامية والإيقاع السريع للحياة وكثرة القضايا المروعة التي نعيشها في عصرنا واضطراب الحياة، كل ذلك يجعل من الشعر فنًّا مغتربًا، ففعلًا العصر عصر نافر الروح والوجدان، والشعر يحتاج إلى أعصاب هادئة، وإلى قراءة متعمقة، والقارئ المعاصر قارئ «مدووش» ليس عنده طاقة صبر على لغة المجاز وغير ذلك، وهذه مظاهر سلبية كان لا بد أن تحدث في هذا العصر الذي تقدمت فيه التكنولوجيا وضربت المخيلة الإنسانية، وضربت الإمكانيات الكثيرة التي تعب الإنسان في تحقيقها على امتداد قرون، وهذا طبعًا لا يعني موت الشعر، وإنما هناك تشرُّب للأنفاس، فالعالم لا يفتأ أن يفيق ويستردَّ وعيه بالشعر، وأنا أظن أن العالم العربي ستحدث فيه ثورة كبيرة جدًّا في السنين القليلة القادمة، وسيحل الشعر فيها دورًا كبيرًا جدًّا.

• ثورة في الأدب فقط؟

• لا.. ثورة في كل شيء، ستحدث انتفاضة قد تغيِّر وجه الخريطة.

• وهل الإرهاصات قد ظهرت من وجهة نظرك؟

• نعم.. الحياة تقول ذلك، والواقع أيضًا، فالواقع يشهد كل يوم حركات ضيق، فهناك مخاض، وهذا المخاض لا نريد أن نتورط في تفسيره بافتراضات اجتهادية، ولكنه مخاض مؤكد، ماذا سيلد؟ الله أعلم، هل سيؤدي إلى فوضى عارمة تأتي على الأخضر واليابس؟ جائز. هل يتخلق في الحال من يقود هذه الفوضى، وينظمها ويجعل منها ثورة؟ جائز. ولكن في كل الأحوال ستكون

لصالح العقل، وأنا متفائل بأن الفوضى إن حدثت فلن تستمر طويلًا، وسينتصر العقل، وسيكون للشعر ولكل الفنون دور رئيسي في ذلك.

٤- تحمل رواية «صحراء المماليك» بعضًا من عبثية الحياة؛ فمثلًا «فهمي القزاز» ليس قزازًا ولا علاقة له من قريب أو من بعيد بعائلة الشيخ «القزاز»، بل هو ابن ماسح أحذية ابتسم له الحظ حتى صار مأمور سجن الأوردي وواحد من كبار المسئولين مسموعي الصوت، وأيضًا عبثية أن تكون «خيرات الشامي» ملاك الرحمة المهذبة الرقيقة العذبة هي زوجة للقزاز سفاح التعذيب العربيد المليء بالأمراض النفسية والنقائص، والذي كانت نهايته أيضًا نهاية عبثية، فإلى أي مدى يعتقد الأستاذ في عبثية الحياة؟

الحياة فعلًا تبدو عبثية، وذلك ناتج من أننا نضع قوانيننا الخاصة بنا، ونتصور أن الكون سيكون خاضعًا لها مثلنا، ولا نفطن إلى أن هناك قانونًا خفيًّا درجنا على تسميته بقانون الصدفة، وهو ليس بصدفة، وإنما ما يحدث ونسميه صدفة هو في الواقع نتيجة لتطورات معينة حدثت دون أن نراها، وأدَّت إلى حدوث هذا الشيء أو ذاك، فحين يتصادم قانون الصدفة أو ما نسميه بالصدفة مع قانون الحياة يصبح الأمر عبثًا، أو يظهر كذلك، ولكنه ليس عبثًا إلا في الشكل فقط؛ لأنه خارج عن سيطرتنا وضد مصالحنا، فهو عبث في نظرنا، وربما يكون في نظر الآخرين ليس بعبث، بل هو منتهى العقل، وهذا أيضًا جزء مما يبدو أنه عبث؛ فالإنسان كما يصفه «ألبير كامي» في كتابه «أسطورة سيزيف» محكومًا عليه بأن يدفع صخرة كبيرة إلى أعلى قمة الجبل، وحينما يصل إلى القمة تتدحرج الصخرة إلى حيث كانت، فيقوم بدفعها ثانية وهكذا إلى ما لا نهاية، والحياة تشبه ذلك كثيرًا، ولكن في

النهاية لا بد من التمرُّد على ما نعتبره عبثًا، بأن نعرف لماذا يبدو عبثًا، ولماذا يحدث ما لا نريده، ولماذا لا يتحقق ما نريده، وهذه الأسئلة هي ميدان فن الرواية.

٥- هل يجب على الروائي أن يكون فيلسوفًا؟

إن فن الرواية يريد أن ينزل الكاتب إلى الأرض، ولا يتحدث في أمور مفارقة وأفكار مجردة أو متعالية، فالروائي يجب أن تكون لديه القدرة على فهم العالم من حوله، فهم ما يحدث على الأرض من حوله، ولكن هذا لا يمنع من أن يكون لديه قدر من الفلسفة يعطيه القدرة على التأمل والعمق، ولكن التأمل في الواقع وليس في الأفكار المجردة، فميدان الفيلسوف مختلف عن ميدان الروائي وإن اتفقا في بعض الغايات، ولكن في النهاية الرواية ليست ميدانًا للفلسفة.

٦- يعتبرك البعض رائدًا لما يسمى بالفانتازيا التاريخية في الرواية العربية المعاصرة، كما يعتبرك البعض مؤسس فن البورتريه في الأدب العربي الحديث، كما يطلق عليك البعض لقب الحكاء العظيم أو آلة الحكي العظيمة، فكيف يرى الأستاذ خيري شلبي نفسه؟

أرى أنني ما زلت أتعلم الكتابة، فمنذ عام أو أكثر تصورت أنني تعلمت الكتابة، ثم أتضح لي أنني لا أزال أتعلم الكتابة، فأنا في حالة ابتداء دائمة، كمن يبدأ الكتابة من أول السطر، فالكاتب يكتشف تقنيات جديدة للكتابة، ويتمنى أنه لم يكن قد كتب ما كتبه سابقًا، حتى يحصل على تلك التقنيات، ولكنه يكتشف أيضًا أنه لولا ما كتبه سابقًا لما توصل إلى ما وصل إليه حاليًا، فهي

عملية مترابطة ومتصاعدة، وخير الكتاب من يكون جديدًا في كل مرة، وأنا أزعم أنني هكذا، وحتى لو كان ما أكتبه جوابًا، أكتبه وكأنني أتعلم الكتابة لأول مرة، وكأنني لم أكتب من قبل، فأجتهد وأفكر، وأبحث عن المفردات والمعاني، وكأنني أكتب رواية، ولهذا فملكاتي دائمًا أبدًا في حالة استنفار مستمر، تبحث عن الجديد دومًا، ثم إنني كثيرًا ما أقرأ الآخرين قراءة جيدة، فأنا أفهم الآخرين أكثر مما أفهم نفسي، وذلك شيء ممتع جدًّا بالنسبة لي، ويساعدني على التجدد، فأنا أزعم أن الكثيرين من جيلي لا يقرأون بعضهم بشكل جيد، فيكتفي الواحد منهم بأن يأخذ فكرة فقط، ولكني أقرأ كل زملائي من الجلدة للجلدة كبيرهم وصغيرهم، وحتى أدب الشباب أنا أتابعه باهتمام بالغ.

٧ - أحد شخصيات الرواية «عادل الطوخي» يرى أن المصريين كلهم مماليك، ففي الفصل الخامس وتحت عنوان «حق العبد في تغيير سيده» ترى أننا مماليك في وطننا ومماليك أيضًا في الدول العربية التي تقبلنا للعمل فيها بنظام الكفيل المهين، فهل يقول ذلك تهكمًا وقنوطًا من حال المصريين الذي لا ينصلح، أم إنك ترى أن هذه صفة حقيقية في المصريين؟

أعتقد أن العصر المملوكي هو أشد العصور تأثيرًا في المصريين، وفي المجتمع المصري، وفي الشخصية المصرية، فقد خلق في الشخصية المصرية «حتة مملوكية»، وإمكانية أن يصير المصري مملوكًا، وهذا هو المؤلم في الأمر، فمهما كانت الظروف، حتى لو كان إنسانًا ذا إمكانيات كبيرة ومركز كبير في بلده، ثم يقبل العمل في بلدٍ آخر من أجل المال فقط، وبالتالي يخضع لأن يكون مملوكًا للكفيل، وهذا في رأيي راجع لتأثيرات العصر المملوكي في

الشخصية المصرية، والمجتمع المصري لا يزال يعتمد على هذا النظام حتى الآن، فلا يزال لكل مسئول عدة مماليك تابعين له، وكل مملوك من المماليك له عدة «ألاضيش» يلتفُّون حوله.

٨- ما الفرق في رأيك بين الجوائز العربية والجوائز العالمية، فبعض المؤسسات العربية مثلًا ترصد جوائز تفوق أحيانًا في قيمتها المادية جوائز عالمية مرموقة، فهل ترى أن ذلك كفيل بإنعاش صناعة الأدب عربيًّا، أم إن الأمر له مقاييس أخرى، وما تقييمك مؤخرًا لجائزة البوكر العربية؟

الجوائز العربية بالذات لا أعتقد أنها عادلة، فهي غالبًا ما لا تذهب إلى مستحقِّيها، فليس الإبداع هو المسبب لأخذ الجائزة دائمًا، وأنا لا أعتبرها جوائز فهي تسمى جوائز خطأ، وإنما هي مسابقات في الأصل يتقدم لها عدد من الناس، ويأتي محكمون ليحكِّموا فيها، ويعطوا الدرجات، ولكن جائزة مثل نوبل مثلًا هي التي تسمى جائزة؛ لأنها تفاجئك دون أن تتقدم لها، وتهين نفسك، وتدخل في مقارنات مع الآخرين، وتقع بين المادحين والذامِّين، فهي جائزة تأتى قدرية، أو لا تخلو من القدرية.

٩- ولكن حينما حصل عليها «نايبول» أو «إمري كيريتش» وحتى مؤخرًا «دوريس ليسينج» وغيرهم الكثير، قيل إنها تحمل دلالات سياسية، وليست نقيةً لوجه الأدب، وحتى أستاذنا «نجيب محفوظ» لم يسلم من تلك التفسيرات.

أي إنسان يفوز بالجائزة في العالم من السهل جدًّا اتهامه والتشكيك في فوزه، ولو كان عبقري العباقرة، فمن الممكن التشكيك في فوزه وأحقيته للجائزة،

وهذا من طبائع البشر، وهذا من عمل الصحافة، فهي دائمًا تبحث عن مادة لكتابتها، فكثيرًا ما تضخِّم الأمور، وتزعم مزاعم يتضح أنها خاطئة، ولكن في النهاية، الجائزة لا تخلو من قدرية كما قلت.

١٠- ولكن ماذا عن «أورهان باموق» الذي يقال عنه إنه كوفئ على موقفه الرافض لإنكار المذابح العثمانية ضد الأرمن في بلاده، وهو نفس موقف الدول الغربية من هذه القضية؟

بدايةً أنا أرى أن «باموق» لا يستحق جائزة نوبل للآداب، وإن كان موهوبًا حقيقيًّا، فتركيا فيها الكثير ممن هم أجدر منه، إن كان لا بد أن تكون تركيا هي مسرح الجائزة، بينما أستبعد تمامًا أن يكون قد مُنِح الجائزة لمواقفه في هذه القضية، فمن السذاجة أن نظن أنه مُنِحها من أجل موقف سياسي، فمن المؤكد أن يكون هناك أسباب أخرى غير ذلك.

فقد قالوا أيضًا عن «نجيب محفوظ» إن «إسرائيل» هي السبب في منحه الجائزة؛ نظرًا لموقفه من التطبيع ومن عملية السلام المصرية الإسرائيلية، وهذا لا يمكن طبعًا أن يحدث، ومن السذاجة والعته أن نظن حتى مجرد الظن في ذلك؛ فهو تفسير مستحيل، فلا يمكن أن تكون «إسرائيل» هي السبب في منح مصري أعظم جائزة عرفها التاريخ الحديث، لمجرد أن الكاتب ميال للتطبيع؛ لأن الخلاف بيننا وبينهم في الأساس خلاف حضاري، فهم لا يرون في المصريين إلا همجًا متخلفين والعرب ليس لهم أي قيمة أدبية أو علمية، ويسعون إلى ترسيخ هذه الصورة في المخيلة العالمية، وإنهم (الإسرائيليون) أسياد المنطقة والمتحضرون المنفردون بالحضارة فيها، فكيف والمصريون هم أعداؤهم التاريخيون، أن يسهموا في جلب الجائزة لهم.

أما الجوائز العربية فهي ليست أكثر من مسابقات، والمسابقات لا تثمر أدبًا حقيقيًّا، ولكنها تُسهم في خلق شُطار ومحترفي كتابة، فهي متى بقيت مسابقة فإن تأثيرها على الأدب يكون سلبيًّا.

١١- كيف يتعامل الأستاذ مع التكنولوجيا الثقافية، وهل يستخدم الإنترنت؟ وما رأيه في المدونات وفكرة تحويلها إلى كتاب مطبوع؟

للأسف ليس لي صبر في التعامل مع الكمبيوتر والإنترنت، ولم أستطع تعلُّم الكتابة على الكمبيوتر، على الرغم من أنى حاولت مرارًا إلا أنني فشلت في تحقيق ذلك، فـ«التكتكة» على الكيبورد نفرتني من الكتابة عليه، ولذلك أنا ما زلت أكتب حتى الآن بالقلم؛ لأنني أعشقه، فالاختلاء بالورق والقلم ينشأ عنه جو رومانسي رائع، ففي رأيي هذا هو جو الكتابة الحقيقي، أما عن المدونات وتحويلها إلى عمل مطبوع، فأنا أعتقد أنها ظاهرة، وستنتهي مثل غيرها من الظواهر المؤقتة، فالمدونات لا تنتج أدبًا عظيمًا، وإنما من الممكن أن ينتج عنها بوح كبير، ولكن أن يتحول هذا البوح إلى عمل فني، فهذا مشكوك فيه، فكميات البوح على الإنترنت لا حصر لها، وهذا طبعًا يعجب الناس، ولكنه خطر جدًّا على الوجدان العام، ما لم يتحول إلى عمل فني، وهذا الأمر يحتاج إلى لجان عالية المستوى تنتخب من هذه المدونات ما يحتوى على فن حقيقي.

١٢- وماذا عن حركة الأدب الشابة الآن؟

أنا متابع جيد لأدب الشباب، وأرى أن هناك حركة جيدة للأدب الشاب، وأن هناك مجموعة من شباب الأدباء أعتبرهم واعدين، ولكن لا داعي لذكر

الأسماء؛ لأنها تكاد تكون معروفة.

١٣- ما هي النصيحة التي يمكن أن تقدمها لهم؟

«اقرؤوا ألف صفحة لتكتبوا صفحة واحدة».

وهُنا انتهى الحوار عِند نَصيحته للكُتاب الشباب، والتي مِن الواضح أنها جاءت بعد مُعاناته مِن قراءة بعض الكتابات التي يشوبها الكثير من الضحالة اللغوية والسطحية الأدبية.. انتهى الحوار ولكن لم تنتهِ علاقتي بالرجُل، والتي استمرت قائمة حتى وفاته -رحمه الله- وكان اللقاء الأول به بعد عملي في مكتبات (أ)؛ لمُناقشة روايته «إسطاسيا»، وكانت هُناك قناة تلفزيونية تُغطي الحدث، وفي لقاء معه قبل الندوة سألته المُذيعة عن روايته وعن معنى اسمها، وقالت هكذا: «ما معني اسنطاسيا» فنَظَرَ لها الرجُل مُندهشًا برفع حاجبيه كما تَعَوَّد، وقال «إسطاسيا.. إسطاسيا»، ودون أي شعور بالخجل كررت المُذيعة: «إنسطاطيه»، فكاد الرجُل أن يتركها ويذهب، ولكن المُعدَّ قال له إن كُل ذلك لا قيمة له فسوف يُحذف في المُونتاج، فأجرى حوارًا قصيرًا، وذهب ليجلس على منصة المُناقشة، وكَان سؤالي الأول مُصاغًا بهذا الشَّكل:

«الأستاذ خيري شلبي باعتبار أن روايتك الأخيرة هي رواية «إسطاسيا» فماذا يمكنك قوله في الـ.....»، فقاطعني الرجُل بحزم شديد وقال:

- هي روايتي الأحدث وليست روايتي الأخيرة، وهُناك فرقٌ كبير.

فأدركت حينها فداحة صياغة السؤال، وأعدت تشكيله بمُفردة «الأحدث» بدلًا مِن «الأخيرة» باعتبارها نَذير شؤم على الرجُل، ولكن القدر قال كلمته، وبالفعل كانت «إسطاسيا» هي الرواية الأخيرة للرجُل، رَحِم الله الأديب الكبير.

هذا «صُنع الله»

تعرفت على كتابات الأديب الكبير «صُنع الله إبراهيم» أثناء دراستي للفلسفة في كُلية الآداب، وقد كُنت حينها مِن قُراء الأدب، لا سيما أدب أمريكا اللاتينية، وخصوصًا أباهُم الذي علَّمهُم السِّحر «جابرييل جارسيا ماركيز»، وذات مَرة وبعد مُحاضرة طويلة ومُرهقة عن الفيلسوف اللاهُوتي الدانماركي «سورين كاركيجارد» رائد الوجُودية المُؤمنة، وأثناء الراحة بين المُحاضرات، وجدت أحد زُملائي، والذي كان ماركسيًّا تروتيسكيًّا، مُمسكًا بكتاب له غُلاف أبيض لا زِحام فيه، فقط رسمة لامرأة يخلو وجهها مِن الملامح باستثناء شفتين حمراوين، وفوق رأسها رَفٌّ عليه عِدة زُجاجات وأكياس لمُنتجات استهلاكية كالكوكاكولا والنسكافيه والإيريال.. واسم الكاتب «صُنع الله إبراهيم» وعُنوان الكتاب كلمة واحدة وهي «ذات» ومُذيَّل بكلمة رواية.

الغلاف غريب، واسم الكاتب غريب، واسم الرواية غريب، ولكن الأغرب أنني لم أكُن أعرف هذا الأديب الذي قال صاحبي إنه أهم كُتاب العصر الحديث عربيًّا على الإطلاق، استأذنته في تصفُّحها فأذِن، ولفَتَ نَظَري تصدير ها بقول الناشر «الوقائع الواردة في بعض فصول هذا الرواية منقولة عَن الصُحُف المصرية، الحكومية مِنها والمُعارضة، ولم يُقصد بإعادة نشرها تأكيد صحتها، أو المساس بمن تناولتهم، وإنما قَصَدَ به المُؤلف أن يعكس الجو الإعلامي العام الذي أحاط بمصائر شخصياته وأثر فيهم»، ولم يكُن النَّقل عَن الصُّحف أمرًا معروفًا أو مُستساغًا في الأدب، أو على الأقل فيما قرأت، فأثارت هذه الكلمات فضولي، فقررت أن أستعيرها، فَرَحَّب الزميل مشكورًا، وأذكُر أنني

قضيت ليلتي مستيقظًا ولم أنم حتى انتهيت مِن هذه الرواية العجيبة، وتستطيع أن تقول وأنت مطمئن البال وقرير العين: إن هذه الرواية قد فتحت بطن مِصر السبعينيات ومصر الثمانينيات، وعَرَّت الكثير مِن الزيف الذي كان مُنتشرًا، تارةً تَحت غطاء سياسي، وتارة أخرى تحت غِطاء ديني، وتارة ثالثة تحت غطاء اجتماعي، مِن خلال سَرد تقريري في كثير مِن أجزائه، ولكن العجيب في الأمر أن هذه التقريرية كانت مُمتعة ومُشبعة، بل ومُلهمة، رَغمَ أنها لا تجُوز في عُرف الأدب فيما كُنت أعتقد، فاتخذت قرارًا تمنيت أن يُعينني جَبِبِي عليه، وهو أن أَغزُو المكتبات؛ للحصول على كُل أعمال هذا الرجُل الاكتشاف، وبالفعل سألتُ صديقي عن مصدرها، فقال: مكتبة في ميدان «طلعت حرب» اسمها مكتبة «مدبولي»، فَطِرت إلى هُناك فورًا، وحينما دَخَلت المكتبة، وجدت رجُلًا ذا هيبة يُلقي بعض التعليمات على شاب صغير يقف أمامه في خضوع واستسلام، عرفت فيما بعد أن هذا هُو الحاج «مدبولي» بذات نفسه، وحينما رآني أشار للشاب بيده كعلامة للانصراف، ونظر إليَّ مُبتسمًا وقال:

- أؤمر.

وفي الحقيقة هيبة الرجُل منعتني حَرَجًا مِن أن أقول له على طَلَبي، فشكرته، ووجهت وجهي ناحية الشاب وقلت له:

- كُتب صُنع الله إبراهيم.

فأشار إلى رَفٍّ قَصِيٍّ في نهاية المكتبة، فذهبت ووجدت هُناك كُل أعماله المنشورة آنذاك تقريبًا: (اللجنة - بيروت بيروت - نجمة أُغسطس - وردة - تلك

الرائحة».

وكانت الغزوة الصُّنعاوية الكُبرى، فقد عَلَّقْت كُل قراءاتي، وعَطَّلت كُل مُذاكراتي، وتَفَرَّغت لهذا التنين الأدبي المُجَنَّح المُسَمَّى «صُنع اللّٰه إبراهيم»، وكان الشَّغف هُو القَرين الأقرب في مرحَلَتَيْ ما قَبل وأثناء القراءة، والدَّهشة والانشكاح هُما قرينا مرحلة ما بعد القراءة، وأذكُر أن الجلالة قَد أخذتني، وقررت أن أكتب دراسةً عَن أدب «صُنع اللّٰه إبراهيم»، ولكن بكُل أسف انشَغَلت عَن هذا المشروع المهم الذي شَغل عقلي مُدة طويلة بالدراسة الجامعية التي طالت لمُدة ثَماني سنوات، حيث إنني التحقت بكُلية الحقوق بعدما أنهيت الدراسة بكُلية الآداب، وبالتزامن مع الدراسات العُليا الخاصة بالفلسفة، ثُم ماتت الفِكرة تمامًا، ولكن أدب «صُنع اللّٰه إبراهيم» لم يمت، وظَلَّ حاضرًا على موائد مُناقشاتي ومُسامراتي مع الزُملاء ومع أهل الاختصاص.

وكان عَمَلي في مكتبات (أ) كمُستشار ثقافي ومُدير للفعاليات فيما بعدُ بمثابة البوابة الملكية للتعرف بشكل مُباشر على الكَثير مِن كُتَّاب ومُفَكري ومُثَقَّفِي مِصر، وظل حلم اللقاء مع هذا الكَاتب الذي حَفَّزَ مُستشعرات الانبهار والإعجاب والتقدير لَديَّ يُداعب خيالي، حتى التقيت كاتبًا شَابًّا كان على صلة به، فاستأذنته في أن يكون وسيطًا بيننا؛ لدعوته للمناقشة والاحتفاء بشخصه وبأعماله، فرحَّب وقام بمُهاتفته وهُو مَعي، ثُم أعطاني الهاتف؛ كي أعرض عليه الأمر، فدار بيننا هذا الحوار:

- أهلًا يا افندم.. إزي حضرتك؟

- أهلًا.

- أنا مِن أشدِّ المُعجبين بحضرتك، وبكُل أعمالك الأدبية.. تقريبًا قرأتها كُلها.

- اللّٰه يخليك.. أؤمر.

- أنا فلان الفلاني، وباشتغل كذا في المكان الفلاني.

- ها.

- وكُنت حابب أدعوك لزيارة للمكتبة فرع مصر الجديدة عشان نحتفي بأعمالك.

- وما له.

- طيب أسمح لي آخد رقم حضرتك مِن الأستاذ، وأكلمك عشان ننسق المعاد.

- وما له.

- متشكر جدًّا، وإن شاء اللّٰه نَشْرُف بوجودك معانا.

- أهلًا وسهلًا.

نَظَرت إلى الكاتب الشاب مُبديًا دهشتي مِن هذا الاقتضاب في الحوار، والذي يبدو مِن خلاله أنه غير مُرَحِّب بي ولا باللقاء، فابتسم الشاب، وأكد أن مُشكلتي أنني لا أعرف «عم صُنع اللّٰه»، وأنني لست مُعتادًا على الحديث معه، حيث إن الرجُل هَكَذا دائمًا.. مُقتضب ومُكثف، فأخذت الرقم منه، والذي

فوجئت بأنه رقم أرضي، فقُلت له: إنني أُريد المُوبايل، فقال: هو لا يَحمل موبايل، فزادت دَهشتي، وتمددت حيرتي، ولكن ما لي وذلك؟ هل تضايقت لمُخالفة الصُّورة التي رسمتها للرجُل في خيالي عن الصورة التي ظَهرت مِن خلال المُحادثة؟ وهل تلك المُحادثة القصيرة جدًّا قادرة على أن تَمنحك تصورًا عن شَخصه؟ وما الذي كُنت تتوقعه مِن هذه المُحادثة؟

خرجت مِن بحر الأسئلة والظنون، وبدأت أعُدُّ العُدَّة للرجُل مِن قراءة مُستفيضة لكُل ما كُتب عنه مدحًا وذمًّا تقريبًا، وأُجَدد نشاط حاسة تذوق الأدب لَدَيَّ بقراءة مقاطع مُطولة من رواياته، حتى أتذكر أهم أحداثها وشخصياتها ومساراتها، حتى قبل أن نُحَدد موعدًا لندوته، وفي ليلة نَفس اليوم اتصلت به، واتفقنا في حوارٍ قصيرٍ على الموعد، ووجدتني أصف له الطريق باعتباره سيأتي بسيارته، ففاجأني بأنه لا يملك سيارة، وأنه سيأتي بتاكسي، فاستأذنته في أن يسمح لي بالذهاب إلى منزله؛ لاصطحابه ذهابًا وعَودةً.. فرَحَّب.

ذهبتُ على وصفته البدائية، وتوقفت عند البيت واتصلت عليه، وكانت والمشاعر قد ازدَحَمَت بداخلي خلال الدقائق العشر التي انتظرته فيها، فهل أُسلِّم عليه حين أراه فقط، أم أقوم باحتضانه، وتقبيل جبينه على ما منحه لي ولغيري مِن مُتعة استثنائية؟ تُرى هَل سيُحسن استقبالي، أم ستكون مُعاملته مُقتضبة كمكالمته؟ وأثناء الـ«هلهلات» الكثيرة، هبط الرجُل النحيف ذُو الشَعر الأكرت الكبير، مع امرأة في نفس سِنِّه تقريبًا عرفت فيما بعدُ أنها السيدة زَوجَته، وَجَدتني دُون أي حسابات بروتوكولية أو دبلوماسية أحتَضنه أثناء

السلام، وكانت المرة الأولى التي أراه على الحقيقة.. نَظَرَ الرجُل لي بِتَعَجُّب وقال:

- إيه ده؟ إنت ضَخم كِده ليه؟

وكَان سؤالًا مُباغتًا ومُربكًا، ولا يُناسب الصور الذهنية التي ظَلَّت تَتَشَكَّل في عَقلي طيلة الأيام الماضية، فالرجُل «بيألش» و«بيهزر» وليس جامدًا كما توقعت.. قالها وضِحك حتى بانت كُل أسنانه، فابتسمت في البداية، ولكن وجدتني أضحك أنا الآخر، وأقول له إن المُشكلة ليست في حجمي، ولكن في التباين المُريع بين حجمينا، فزادت ضِحكة الرجُل، وابتسمت المرأة الوقور التي بِجواره.

وكانت الرحلة القصيرة بالسيارة ودودة وحميمية، وتَحدثنا في الكثير مِن الأمور الشخصية، لدرجة أننا تطرقنا للأمور الأُسرية، فحكى لي عن زوجته وأبنائه وأحفاده، وحكيتُ له أيضًا عن زوجتي وأبنائي.. وبعد أن وصلنا دَخَل الرجُل المكتبة، وقابله المُحبُّون والمعجبون وغير المُصدقين، حيث إن الأمر لم يكُن بهذا اليُسر الموجود الآن، وكانت الندوات وحفلات التوقيع فِعلًا عزيزًا حينها، وفكرة أنك تستطيع مُقابلة كاتبك الكبير ومُحاورته وأخذ توقيعه وأخذ صُورة معه، كانت فكرة غير مُعتادة وصعبة التحقُّق.
دَخل الرجُل مُباشرة إلى قاعة الندوات رافضًا الجلوس في غُرفة الاستضافة؛ لأن الناس تنتظره، فجلستُ أنا وهو على المنصة، وبدأت النَّدوة.

بدأت بالترحيب به، وتحدثت عن علاقتي بإبداع «صُنع الله إبراهيم»، وكيف أنه أخذ بلُبِّي مِن أول رواية قرأتُها له، واستمرَّت المُقدمة قرابة عشر دقائق،

ثُم بدأت الأسئلة، والتي كان أولها هُو أطولها، حتى يتمكَّن الرجُل مِن الحديث أطول وقت مُمكن في البداية أمام جمهوره ومُحبيه، وكان سؤالًا من نوعية، أنت مِن الأدباء الذين يكتبون بالطريقة كذا، ولكنهم يقولون إنك كذا.. إلخ.. وأذكر أن سؤالي كان مكتوبًا في نِصف صفحة، وحينما طرحتها قد امتد لقُرابة الخمس دقائق، وقد ذيَّلت سؤالي بجُملة «فما رأيك؟». فوجدته يرجع بظهره للوراء ويقول: «يجوز»، فانتظرت أن يُكمل إجابته، ولكنه لم يفعل، فيبدو أنه كان قد اكتفى بهذه الإجابة، فقلت له: أنا أسألك عَن رأيك يا أستاذ، فردَّ بقوله: «مش هُمَ شايفين كده.. خلاص يبقى رأيهُم».

واكتشفت حينها أنني واقع في مُشكلة لا مَحالة، فإذا ظَل الحال هكذا فستنتهي أسئلتي كُلها في أقلّ مِن نصف ساعة، وتَبوظ الندوة، وتسوء سُمعتي، وللأسف كانت بالفعل كُل إجاباته مُختصرة وشديدة الاختزال، فاضطُررت لاختراع أسئلة ليست مُعَدَّة سَلَفًا، حتى أُغطي الوَقت المُخصص، وساعدتني على ذلك مَحبتي الغامرة للرجُل، وهَضم أعماله، فاستدعيت مِن الذاكرة أحداث وشخصيات رواياته، واتخذت مِنها مِدادًا لإكمال اليوم.

ومَرَّ اليوم بسلام، وجاءت رحلة العودة التي أصرَّ أثناءها على استضافتي، وطبعًا لم أستطع أن أرفض عرضًا كهذا، فأنا بالفعل أتمنى زيارة هذا الرجل العظيم، والتجول في أرجاء مكتبته والتي لا بُد عامرة، والجلوس في الأماكن التي أبدع فيها أعماله الأثيرة المُحببة، صَعَدتُ معهما السُّلم، وفوجئت بأن شقته في الدُور السادس والأخير في عمارة بلا مِصعد، وحينما لاحظ نَهجاني أثناء الصعود كان ينظر لي بأسىً ويقول:

- لازم تِخس.. ماتسبش نَفسك كده.

وكُنت أنظر له وأبتسم، ليس حرجًا، ولكن لأن النهجان كان قد قطع نَفَسي فلم أستطع الكلام! وما أن وصَلنا حَتى وجدتني أدخُل مكانًا شديد البساطة والإبهار، شَعَرت حينها أنني قَد وقعت من ثُقب زمني قَذَف بي في ماضٍ مُتَدَرِّج البُعد، فالأثاث ستيناتي الطراز، والمكتبة مُصمَّمة تصميمًا اشتراكيًّا، بلا أي زخرفة أو حليات، فقط عِدة خانات تحمل مُعظَمها كُتبًا ومُجلدات عَتيقة، وبَعض الكتابات الحديثة التي لم تنل شَرَف أن توضع بالمكتبة، وإنما رُصَّت فوق منضَدة عتيقة بجوار المكتبة، وتلفزيون ثمانيناتي يبدو مِن هيئته أنه مُهمَل، وورق حائط سبعيناتي بسيط النقش.

دعاني للجلوس في البلكونة الفسيحة ذَات الهواء البَحَري، وسألني عَن مشروبي فقلت: «شاي»، فظننت أنه سيفعل مثلما يفعل أي رجُل في بلدنا ويجلس بجواري ويقول: «الشاي ياللي جوه»، إلا أنه استأذنني ودَخَل المَطبخ ليصنع بنفسه الشاي، ويا سَعدي وهَنايا، سأشرب شايًا مِن صُنع عَم «صُنع» شَخصيًّا، الذي كان أقصى طموحي أن أقرأ أعماله أو أكتب عنها.. المُهم أننا شَربنا الشاي، وتحدثنا تقريبًا في كُل شيء، فوجدت أنني أمام حكَّاء لا يَمل الحديث، رغم ردوده البَرقية في الندوة، واكتشفت أن الرجُل رَغم صراحته الجارحة أحيانًا، والتي تُسبب له المشاكل في كثير مِن الأحيان، إلا أنه أحد أكثر الكُتاب الكِبار خَجَلًا وحياءً، لا سيما حينما أتكلم عَن أعماله، والتي ما أن أمتَدحها بصدق حتى يحني رأسه ويقول: «ما تبطل بقى يا ابني انت الكلام ده».

ولا يمنعني الآن عَن زيارته إلا ظروفه الصحية غير المُستَقرة، ولكن الودَّ قائم بيننا، إن لم يَكُن عبر الهاتف، فبكتاباته التي ما أن أستَعيد قراءتها حتى أراه

أمامي يحكيها ويحكي تفاصيلها.

الـ«خالد توفيق»

ومُعادلة الكاريزما المُدهشة

التقيت الرجُل لأول مرةٍ في ندوة ولقاء مفتوح بمصر الجديدة، وللأمانة لم أكن أعرفه إبداعيًّا إلا من خلال روايته «يوتوبيا» ذائعة الصيت، والتي كانت محل المُناقشة والتوقيع في ذلك اليوم، وهي رواية من أهم ما كتب الرجُل، بل يعتبرها البعض دُرة التاج بالنسبةٍ له، فضلًا عن أنها العمل الأول الذي يخرجه لقارئ الروايات العادي بعد أن كان خطابه الإبداعي موجهًا للناشئة واليافعين.

كُنت قد سمعت عن المغفور له كثيرًا، وعن المحبة الجارفة التي يحظى بها، لا سيما في أوساط شباب القراء وشباب الكُتَّاب على السواء، وحتى نُقاده ورافضوه كانوا غالبًا ما يُثنون على أخلاقه، وعلى فضله في إدخال العديد من الشباب إلى حديقة القراءة العَصِية والمُتَمَنِّعة، فكان الجميع يتحدث عنه بنشوة تبجيلية مُدهشة، مما ألهَب الشَغَف لديَّ للقائه.

وكانت عادتي أن أحضر إلى المكان قبل الضيف بساعتين على الأقل؛ لأنعم ببعض الهدوء والاستعداد في رُكن قَصِيٍّ أُراجع التزاماتي المهنية من الأسئلة التي سأطرحها على الضيف، وأيضًا محَاور النقاش الرئيسية، والتي مُهمتها خلق حالة من تجاذب الحديث بين الضيف وجمهوره، وبالفعل ركنت سيارتي بعيدًا وتمشيت إلى المكتبة كعادتي، فإذا بي أجدُ جُمُوعًا هائلة وممتدة أمام المكتبة، اعتقدت في البداية أنه تجمُّع تقليدي لشباب المنطقة، فهُم مُعتادون

على الوقوف ليلًا بجوار سياراتهم التي يتسابقون بها بعدما تخفُّ حركة المرور، ولكن حينما اقتربت أكثر بانت لي ملامحهم، وبانت لي أيضًا الكُتب التي يحملونها، ونظارات بعضهم السميكة، والتي تُوضح بجلاء هُويتهم القارئة، اخترقت الحشود ودخلت المكتبة لأسأل زُملائي عن الاستعدادات للحدث، فوجدت الجميع مُرتبكًا يدُور حول نفسه، هدَّأت من روعهم، وتابعت عدة أمور معهم، ثُم اتصلت بالرجُل فإذا به على مقربةٍ مِنا، فاستأذنته في الإسراع؛ لأن الموقف حرج، والأعداد تتزايد بشكل خارج عن السيطرة، ولم تمر عدة دقائق حتى سمعتُ جَلَبة بالخارج، فعرفت أنه قد أتى، استأذنتُ الشباب المُحيط به، وأخذته سريعًا إلى غُرفة جانبية، جلس الرجُل مُتعرقًا ومُمسكًا بمنديل قماشي من النوع المحلاوي يمسح به عرقه المُتجَاوز، سألته ماذا تشرب؟ فقال: «شاي سُكر خفيف»، ثم هَبَّ واقفًا وكأنه تذكر شيئًا مُفاجئًا، وأبدى قلقه من ترك الناس هكذا وهُم يعلمون أنه موجود، وطلب أن يشرب الشاي أثناء اللقاء، وخرجنا نشُقُّ صُفوف الناس شقًّا، وكان الناس يُسلِّمون عليه كقائد حرب خرج منتصرًا لتوِّه من معركة كُبرى، بينما الرجُل يمشي خافض الوجه خفيض الصوت، ويُسلِّم على الجميع بحرارة وحميمية، بل يقف يتحدث مع كبار السن، ويُداعب الأطفال بيد ويمسح عرقه الغزيز باليد الأخرى، وبعد الوصول إلى المنصة بعناء ومشقة جلس الرجُل، وجلست بجواره، وبدأت الندوة التي افتتحتها بقولي: «إنه يوُمٌ استثنائي»، وبالفعل كان يومًا استثنائيًّا في كُل شيء، في عدد الحضور.. في الحفاوة البالغة.. والمحبة الصادقة والمُتبادلة والتي تنضح على الوجوه.. وتواضع نجم الحفل، «وهذا أمرُ لو تعلمون نادرٌ وعظيم»، فضلًا عن أنني لم أنعم بطرح سؤال واحد أو أسعد برمي محور للنقاش أمام السيل الفياض من الأسئلة والمحاور

النقاشية، ومرَّ اللقاء بشكل سلس وساحر، وأنا مُنبهر بأداء الرجُل شديد العادية، وأبحث عن مكمن السحر الذي يُصيب مُحبيه، وقد صرت واحدًا منهم رغم هذا اللقاء القصير، واتخذت قرارًا فوريًّا بضمه إلى قائمة الأصدقاء المُقربين، هكذا حتى قبل أن أستطلع رأيه أو أعرف إن كُنت خفيفًا على قلبه أم لا، وإن كان هو يرتضي تلك الصداقة أم لا، ولكن ألحَّت عليَّ الرغبة في أن أُقيم جُسور تواصل بيني وبينه، فهُناك شبه ما بيني وبينه أُحاول استكشافه، ولكن في الحقيقة فشلت في استكشافه، وتركت التفكير في الأمر لوقت آخر.

كان التحدي الأكبر في ذلك اليوم هو مسألة توقيع الكُتب، فأنا على علم بظروف الرجُل الصحية، وعلى علم أيضًا بأنه لن يتحمَّل هجمة الناس المُتوقعة عليه، فاستأذنتهُم بلُطف في تنظيم صفوفهم، وتقديم البنات على البنين، فبعضهن وحسب ما عرفت قد أتى من مُحافظات أخرى، كدمياط، والمنيا، والفيوم، والسويس، وغيرها، فالتزم الجميع، ووقف الطابور مُمتدًا حتى وصل إلى كمين الشُّرطة بالخارج، ومِن حُسن الطالع أن الضابط الشاب المسئول عن الكمين كان على عِلم بقدوم الرجل، بل وكان مِن مُنتظريه أيضًا، وحينما ذهبتُ لألتمس منه العُذر على ما سبَّبناه من ربكة فوق الرصيف وجدته يُطمئنني بأن لا شيء، وطلب مني أن أُرسل للرجل بوكيه ورد قد أتى به خصيصًا له، ولكنه استحيا أن يفعل ذلك وهو يرتدي زِيه الميري وفي وقت خدمته، وطلب مني أن يُوقع روايته باسمه، فاستأذنته أن تكون الرواية هدية من المكتبة، دخلت المكتبة مرة ثانية لأجد الرجل غارقًا في عرقه بعدما اختلَّ نظام الطابور، واقتحم البعض على الرجُل مقعده، وهو يحمل كُتبًا كثيرة من ذلك النوع المُسمى «كتب الجيب» ليُوقِّعها، والعجيب أن الراحل الذي كان في حالة يُرثى لها لم يضِق بمثل هؤلاء أو يُعنِّفهم، بل كان يستجيب بشكل

غريب، بل يقطع التوقيع لطرح سؤال على الشخص الواقف أمامه، ويتبادل مع الحديث، ولاحظت أن خط الرجل في توقيعه وإهدائه بدأ يرتبك ويتوتر، وحينها استأذنت الجميع بالجلوس، وأنا سأمر عليهم واحدًا واحدًا لآخذ منه الكُتب التي يُريد توقيعها، ثُم أدعوه لأخذ صورة مع الرجُل، وأُشرف على ترك المُوَقع للقاعة بنفسي حتى يخف ضغط الناس، ويستطيع الرجُل أن يتنفس بحُرية.

انتهى ذلك اليوم العصيب الجميل في آنٍ واحدٍ نهاية مُوفقة، ودَعَوت الرجُل على العشاء، فاعتَذَرَ بلطفٍ شديد مُتعللًا بضرورة سَفَرِه إلى طنطا الليلة؛ لأن هُناك مُحاضرةً في الكُلية مُبكرًا، وَدَّعت الرجُل الذي رَكِبَ سيارته، وانطلق به السائق، ولكني لم أُوَدِّع طيفه الذي شغلني طوال الليل، وكانت الأسئلة الأكثر إلحاحًا على عقلي هي: كيف صنع «أحمد خالد توفيق» هذه المكانة النادرة في قلوب الشباب؟ ما هي مُقومات النجاح لديه؟ كيف تحققت كاريزمته الواسعة؟

فالرجُل يفتقر تقريبًا لمُعظم مُقومات النجاح وفقًا للمعايير المعروفة، ورغم ذلك حقق هذه الشُّهرة الواسعة، والمحبة الجارفة، فهو أولًا يُقيم إقامة كاملة في بلدته طنطا عاصمة مُحافظة الغربية، والتي تُعدُّ مِن المُحافظات المظلومة ثقافيًّا، وفي الحقيقة كُل المُحافظات تقريبًا مظلومة ثقافيًّا باستثناء القاهرة والتي تتمركز فيها سُلطة الثقافة الرسمية وغير الرسمية، وعلى استحياء يُمكن أن نُضيف الإسكندرية، والتي هي أفضل وضعًا من باقي المُحافظات على كُل حال، فالرجُل صَنَعَ كاريزمته وحضوره وهو بعيد

عن المركز، وعن شِلِل المُثقفين والكُتَّاب، والتي تُعدُّ ملمحًا مُهمًّا ولازمًا وضروريًّا من ملامح الثقافة القاهرية.

ثُم إنه لا يُحب التعامل مع غُول القرن العشرين الدعائي المُسمى «سوشيال ميديا»، فلم يكن مِن أصحاب الحسابات على «فيس بوك» ولا «تويتر» ولا «إنستجرام»، فقط حسابات يصنعها المُحبُّون والمُريدون لا علاقة له بها بشَكلٍ مُبَاشر، رغم أنه أسَرَّ لي ذات مرة بعدما تعددت اللقاءات بأنه يدخل «الفيس بوك» بين الحين والآخر مِن حساب غير معروف؛ ليتابع آراء وأخبار الناس من بعيد، وذلك في رأيي له دلالة مُهمة، وهي أن الرجُل لم يكُن مِن طُلاب الشُّهرة أو مِن الذين يسعدون بالإطراء، أو الذين يفرحون مِن كَمِّ المُتابعين والمُعلقين والمُعجَبِين، لذلك كان حريصًا على أن يعرف آراء الناس فيه مِن وراء حجاب؛ حَتى لا يُعرضهم لحَرَجٍ أو يُصَوِّب على رؤُوسهم سيف الحياء.

أما السبب الثالث الذي يجعله بعيدًا عَن أسباب الشُّهرة فهُو أن الرُجل عاش ومات مُوظفًا، حيثُ كان أستاذًا لطب المناطق الحارة بكُلية الطب جامعة طنطا، فلم يُعهد عليه الانضمام أو المُشاركة في كيانات أدبية أو جماعات ثقافية، أو حتى يُسَجِّل حضوره كعضو فاعل في قصر ثقافة طنطا، فقد كان بعيدًا كُل البُعد عَن كُل المظاهر الثقافية تقريبًا، كما كان له أيضًا سمت الرجُل المُوظف من حيث المظهر والملبس، فلم يسعَ لتمييز نفسه أو يتكلف في رسم هيئته، فبنطلون قماشي وقميص مشمر حتى الرسغين هو الشكل الذي اعتادته العيون.

وزِد من القصيد بيتًا أنه كان حييًّا خَجُولًا من أولئك الذين لا يُجيدون التواصل ولا يُفضلونه، فلم يكُن خطيبًا مُفوهًا ولا صاحب تون صوت رخيم يأسر الألباب، حيث كان حديثه هامسًا وصوته مبحوحًا وكلامه مُتسارعًا، وأظُنه كان غير اجتماعي ومحدود الصداقات أيضًا.

فكيف صنعت هذه الصفات اللاكاريزمية كاريزما الرجُل؟ هل هي كتاباته؟ فما المُختلف في كتاباته عن غيره؟ وهل تكفي الكتابات نفسها لخَلق هذه المحبة الجارفة في قلوب وعقول مُريديه؟ فكم من كاتب يشهد له القاصي والداني بعظمة ما يكتب، ولكنه لا يُحَصِّل عُشر ما حَصَّلَهُ الراجل من تماسٍّ روحي ووجداني مع القارئ.

وكان لزامًا عَلَيَّ قراءة مُنتجهُ الإبدَاعي أو بعض مِنه عَلَّنِي أَقفُ على أسباب أُخرى فيه لا في شَخصه تستحق تتويجه مَلِكًا على عَرش قُلوب شَباب القُراء، وللحق خُضت هذه التجربة، ولَدَيَّ قناعة شِبه مُطلقة بأن كتاباته لَن تَروق لي كثيرًا لأسباب منطقية، فالرجُل يُخاطب عُمرًا أصغر كثيرًا مِن عُمري، كما أن خبرتي الحياتية والمعرفية والأدبية تجعلني أتجاوز الكثير مِن الكتابات المُوجهة للشباب بشَكلٍ عَام، فذائقتي الأدبية قد نضجت بما فيه الكفاية من خلال قراءة عيون الأدب العربي والعالمي.

كُنت أشتري بالكتابين والثلاثة دفعة واحدة، وحينما أنتهي مِن قراءتهم أشتري غيرهم، قرأت للرجُل قُرابة الخمسة عَشر كتابًا بذهنية الباحث عن أسباب النجاح، ورُبما بذهنية المُتربص، فمحبتي له لم تمنعني من بعض المشاعر السلبية تجاه نجاحه الذي لم أكُن حتى ذلك الوقت قد وجدت له

تبريرًا أو تفسيرًا يقبله عقلي، كُنت كُلما انتهيت مِن كتاب اجتهدت في البحث عَن بُغيتي. هل الشكل البسيط للكتابة واللغة غير المُتعالية؟

رُبما..

هل عناصر الجَذب والتشويق التي يُجيد توظيفها؟

رُبما..

هل ردُّ الاعتبار لما يُسمى أدب الرُّعب أو الأدب البوليسي؟

رُبما..

هل اختيار الفئة الأكثر قراءةً وهي فئة الشباب وتوجيه خطابه الإبداعي لهُم؟ رُبما..

هَل لكُل هذه الأسباب مُجتمعة؟

يجوز..

هل لأسباب أُخرى لم أستطع التوصل إليها وتحديدها؟

لماذا لا.. !!!؟

ولما أعياني البحث قررتُ ترك الأمر برُمَّته، وقررت الانشغال بأمر آخر، ولكن بعد وفترة وجيزة صَعَدَ الموضوع فوق سَطح اهتماماتي مرة ثانية بمُناسبة نقاش دار بيني وبين أحد الأصدقاء كان محوره كتابات «أحمد خالد توفيق»،

وقد تلبَّستني روح المُثقف المُتقعر الذي يستمد أهميته في الحوار من قوة نقده للآخرين، رُحت أصُول وأجُول في كتابات الرجُل، وكيف أنها بسيطة لا ترقى إلى أن تكون أدبًا حقيقيًّا، وإنما هي وسيلة تسلية وإمتاع وقتي لا أكثر ولا أقل، وهُنا أوقفني صديقي بسؤال على الطريقة السُّقراطية أفسد عَلَيَّ نَشوة تَلَبُّس رُوح الناقد الخبير وقال: وما هي وظيفة الأدب الأساسية في رأيك؟ ففكرتُ قليلًا، ثم وجدتني أبتسم ابتسامة الراضي بالخسارة وقُلت: المُتعة والتسلية.. تَذكَّرتُ حِينها أنني استطعت قراءة الخمسة عشر كتابًا من الجلدة للجلدة دون كلل أو ملل أو استعجال أحداث أو سقوط إيقاع أو الإصابة بنُعاس القراءة، تذكرت انجذابي لقراءة الكُتب رغم أنني أتعالى عليها، وإن لم يكُن ذلك ظاهرًا للناس أو حتى لنفسي.

وكان خبر وفاة الرجُل أكثر الأخبار إزعاجًا في الوسط الأدبي، فما أن كَتب صديقه الدكتور «أيمن الجندي» الخبر على صفحته في «الفيس بوك» حتى أصاب الشباب بالذُّعر والهلع، فانهالت عَلَيَّ وعلى غيري التليفونات التي تَودُّ التأكد مِن صِحة الخبر، فاتصلت على الفور بصديق مُشترك، وهو الأستاذ «أسامة غريب» ليؤكد لي الخبر المُفجع بنفسه، ويؤكد معرفته بالخبر عن طريق السيدة زوجة الدكتور «أحمد» بنفسها، وما أن أعلنت الخبر على صفحتي حتى توالت ردود الفعل غير المُصدقة والمُنكرة، واتصلت بالصديق «أحمد مراد» حينها، فأكد لي أنه الآن في المُستشفى، ولن يتركه إلا بعد إنهاء كل الإجراءات، وبالفعل ظل «مُراد» وبعض تلاميذ الرجُل ومُريديه، فضلًا عن أسرته بالطبع معه حتى الانتهاء مِن كُل شيء، وأذكر أن جنازته كانت الأكبر والأكثر حضورًا على الإطلاق، وكُنت كُلما نَظَرت في عين أي شاب أجد حُزنًا صادقًا لا مِراء فيه، أما الفتيات فقد اتَّشَحن بالسواد وبكين الرجُل بكاءً مُرًّا

وكأن كُل واحدةٍ مِنهُن تبكي أباها أو أحد أقربائها، أما عزاء الرجُل فقد جاءه الشباب مِن كُل حَدبٍ ينسلون، وكأنه يوم الحَشر.

ذهب الرجُل وبقي الأثر.. ذهب الجَسد وبقي الإبداع.. ذهب «أحمد خالد توفيق» وتَرَك سؤالي حائرًا: ماذا بينك وبين اللّٰه يا رجُل ليُحبَّك الناس بهذا الشَّكل؟

رُبما تكون الإجابة في دَعوة أمٍّ ساعة استجابة: «روح يا ابني.. ربنا يحبب فيك خَلقه».

صَاحِبُ الجَلال

اتصل بي مُدير عام مكتبات (أ) مُبتهجًا، وقال إن هُناك موعدًا قد تم تحديده لزيارة الدكتور «جلال أمين» للمكتبة، والتي لم تكُن أكثر مِن فَرع واحد حينذاك؛ ليتعرف علينا ويشرب معنا الشاي، لم أصدِّق ما سَمِعت، فقد كان «جلال أمين» دائمًا هَدَفًا بعيد المَنَال، بَل كان هَدَفًا مُستحيلًا، فهل سيأتي بالفعل هذا الكبير ابن الكبير إلى المكتبة، ونَجلس معه، ونُناقشه في أمور الحياة، ونطرح عليه أسئلتنا المُؤرقة، ونُلقي في حجره همومنا الشَّاغلة.

وكان ذلك في العام الذي سَبَقَ الثورة المصرية في ٢٠١١، وهي مرحلة الاضطراب السياسي والعكعكة المُباركة، والرجُل لم يكُن مُفكرًا مِن العيار الثقيل وحسب، إنما كان أستاذًا بل عالِمًا للاقتصاد، وأنا شخصيًّا استخدمت كُتبه كمراجع مُوثقة في مرحلتي الدارسة الجامعية والدراسات العُليا، وكان يُمثل لي الكثير والكثير، لا سيما أنني أيضًا قارئ نهِم لمُعظم ما كتبه والده الراحل الكبير أحمد أمين، وأيضًا أخوه الراحل «حسين أحمد أمين»، فقد كانت أُسرة مُثيرة للانبهار المعرفي، وأذكر أن علاقتي بكُتب الرجُل قد بدأت قبل هذا اللقاء بخمس سنوات، وتحديدًا مع كتابه «خُرافة التقدم والتخلف» الذي «شَقْلَب» تفكيري تجاه الكثير مِن الأفكار، فقد كُنت من المُنبهرين بالحضارة الغربية بشِدة، وخصوصًا بعدما توغَلتُ في القراءة لمُفكرين أوروبيين وأمريكيين، وصِرت مِن المُؤمنين بضرورة تطبيق الحلول الغربية على ثقافتنا حتى تنضج وتَزدَهِر، وكان يُقابل هذا الانبهار انهيار مُضادٌّ في عَقلي لكُل قيم الثقافة العربية، والتي لم أكُن أرى مِنها إلا كُل ما هو قبيح،

كَتَحَجُّر العقول والسلفية الماضوية والشوفينية الكاذبة والادِّعاء والزيف والديكتاتورية التي تصنع تَزَلُّف الشعوب ونفاقهم، وتشوُّهاتهم القيمية والأخلاقية، قُل في النهاية لم أكُن أرى شيئًا ذا قيمة لدينا.

وجاء الكتاب كَقَرعة عنيفة على باب عَقلي الذي كُنت قَد أغلقته بالضَّبَّة والمفتاح، مُمَارسًا نَفس الأمراض الفكرية التي أنتقدها، ولكن تجاه قناعات مُختلفة.

فالكتاب يُثير كما هُو مُوَضَح في مُقَدِمته شكوكًا كثيرة في صِحة الاعتقاد بفكرة التَقَدُّم والتَخَلُّف، وفي أن التَقَدُّم لا يأخذ خَطًّا صاعدًا في التاريخ، حيث دأب البشَر على الاعتقاد بأن الحديث دائمًا أفضل مِن القديم وأكثر تقدمًا، وأن المُقارنة بين ما هُو تقليدي وما هُو عصري تنتصر بالضرورة للعصري على حساب التقليدي، تمامًا مِثلما يُنَظِّر المُفكر الأمريكي «فرانسيس فوكوياما» في كتابه المُثير للجدل «نهاية التاريخ وخاتم البَشَر»، حيث يرى أن التاريخ ليس مُجرَّد سجلٍّ للأحداث بل عملية ارتقاءٍ متواصلةٍ للفِكر البشري، وأن مبادئ الليبرالية والديموقراطية والاقتصاد الحُرّ الغربيين هم بمثابة مرحلة نهاية التطور الأيديولوجي للإنسان.

ثُم الفكرة المُهمة التي يُؤكِد عليها وهي أن التقدُّم قد يكون في مجالات دُون مجالات، فلماذا نتعامل مع التقدم الحادث على أصعدة مُعينة على أنه التَقَدُّم المُطلق، ولماذا نتعامل مع أمراضنا الفكرية على أننا لا نملك صفَات غيرها، ولا نتميز عن غيرنا بأي شيء، ثم إن كلمة التقدُّم تلك لم تكُن مطروحة قبل عصر النهضة الأوروبية، فقد دَخَلَت العقول حينها على أساس أنها الفضيلة الكُبرى التي على الإنسان أن يحارب ويُجاهد مِن أجل الوصول إليها، فصار اللُّهاث

وراء التَحديث عُنصُرًا مِن عناصر تفوق الأمم، وقد كان يُنظَر للتاريخ قبل عصر الحداثة أو النهضة الأوروبية باعتباره دورات مِن الصعُود والهبوط، وبدا ذلك واضحًا عند العالم العربي «عبد الرحمن بن خلدون» في كتابه المهم «المُقدمة» الذي يؤكد أن الدول لها دورة حياة مثلها بالضبط مثل الإنسان تمامًا، بمعنى أنها تولد، ويقوى عودها، وتشتد، وتهرم، ثم تموت.

وَقَعتُ أسيرًا لهذا الكتاب الذي علَّمني النَّظر للأمُور بعين أكثر تيقُّظًا، وعَدم الاستسلام للفكرة لمُجرد أن العادة جَرَت على التسليم بصحتها، ففتح هذا الكتاب الباب على مصراعيه للتَعَرُّف على فكر الرجُل.

وما أن عرفت بمقْدِمه حتى دَخَلت صومعتي المنزلية، وأحضرت كُل كُتبه الموجودة في مكتبتي، ورُحت أُعيد استكشافها مرة ثانية، ولكن كان القلق حليف رُوحي حينها، فكيف يُنَاقَش هَذا الرجُل؟ وما هي نوعية الأسئلة التي تُناسب عقله؟ وهل سيتحمَّل أي سؤال ساذج أو سَخيف؟ وتُرى كيف سيكون رَدُّ فِعله على الأسئلة التي لا تَرُوق له؟ حاولت طَرد الوساوس استدعاء قُوة مزعُومة، أستدعيها دائمًا ولكنها لا تأتِ أبدًا، فَكَّرت بأن أتَعَلَّل بأي حجة لأغيب عن هذا اللقاء، لا سيما وأنه محدود، وليس جماهيريًّا يُمكنك أن تتوه وَسَط الحاضرين بأخطائك، ولكن مُدير المكتبة يعتبرني المُثقف الأكبر في المكان، ويجب أن أُظهِر عضلاتي الثقافية في لقاء الرجُل، وإلا فما الدَّاعي لمنصب المستشار الثقافي مِن الأساس، فضلًا عَن الخَوتة التي أُثيرها، فالمستشار الثقافي راح.. المُستشار الثقافي جه.. وعند الاختبار الحقيقي أخلع؟!

وكَان اللقاء الصباحي المُدَربِك للبطُون، جِئت مُبكرًا مع الشباب وهو يفتح باب المكتبة، وجلستُ في الصومعة المكتبية أحاول تَقَمُّص دُور شخص يُقابل

شخصًا مُهمًّا ويُرحِّب به، ثُم يَفتَح معه موضوعات للمُناقشة، بل ويقوم بالرد على ردوده التي لا يعرفها ولا يستطيع توقعها.

وهوووووب.. الحق.. الدكتور وَصَل، وخرجنا لاستقباله والترحيب به وبرفقائه، أوقفت الرجُل في مُنتصف المكتبة، وأخذت أشرح له تقسيم الكُتب وتصنيفها، وأهم المشاريع الثقافية التي نَطمَح لتنفيذها، فإذا بالرجُل يضحك ضحكة صافيةً خارجة مِن قلبه وهو يقول:

- طب مش لما ناخد نفَسنا الأول.

فابتسمتُ وأشرتُ له بالدخول إلى مكان الضيافة دُون أن أنطق بكلمة، ورغم إحراجي من رَدِّ فِعله، إلا أن ضحكته العالية الخالية مِن التَصَنُّع أثلَجَت صَدري وأدخلت عليه بعضًا من الطمأنينة، فجلسنا وجلس الرجُل ينتظر كُلٌّ مِنا الآخر لفتح باب النقاش، وما لبث الرجُل أن سأل عن الحال والأحوال، وعن المكتبة وهل هي مشروع مُربح؟ أم إن محبتنا للثقافة فقط هي التي حرَّضتنا على خَوْض مثل تلك التجربة؟ ولاحظت أنه كان يطرح السؤال وينتظر الإجابة، ويستمع إليها كاملة دُون مُقاطعة، حتى لو كانت غير مُقنعة، فَشَجَّعَنِي ذلك على الانطلاق نَحو الأسئلة الثقافية، والتي كان يُجيب عنها بشكل مُختصر، ثم يسأل بعد كُل إجابة سؤال -أعتقد أنها لازمة مُصاحبة لحديثه:

- ولا إيه رأيك؟

وهو أسلوب سُقراطي لطيف يجعلك تعتقد بأنك فاعل في الحوار، أو أن رأيك سيُثقل ميزان الحقائق، وبعد أن تتشَجَّع وتُلقي بدَلْوِك في بحر معارف الرجُل، يَنظُر لك مُنبهرًا ويقول:

- واللّٰه مُمكن برضه.

ثُم ينظُر للحضور ويُؤكد لهم أن كلامك يحمل جانبًا كبيرًا مِن الوجاهة المَعرفية، ثُم يبدأ وبِشَكل لطيف بطرح رأيًا مُخالفًا لما قُلت ثم يقول:

- قَد يكون زي ما باقول وقد يكون زي ما بيقول.

ولكن الجميع يكون قَد تأكد بما لا يَدَع مجالًا للشَك أن رأيك قد أُحِل دَمه ونُحِر على مَذبح رأيه، بمن فيهم أنت شَخصيًّا، ولكن هذا الأداء «الجلال أميني» يُشجعك أكثر على احترام رأيك، والذي تَطمئن لأنه «قد يكون» صحيحًا، وإن لم يكُن كَذَلك فهو على الأقل رأي يُحترم، وبعد دقائق مِن الحوار تَشَجَّعت وقُمت بطَرح أسئلة في الاقتصاد والاجتماع، وهُما صُلب اختصاصه، ولم أكتفِ بإجاباته، بل كُنت أقول رأيي فيها أيضًا، باختصار تستطيع أن تقول إنني «سُقت فيها»، ودَخَلت بحماري حَتَّى النهاية.

فإلى هذا الحَدِّ استطاع الرجُل أن يُقلص الهُوَّة الشاسعة وبينه وبيننا، بين معرفتنا ومعرفته، استطاع أن يُقيم جسرًا مِن المودة الصادقة، بعد أن هَدَمَ حائط الرهبة في نفوسنا، بل وحَرَّضنا على طَرح الآراء، ليشتري بضاعتنا، فيعلم حينها على أي أرضٍ نَقِف، فيحُاورنا من فوق نفس الأرض.

توالت اللقاءات بعد ذلك، والتي كان أكثرها زَخَمًا وحضورًا تلك التي تَلَت ثورة يناير مُباشرة، وصَرَّحَ الرجُل أكثر مِن مَرة عَن انبهاره بشباب الحضور، وتثمينه شجاعتهم ووقوفهم في وَجه الطُّغمة الحاكمة، ولكنه كان يتحَفَّظ على مَطالبهم غير الواضحة، أو مطالبهم التي قَد تَصلُح كشعارات للميدان وحسب، ولكنها لا تُقِيم شكلًا صَلبًا مِن المطالب، يُمكن للقائمين على الأمر أن

يتعاملوا معها بالجدية اللازمة، وكان يتعرض للكثير مِن الهجوم مِن الشباب المُتَحَمِّس، ولكنه كان يُقابل هذا الهجوم بابتسامته اللطيفة، ويقول كلمته الأثيرة حينما يعترض أحد على كلامه: «يجوز»، ثُم ينتقل إلى موضوعٍ آخر.

تَعرَّض الرجُل للكثير مِن الوعكات الصحية، جعلته قليل الحركة، فكُنا نقوم بزيارته في المِنزل، وكان يستقبلنا في غُرفة مكتبه الهادئة، والتي تَخلو مِن كُل شيء إلا المَظَهر الثقافي ودرَّاجة رياضية ثابتة، وأذكر أن المَرة الأخيرة التي زُرته فيها، كانت الدَّرَّاجة خَلف الباب، مِمَا يصعب مع وجودها فتحه بشكل كامل، فَتَطَوَّعْت لحملها إلى مكان آخر بعيدًا عَن الباب، فأَبَى بِشدة وأصر على حَملها وقال:

- إنت فاكرني عَجِّزت ولا إيه؟ لا دانا لسه متين.

وضَحِك ضِحكة مُجلجلة اهتزَّ لها قَلبي، فقد أيقنت حينها أن الرجُل المريض يُحاول أن يُثبت لنفسه ولمن حوله أنه بصحة جيدة، وكان يسألنا دائمًا فور جلوسنا عن أحوالنا وأحوال العالم في الخارج، فنُمازحه ونقول:

- أنت تعرف كُل شيء يا دكتور.

فيرد المُزحة بمُزحة ويقول:

- ليس مَن سَمِعَ كَمَن رأى.

وكُنا قد خَطَّطْنَا لزيارة جماعية له في محنة مرضه الأخير، ولكن القَدَرَ لم يُمهلنا، فرحل تاركًا وراءه إرثًا معرفيًّا واعيًا نادر الحدوث، وظل الرجُل حاضرًا بكُتبه وأفكاره وتلاميذه، فضلًا عن أثره الطيب الذي كان يتركه في

أي مكان، وأنا شخصيًّا أعتبر أنه واحد مِن الذين خَطَّ قلمهم بِعَقلي خطوطًا مِن الصَّعب محوها، ورَسَمت شخصياتهم بقلبي رسومًا مِن المُستَحِيل طَمسها.

رَحِمَ الله صاحب الجَلال.

«العشماوي» المُرعب

التقيت الأديب «أشرف العشماوي» للمرة الأولى في العام ٢٠١٢؛ لمناقشة وتوقيع روايته الأحدث آنذاك «تويا»، وأثناء بحثي عن الرجُل لدراسته قبل اللقاء، وَجَدت أنه صاحب رصيد مُشرف في مهنة القضاء، حيث كان يعمل (حينها) قَاضيًا بمحكمة الاستئناف، وشَغَلَني سؤال مُلحٌّ تَحَرَّجت من طرحه عليه، حَول المُوازنة بين عمله كقاضي مَنَصَّة تنغَرس قدماه في أوحال الواقع، وروائي يُحلِّق بجناحين في فضاءات الخيال، وفي الحقيقة لم أكن قَد التقيت قاضيًا مِن قَبل، أو حتى رأيتهم، فأنا لم أدخل محاكم ولا حتى أقسام شُرطة، والمرة الوحيدة التي دخلت فيها محكمة لم تُسفر عَن رؤية أي مِنهُم، وكُنت أظُن أن القاضي شَخص مُتجهِّم طوال الوقت لا يخلو وجهه مِن تكشيرة وقورة، وأهَّلت نَفسي لذلك قبل الندوة، واتخذت قرارًا ألا تقلَّ تكشيرتي عن تكشيرته؛ حتى يعرف أننا المواطنون أيضًا يُمكننا أن نُكشِّر، ولا يُمكن لأحد أن يُزايد على وقارنا أو احترامنا، ولا أعرف لماذا حرصت وللمرة الأولى على إظهار النِدِّية في مُقابلة الرجُل، رُبما للصورة الذهنية التي طَبَعَتها في عقلي مشاهدة قُضاة التلفزيون، أو رُبما تذكرت أن هذا الرجُل هو الذي يحكم على الناس بالإعدام أو بالسجن أو حتى بالغرامة، فأردتُ وبشكل دفاعي لا إرادي أن أُثبت لنفسي وله وللمحيطين أنني أيضًا أحكم على إبداع الناس وأُقيِّمه وأقول فيه قولًا سديدًا، بل إنني سأُقَيِّم عمل القاضي نفسه، إنه بالتأكيد جاء وهو يعلم ذلك، بل جاء ليستَمع إليه.

وَصَلت المكتبة قبل موعد الندوة بساعتين كعادتي؛ لأُتابع الترتيبات اللازمة، ولأَضع نَفسي في المُود، فأقوم بقراءة الأسئلة عِدة مرات، وبإداء تمثيلي مُشابه لأدائي أثناء الندوة، وكُنت بالطبع أختار ركنًا قَصيًّا لا يراني فيه أحد؛ حتى لا يتهمني العاملون بالمكتبة بالجنون، وقبل الموعد المُحدد بنصف ساعة جاء الرجُل وأسرته، فخرجت للاحتفاء بهم، مع الاحتفاظ بالتكشيرة التي عاهدت نفسي على رسمها، فإذا به يُقابلني بابتسامة ودودة ومُرحِّبة وسلام حميمي كسلام الأصدقاء القُدامى، فَأفسَدَتْ وِفَادته بهذا الشُكل كُلَّ مُخططات العَنطَزة التي رسمتُها طوال الأيام الماضية، فهل سأستطيع في هذا الوقت الضيِّق وضع مُخطط آخر للتعامل مع الرجُل؟ وهل وُدُّه ذاك حقيقي أم مُصطنع؟ وهل هُو لطيف لأنه أديب، أم إنه لُطف البدايات؟

وكان السؤال الأول الذي طُرح قبل الندوة مِن نصيبه هُو لا أنا، فسألني عَن رأيي في الرواية، وذَيَّلَ سؤاله بجُملة: «مِن غير مُجاملة والنبي»، ولأن مَن يعرفني يعرف جيدًا أنني شَخص مُجامل، ولا أحب مُضايقة أحد أو التقليل من مجهوده، ولكنني وجدت نفسي أُحدثه بكُل صدق عما أعجبني وما لم يُعجبني في الرواية، فوجدت الرجُل مُستمعًا جيدًا وشديد الإنصات، ولم يُعلِّق على تعليقاتي، وإنما رَحَّبَ بها جميعًا، رغم أنني كُنت في انتظار ردود القُضاة المُفحمة، ولاحظت أن الرجُل مُتهيب الموقف مِثلي تمامًا، وجاء إلى المكان وهو خالع تمامًا بُردة القاضي، بل وبُردة الأديب أيضًا، جاء مُرتديًا رداءً واحدًا فيما يبدو وهو رِداء التعارف والمحبة التي غَمرت اليوم.

وبَعد انتهاء النَدوة وذهابي إلى البيت، فوجئت به يَتَّصل عليَّ؛ ليَشكُرني على اليوم، في مُكالمة استمرت نحو ساعة، رغم أنها كانت الأولى، فأيقنت حينها

أن كُل تصوراتي تجاه الرجُل لم تَكُن أكثر مِن توهمات اتخذت شكلًا وجيهًا مبنيًّا على ثقافة ضَحلة في قراءة الناس.

وتحدثنا في المُكالمة عن أعماله وأعمال الآخرين، وقراءاته وقراءاتي، وترشيحاته وترشيحاتي، حتى تطورت العلاقة لتُصبح صداقة حقيقية وصادقة ومُحِبة، رغم أنني لا أُقيم صداقات في الوَسَط الثقافي، رُبما لأنني كما قُلت سابقًا شخص انطوائي انعزالي وغير اجتماعي، ورُبما لأنني شخص خائب لا يُجيد صُنع العلاقات، رغم محبتي للجميع، حتى مَن يختلف الناس بشأنهم، كما أن الصداقات تُختار بميزان حساس، وتتشكَّل مِن خلال العديد مِن اللقاءات التي تجمعني بالصديق المُحتمل، إلا أن «أشرف العشماوي» كان قد دَخَلَ القلب مُباشرةً أثناء وبعد اللقاء الأول، وتَرَبَّع في الرُّكن المُخصص للأصدقاء المُقربين.

توالت اللقاءات والمُكالمات التي كانت تبدأ دائمًا بالحديث في شأن أدبي، ولكنها تتحول سريعًا جدًّا إلى شئونٍ خاصة يتناقش فيها الإخوة، ثُم ما تلبس المُكالمة أن تتحول إلى كركعات وقهقهات تَصِل إلى عَنَان السماء، وقد نسيت أن أقول لكم إن «العشماوي» واحد مِن أظرف الكُتَّاب وأكثرهُم فُكاهة وخِفة دَم، مع أن كتاباته لا تَشِي بذلك، بل إنه يتفنن في ضَرب المقالب الحميدة في الأصدقاء، فأذكر ذات مرة، كُنت مدعوًّا أنا وأخي «عمرو»، والأصدقاء «أحمد مراد» و«أسامة غريب» و«حسن كمال»، على إفطار رمضاني عند «العشماوي»، وأثناء الطعام سألت إن كان هُناك أكل نباتي، فأكد لي عِلمه بأنني لا آكُل اللحوم، ووضع أمامي بعض الأطباق النباتية، ومنها طبق لسان

عصفور، فسألته إن كان به شُوربة لحم أم إنه قد صُنع بالماء فقط، فنظر لي نظرة المُعاتب وقال:

- مِش عيب.. يعني أنا هاورطك؟ بمية بس طبعًا.

ولأنني نباتي أخلاقيًّا ولست نباتيًّا صحيًّا، لم ألحظ طَعم المرق الغارق فيه لسان العصفور، وشربته بمُتعة شديدة، بل وطلبت المزيد، وبعد أن انتهينا مِن الأكل، وأثناء تناول قهوتنا، وجدته يضع يده على كَتفي في حنوِّ أب ويقول:

- «عماد».. إنت لا طلعت نباتي ولا يحزنون.. إنت بتشتغلنا.

فشعرت حينها بأن الغدر كان حاضرًا أثناء الطعام، فقلت سريعًا:

- لسان العصفور كان فيه شُوربة لحم.. صح؟

فضحك حينها «أسامة غريب» ضحكته المُجلجلة، والتي يُمكنك سماعها مِن على بُعد عِدة كيلومترات، وقال:

- إنت بتهرج يا «عماد».. هو فيه حاجة اسمها لسان عصفور بالمية؟

وهُنا عَجَّ الصالون بالضَحك على العَبد لله، وعبثًا حاولت إفهامهم الفرق بين النباتي الصحي والنباتي الأخلاقي، وكيف أن الثاني لا يأكل اللحوم بغرض أخلاقي، ولكنه لا ينفر منها ولا من طعمها ولا رائحتها، ولكن هيهات، فقد جعلني «العشماوي» سِلّيوة القعدة لمُدة نصف ساعة تقريبًا، ولم يُنقذني مِن براثنهم إلا تغيُّر وجهة الحديث عن طريق الصديق «حَسن كمال»، والذي بدأ يحكي لنا ذكرياته مع الفريق الأوليمبي الذي يعمل رئيسًا للبعثة الطبية معه.

ورغم أن هذا الموقف الفكاهي الطريف كان قَد أزال الكَثير من حواجز التَنشنة والتَخَشُّب في علاقتي بالرجُل، إلا أن حاجزًا واحدًا ظل باقيًا حتى الآن، وهو أنني حينما أكلمه فأنا أُكلم صديقي الأديب والـ«قاضي رئيس المحكمة»، ولكن احترامًا لجلال وظيفته، لا رهبة مِنها كما تشكَّل في وعيي مِن قَبل.

وبعد حين عندما تعرفت على صديقنا المُشترك القاضي والأديب «حُسام العادلي»، أكد لي أن مُجرد ذكر «أشرف العشماوي» في مجال القضاء كفيل بإثارة الرعب في القلوب، مُنذ أن كان يعمل رئيسًا لنيابة أمن الدولة العليا، وحتى جلوسه على منصة القضاء، وتأكدت هذه الصورة حِينما زُرته في مكتبه بوزارة العدالة الانتقالية، حيثُ كان مُنتدبًا كنائب للوزير، فوجدتُ شخصًا مُختلفًا عن ذلك المُتباسط اللطيف، وجدت صرامةً وحزمًا شديدين، وجدت شَخصًا يُلقي أوامر يُسارع الناس بتنفيذها.

فعرفتُ حينها قُدرة الرجل الرهيبة على الفصل بين كونه قاضيًا يحكم بين الناس، أو موظف كبير في الدولة، وبين كونه أديبًا أو صديقًا، وهي قُدرة الفَصل التي لا تتوفر لمُعظم الناس.

هُو أيضًا أحد أكثر المُوسوسين تجاه عمله الأدبي، فأشعر بأنه يُصاب بمُتلازمة عدم الرضا الدائم قبل النَّشر، فهو يقوم بعرض عمله على الأصدقاء المُختارين في مرحلته النهائية قبل أن يقذف به للمطبعة، وينتظر آراءهم بشغف كاتب مُبتدئ، رغم أن نجاحاته الأدبية وجوائزه ومقروئيته تُؤكد أنه كاتب كبير ومُتحقق، ويسأل أسئلة مِن نوعية:

- هل تعتقد أن الموضوع جاذب؟

- هل اللغة مُناسبة لزمن الحَكي؟

- ما هي ملاحظاتك وتحفظاتك على العمل بمنتهى الأمانة؟

والكثير والكثير من الأسئلة التي تؤكد حرصه على أن يخرج العمل بصورة مثالية.

ورغم أنه يُحَلِّفك بأغلظ الأيمان على أن تقول رأيك بصدق، ويقسم عليك ألا تَتَحَرَّج مِن ذلك حتى لو كان جارحًا، إلا أن لديه حساسية شديدة للنقد، لا سيما وإن كان صَادرًا مِن شخص سادي نقد (مع الأصدقاء فقط) زي حالاتي، فتعلمت أن أضبط مُفرداتي ومُصطلحاتي لتكون في سياق هادئ لا يجرح ولا يُسيء، وحتى في الندوات، كُنت كُلَّما أردتُ أن أُبدى تحفُّظًا أثناء المُناقشة أبدأ السؤال بجُملة «البعض يقول» كذا وكذا، تَهَرُّبًا مِن أن يكون الكلام مِن عِندي، ولكن لأنه شخص شديد الذكاء، فقد فَقَسَ تلك الحيلة، وعرف أن هذا التحفُّظ لي، فصارت جُملة «البعض يقول» مَثارًا للألش والتَنَدُّر فيما بعد، حتى إنه حينما يكون حاضرًا في ندوة لأحد الأصدقاء، ويجدني أقول البعض يقول إنك كذا وكذا، فينظر لي نَظرة كوهينية مِن تَحت النظَّارة وكأنه يقول «عَلَيَّ أنا برضه؟» ولأنني شخص لا يستطيع أن يتحَكَّم في ضحكته، تعودت ألا أنظُر إليه أثناء الندوة، أو تجنُّب قول هذه الجُملة مِن أساسه أثناء حضوره.

الشيء الوحيد المُزعج في علاقتي بـ«أشرف العشماوي» هو كاريزمته الفواحة سريعة الانتشار، لذا فأنت بجواره تحتاج إلى بذل مجهود ضخم

للظهور وإثبات الذات وصُنع الحضور المُرضي، لذلك حينما أقُوم بالتحضير لندواته أحرص على ألا يأكُلني ويقول الناس كما قالوا في فيلم عنترة بن شداد: «أكله عُروة واللّٰه»، فيكون مبدأي الواثق هو:

«ألا لا يُعَلينَ أحدٌ علينا

فنُعَلي فوق عُلو المُعَلينَ»

درس خان الهام

قد تقرأها «خان إلهام» فتَظُن أنني سأحكي عن شخص خان امرأة اسمها «إلهام»، أو مكان جديد اسمه «خان الهام» كُخان الخَليلي مثلًا، ولكن في الحقيقة الخان هُنا ينتسب للمخرج الراحل العظيم «محمد خان»، والذي كان سببًا جوهريًّا في سِمنة الشَعب المِصري بفيلمه الأكُول «خرج ولم يَعُد»، والذي كان التلفزيون يَتَعَمَّد عَرضه في عيد الأضحى أو عيد اللحمة كما يُسمونه، فيَغُبُّ النَاس مِن الأكل غَبًّا ويشربون مِن المَرق شُوبًا شُوبًا، فالفيلم عِبارة عَن أكل يَتَخَلَّله بَعض التَّمثيل، وقَد بَرَع الكبير «فريد شوقي» في أداء دور الرجُل (الدِماغ) ضارب الدُنيا بالصُرَم، والذي يَستَمتع بالحياة بأقصى طاقة مُمكنة، ولكن طاقته هُنا هي طاقة الكَسَل وليست طاقة الفِعل، وأنا شَخصيًّا كُنت أشعُر بعد كلِّ مَرة أُشاهد فيها الفيلم أن التَنبلة فِعل لازم وضروري لمواجهة أعباء الحياة، وأن الأكل هُو المُتعة المركزية في هذه الدُّنيا.

كان هذا الفيلم هُو بداية علاقتي بأفلام «محمد خان» الذي لاحظت اهتمامه بتفاصيل إنسانية لا تَشغل بال الكَثير مِن صُناع السينما العربية، فبدأت أُتابع بِشَغَف كُل ما يَصنع الرجُل مِن أعمال، فكان فيلم «الحريف» هو الفيلم الثاني الذي شاهدته له، والذي رغم فشله التجاري المُريع، وأنه كان السبب في قَطع علاقة الفنان «عادل إمام» بـ«خَان»، إلا أن رأيي فيه أنه مِن أهم أفلام السينما المِصرية، وأحد أفضل أفلام «عادل إمام» على الإطلاق، وفيلم «زوجة رجُل مُهم» الذي كان علامةً مُهمةً في تاريخ كل مَن عَمِلَ فيه، والكثير مِن الأفلام

التي كُنت أنتظر عرضها بشَغَف انتهاءً بالفيلم العبقري «فتاة المصنع»، والذي كان آخر الأعمال التي شاهدتها للرجُل.

وبَعد سنوات مِن الاستمتاع البصري والعقلي والروحي بأفلام «خان» عَلِمت أنه قد أصدر كتابًا يحكي فيه رحلته مَع الإخراج السينمائي ومسيرته الحياتية والفنية، فهَيَّج هذا الأمر أشواقي المُحبة للرجُل، فمن ناحية أتمنى قراءة السيرة الفنية له، ومِن ناحية أُخرى يُمكنني استضافته ومُناقشته في كُل التفاصيل التي شَغلتني أثناء مُشاهدة أفلامه، فاقترحت الأمر على الناشر الذي رَحَّب بالفكرة، وكان الحَدث المهم في تاريخي الشخصي وتاريخ مكتبات (أ).

استعددتُ للمُناقشة كأي حَدث سابق، ولكن الاستعداد كان مُغلفًا بِشَغَف استثنائي بمقَابلته، ولأنني لا أعرف «خان» ولا أعرف مَدَاخِله، فقد أَعدَدت أسئلة مِن كُل الأنواع، الطويلة والقصيرة، والفنية والشخصية، الماضي، والحاضر، والمُستَقبل.. أعددتُ كُلَّ ما لذ وطاب مِن الأسئلة، وبقَدر محبتي وتقديري للرجُل رَسَمت على وجهي أثناء بروفة إلقاء الأسئلة صَرامة وجِدية، فأنا أعرف أن المُخرجين يتَعَصَّبُون لأتفه الأسباب، وأنهم جادون بشكل يُثير التوتر.

دَخل الرجُل المكتبة مُتَدَثِّرًا بأرديته الثقيلة، وكُوفيته وكاسكتته الشهيرة التي تُميزه، ولا أعرف إن كانت فقط لزوم الشياكة أم لمُداراة الفراغ الشاسع الذي ضَرَب رأسه مُنذ زَمَن، فسلَّمت عليه بحرارة تليق بالمحبة، ودخلنا مُباشرة إلى قاعة الندوات، وبدأت النَدوة بالترحاب، ثُم التعريف به وبفنه، ولاحظت أثناء ذلك أن الرجُل يَجلس في كُرسيه مُرتخيًا ومُطمئنًا، وكأن الحديث ليس على

شَخصه، أو كَأنه جالس في فراندة منزله يحتسي الشاي ويُفكر في اللاشيء، فبدأ القلق يتسرب إلى قلبي، فأنا لم أستَضِف مُخرجًا مشهورًا من قبل، بل لم أستضف أي مُخرج مِن قبل سواء إن كان مشهورًا أو غير مشهور، ولكني أعلم أنهم أشخاص غريبو الأطوار، وبعضُهم غريب لدرجة الجنون، فهل هو الإحساس الممتلئ بالعظمة؟ أم هي لامُبالاة الحَدث، والذي قَد يراه الرجُل غَير لائق أو مُناسب لقدره ومقامه؟

طرحت السؤال الأول عليه، وكان عن فكرة الكتاب والأسباب التي دَعته لتأليفه، ولماذا الآن؟ فنظَر لي نَظرة تُفصح عَن عَدَم ارتياحه لطريقة طَرح السؤال، وشَعَرت حينها بأنني طَرحت السؤال بشكلٍ خاطئ أو أن هُناك إساءة صَدَرَت مِني دُون أن أشعُر، ثُم فوجئت به يَضحَك ضحكة مُجلجلة بان مِنها بلعومه، ثُم رفع حاجبيه اندهاشًا، ووجدته يقول لي:

- إيه الأسئلة الجامدة دي؟

فظَننته يمتدح السؤال في البداية، ولكن إحساسي قال لي إن في الأمر سُخرية وليس إعجابًا، وقد كان بالفعل يقصد «تَنشَنَتي» ورَسميتي المُبالغ فيها، ثُم كانت إجابته شَديدة البساطة والتبسيط وبطريقة وأداء فيه مِن المُزاح أكثر مما فيه مِن الجد، وبعد إجابته شديدة الأريحية بات واضحًا أن السؤال بهذا الأداء لا يُناسب شخصية الرجُل الذي يبدو فرفوشًا نَعنُوشًا، أو كما وصفه بعض النقاد «طفل السينما الشَقي»، فبدأت أنتبه لطبيعة الرجُل المُختلفة، وأنتبه لشيء آخر أكثر أهمية، وهو أن المُثقف ليس بالضرورة شخصًا جامدًا رسميًا يُحب التَنشَنة، وأن الجدية لا تعني بالضرورة أن تكون مُكَشّرًا أمام الناس طُوال الوقت.

وكُنت أعتقد حِينها أنني لا أصلُح للهزار مع ضيف كبير أثناء الندوة، ولكن حينما جربتها «طِلعت باعرف» فمرَّ وَقت النَدوة سريعًا، وكأننا لم نجلس أكثر مِن رُبع ساعة، فقط كُنت أحتاج إلى أن «أَفُكّ»، وقد فعلها «محمد خان» من أول سؤال، ولم آخذ في يده غَلوة، وحَوَّلَني مِن مُدير نَدوة إلى صديق على قَهوة شعبية.

تعلمت مِن درس «محمد خان» أن سَجية الإنسان الحقيقية هي التي تَصنَع مِنه شَخصًا عظيمًا، وأن التَصنُّع لا يَصنَع كاريزما، حتى وإن كان مُتقَنًا، فسُرعان ما تَزُول المساحيق ويَظهر وجه الشَخص الحقيقي، كما أن التصنُّع عادةً يحمل مِن السخافة والسماجة ما تنوء بحمله الجِبال، كما تَعَلمت أيضًا أن صوابعك مِش زي بعضها، وأن دراسة الشخص الذي ستلتقيه لا تعني فقط دراسة أعماله أو أفكاره، وإنما تعني أيضًا دراسة طبيعته وشَخصيته، فليس كُل جادٍّ في عمله صاحب شخصية جامدة، وليس كُل ساخر في كتاباته ظريف ومِهزار في حقيقته، وليس كُل روائي رَغَّاي في رصد تفاصيل التفاصيل، قادرًا على أن يسترسل مَعك في الحديث.

وصرت بعد ذلك أبحث عَن الجانب «المفكوك» في الضيوف، أي الجانب الطبيعي غير المُتكَلف، بل أُحَفِّزه على الخروج، دون إهدار الكرامة أو سفح دماء الوقار، والمُدهش في الأمر أن بَرَكة «محمد خان» قد أسفرت عن نتيجة مُؤداها اكتشاف أن كل إنسان حتى لو كان سفيرًا أو وزيرًا به جانب طريف وتلقائي، ويمُكنه الظهور بشكل طبيعي، ولكن أحيانًا يحتاج الأمر بعض

التحفيز، فرحم الله «خان» صاحب الرصيد الفني المُبهر، وصاحب نظرية «المُثقف المفكوك».

ما بَعد

هذه الحكايات التي وردت في الكتاب هي غَيضٌ من فَيض، فقط أردت بها أن أرصد مراحل مهمة ومؤثرة في حياتي، وحاولت جاهدًا أن تكون مُرتبطة بالقراءة وعالم الكُتب قَدر المُستطاع، ورُبما أخذتني نشوة النوستالجيا وخرجت قليلًا أو كثيرًا عن المُراد مِن رَب العِباد، ولكن أزعُم أنها كانت نُوستالجيا (ملمّسة على ثقافة).

وأنا لا أعرف إن كانت الذاكرة انتقائية أم لا.. ولكن ما أعرفه أنها حينما تَفعَل يتجلى أمامها الحَدَث بوضوح تام، حتى وإن مرت عليه عشرات السنين..

وهذا الكتاب بطله الأول ورُبما الوحيد هو الذاكرة التي تقبض على الحَدَث وتُمسكه من تلابيبه ولا تُفلته، وكأنه يحدُث في الآن واللحظة، ولكني أيضًا جاهدت حَتى تَجُود عليَّ قريحتي ببعض من الفَيض لأحداث مُعينة أُخرى فلم تمنحني إلا طيفًا ضبابيًّا لا يُقيم صُلب حكاية، ولا يَمنح مُشهِّياتها.. فاكتفيت هُنا بهذه المُتَذَكَّرَات، مُعطيًا عقلي فُرصًا أُخرى للتَّذَكُّر، على أن يحتوي تلك الفُرصَ كتابٌ آخر، رُبما على شاكلته، وربُما اتخذ أشكالًا أخرى.

تَوَقَّفتُ عِند بدايات العِقد الحالي وسنينه الأُولى؛ لأن ما تَلَا ذلك يحتاج إلى الإِفْرَاد.. يحتاج إلى كتابٍ مُنفَصِل، أتَمَنى أن يُعينني الله عليه.

وفي النهاية

كُل الشُّكر لمن اقتطع من وقته لقراءة هذه الحواديت الشخصية جدًّا عن القراءة..

عماد علي العادلي